برنامج اللغة العربية والعلوم الإسلامية



مركز جامعة القاهرة
للتعليم المفتوح

محاضرات فى علم اللغة العام

تأليف

أ. د / محمد حسن عبد العزيز

أ. د / محمد يوسف حبلص

محاضرات فى علم اللغة العام

تأليف

أ. د / محمد حسن عبد العزيز

أ. د / محمد يوسف حبلص

المحتويات

الموضوع **الصفحة**

القسم الأول

القسم الثانى

مقدمة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾

كرم الله الإنسان وفضله على جميع المخلوقات باللغة التي بها يبين عن فكره ومشاعره، وبها يعيش ويحقق أغراضه.

هذه المحاضرات عن اللغة من حيث هي ظاهرة خاصة مميزة مشتركة بين جميع البشر، تبحث في خصائصها وتبين عن علاقتها بالمجتمع، وتفسر تنوع أشكالها باختلاف العوامل الجغرافية والاجتماعية والأسلوبية، كما أنها تعرف بعلم اللغة Linguistics الذي يدرسها دراسة عملية، وبالفرق بينه وبين فقه اللغة، كما يعرف بمناهجه في دراستها، وبالعلوم اللغوية أو فروع علم اللغة وعلاقة علم اللغة بالعلوم الأخرى، وبتاريخ هذا العلم.

وبهذا المنهج يتحقق للطالب أساس لغوي شامل عن اللغة، وعلم اللغة، سوف يعينه - فيما يجد من مسافات- على التوسع في دراسة القضايا اللغوية التي أجملناها في هذه المحاضرات، وسوف يعينه كذلك على دراساتها في لغته القومية العربية.

وقد قدمنا هذه المحاضرات بأسلوب علمي واضح يناسب الدارسين للغة في بداية دراستهم، ولهذا فسوف يصاحب هذه المحاضرات كتاب في التطبيقات يتضمن ملخصاً شاملاً لموضوعاتها.

وأسئلة مفصلة عنها، وسوف يتضمن كذلك بعض الأسئلة العامة الشاملة لكل مفردات المقرر مع إجابات نموذجية لبعضها.

المؤلفان

أ.د. محمد حسن عبد العزيز **أ.د. محمد يوسف حبلص**



القسم الأول

الوحدة الأولى

(خصائص اللغة الإنسانية)

اللغة ظاهرة إنسانية

الأهداف :

- تهدف هذه الوحدة إلى تعريف الدارس بالخصائص المشتركة بين اللغات الإنسانية، وبوجود الشبه والخلاف بينها، بما يعينه على فهم طبيعة اللغة بعامة ولغته القومية بخاصة.
- واللغة التي هي موضوع هذه الوحدة هي موضوع علم اللغة العام الذي يدرسها، ومن ثم تهدف هذه الوحدة إلي تأسيس قاعدة فكرية تقوم عليها الدراسة العلمية لعلم اللغة.

الوحدة الأولى

(خصائص اللغة الإنسانية)

اللغة ظاهرة إنسانية

الإنسان حيوان ناطق :

لقد ثبت الآن بما لا يدع مجالا للشك أن الإنسان وحده – دون غيره من أعضاء المملكة الحيوانية – هو الذي يستخدم الأصوات المنطوقة في نظام محدد لتحقيق الاتصال بأبناء جنسه. إن اللغة وحدها هي التي تميز هذا الكائن المتفرد عن غيره من مخلوقات الله .

وقد كان شائعا قديما بين الفلاسفة أن ينعتوا الإنسان بأنه حيوان ناطق يعنون بذلك : أنه وحده القادر على وضع أفكاره في ألفاظ، وما زال ذلك صحيحا حتى يومنا هذا. ويكاد الباحثون يجمعون علي أننا لا نستطيع تخيل فكرة ما بمعزل عن الألفاظ التي تصورها، ولن يكون الفكر المجرد من الألفاظ – إذا أردنا الدقة – فكرا بأي مقياس، وفي هذا المجال يذكر أحد فلاسفتنا المعاصرين أن ناطقية الإنسان تستند إلى ركيزتين هما : ممارسة التفكير، وممارسة الحياة في جماعة، ويقرر أن البيان والإفصاح باللغة خطوة في سبيل الكشف عن النفس وعن الغير وعن الكون .

وقد وصف الإنسان حديثا بأنه حيوان صانع للآلة ومستخدم لها. غير أنه قد ثبت أن القردة العليا تستخدم أحيانا العصي في الحفر وفي الحصول علي الثمار، وقد شوهدت وهي تقطع العصي لهذا الغرض. غير أن استخدام آلات أكثر تعقيدا يتطلب نوعا من التعاون الإنساني، وهذا يتطلب تقسيم العمل بين المشتركين فيه، ولن يتحقق هذا إلا باستخدام اللغة، ولهذا استقر رأي الباحثين علي أن نشأة اللغة مرتبطة بالعمل الجماعي .

إن اللغة – في الحقيقة – هي أعظم الآلات التي يستخدمها البشر في تحقيق التعاون فيما بينهم، صحيح أن الحيوانات الأخرى يتصل بعضها ببعض أو يؤثر

بعضها في بعض عن طريق الصياح أو الإشارات، ولكن الوسائل التي تستخدمها الحيوانات في الاتصال ببنى جلدتها تختلف اختلاف كبيرا عن اللغة الإنسانية .

ولاشك أن اختصاص الإنسان باللغة، وتميزه بها عن غيره من الحيوانات قد أثارت قديما وما تزال تثير تطلع الإنسان إلى معرفة طبيعة اللغة الإنسانية، وما يميزها عن صيحات الحيوان وإشاراته، وقد كانت هذه القضية موضع بحوث علمية حديثة قام بها علماء متخصصون في علم النفس المقارن وعلم اللغة وعلم الاجتماع وعلم التشريح والطب، وكان اهتمام هؤلاء العلماء موجها إلى قضايا أربعة :

الأولى : تتصل بعلاقة اللغة بالنواحي الفسيولوجية والتشريحية .

الثانية : تتصل بما تظهره الحيوانات التي تعيش في جماعات من أفراد نوعها من سلوك قد يفهم منه أنها تستخدم شكلا من أشكال الاتصال تعبر به عن بعض المفاهيم أو المعاني .

الثالثة : تتصل بمقدرة الحيوانات على اكتساب لغة إنسانية حين تتوافر لها ظروف التعليم المناسبة .

الرابعة : تتصل بمقدرة الإنسان الذي عاش - منذ ولادته - بين الحيوانات - علي التكلم أو اكتساب لغة إنسانية .

القضية الأولى - علاقة اللغة بالنواحي الفسيولوجية والتشريحية:

من بين البحوث التي عنيت بهذا الموضوع البحوث التي تتناول علاقة اللغة بالمخ بعامة أو بمراكز معينة فيه ليس لها مثيل في أمخاخ الحيوانات، والبحوث التي تتناول علاقة اللغة بجهازي النطق والسمع اللذين يتميزان ببعض الخصائص الملائمة لإنتاج الكلام واستقباله.

أ- المخ ومراكز الكلام :

لقد كان يظن أن اختصاص الإنسان باللغة يرجع إلى درجة ذكائه العالية التي تفوق مستوى الذكاء عند الحيوانات، وكان المعتقد أن ذلك يرجع إلى نسبة ووزن دماغه إلى وزن جسمه، بيد أن البحوث الحديثة أثبتت خطأ هذه الفكرة.

لقد ثبت أن اكتساب اللغة ما هو إلا تطور بيولوجي لا علاقة له بالذكاء، كما تبين أيضا أن الأقزام يكتسبون لغتهم بشكل طبيعي علي الرغم من أن وزن دماغ الواحد بالقياس إلى وزن جسمه ضعيف جدا.

ويقرر علماء الأنثروبولوجيا أن جماجم سكان الكهوف من البشر تشبه جماجم القردة العليا، وأن المكان المخصص للتلافيف التي يعتقد أنها مركز الكلام ضئيل غاية الضآلة، وينتهون من ذلك إلى أن نشوء الكلام قام علي تطور طبيعي للمخ الإنساني، وهي مرحلة من التطور لم يصل إليها الحيوان .

وقد تقدمت البحوث التي دارت في هذا المجال تطورا مبهرا، لقد تبين للعلماء، أن المخ الإنساني ينقسم إلى نصفين متماثلين، يسيطر النصف الأيسر منه علي الجانب الأيمن من الجسم، ويسيطر النصف الأيمن منه علي الجانب الأيسر من الجسم، وأن النصف الأيسر من المخ يضم مراكز معينة مختصة بإنتاج الكلام واستقباله وتفسيره لا نظير لها عند الحيوان.

وينبني علي هذا وذاك تقريرهم أن الإنسان مهيئ بيولوجيا لاكتساب اللغة، فقد لوحظ أن الطفل لا يمكنه اكتساب اللغة اكتسابا عاديا بعد سن معينة، ويبدو أن هذه المرحلة الحرجة توازي المرحلة التي تكتمل فيه عملية التخصص السابقة (أي اختصاص نصف المخ الأيمن بالجانب الأيسر من الجسم واختصاص نصف المخ الأيسر بالجانب الأيمن) .

ب- جهاز النطق والسمع :

نقرر ابتداء أن ما يطلق عليه جهاز النطق ليست وظيفته الطبيعية إنتاج الكلام بل له وظائف أخرى ضرورية أكثر حيوية. وقد أثبتت البحوث الحديثة أن لدي الحيوانات أجهزة للنطق علي جانب كبير من الدقة والتعقيد، فلدي الطيور جهاز للتصويت يتألف من حنجرة صغيرة اسمها المصفار تقع أسفل القصبة الهوائية، وإن كان الصوت يتكون عندها بدخول الهواء إلى الرئتين، لا بخروجه منها كما هو الحال عند الإنسان والحيوانات الثديية .

ولدى الحيوانات الثديية جهاز صوتي متطور وكامل هو الحنجرة التي تماثل في تركيبها ووظيفتها حنجرة الإنسان .. وبقية أعضاء جهاز النطق

الأخرى كالرئتين والأسنان والفكين واللسان والشفتين لها صفات تجعلها مناسبة لعملية الكلام، وإن لم تكن تلك الصفات لازمة لأداء وظائفها الضرورية .

وللطيور والحيوانات التي لها جهاز صوتي جهاز سمعي متطور جدا، بل إن لبعضها قدرة عجيبة على سماع الأصوات بدرجة تفوق قدرة الإنسان، ومع ذلك فالبحوث الحديثة تقرر أن الإنسان وحده لديه القدرة على تفسير الرموز الصوتية التي تصل إلى مخه في صورة إشارات كهربية إلى معان بفضل ما لديه من خبرات سابقة لوجود مركز للذاكرة بمخه .

وهكذا نتبين أن الإنسان مهيئ فسيولوجيا وتشريحيًا لإنتاج الكلام واستقباله وتفسيره، وهذا بعض ما فيه من آيات الله في خلقه وتقويمه وتعليمه .

القضية الثانية ـ لغة الإنسان ووسائل الاتصال عند الحيوان:

لعل أظهر ما في اللغة الإنسانية من صفات أنها منطوقة، ولهذا توجهت البحوث إلى هذا الجانب لتكشف عن مقدرة الحيوان علي التصويت أو إنتاج الأصوات، غير أن الإنسان أحيانا قد يستخدم الإشارة كما يستخدم الأصوات، وإن كان استخدامه لها ثانويا في أغلب الأحوال(١)، وقد ثبت كذلك أن لدي الحيوان أنظمة إشارية متنوعة(٢) .

ومن المعلوم أيضا أننا نستخدم اللغة للاتصال بأمثالنا من بني البشر وللتأثير فيهم ودفعهم إلى أنواع من السلوك الذي نرغبه عند الاتصال بهم،

---

(١) يستخدم الصم نظاما عرفيا كاملا من الإشارات يعتمد أساسا علي شكل اليدين وحركة الجسم واتجاه الحركة وعضو الجسم الذي تتجه اليه ... الخ .

ولغة الإشارة تماثل اللغة المنطوقة في كثير من الصفات، فهي تتضمن وحدات إشارية تقوم بوظيفة الكلمات في اللغة المنطوقة، وتتضمن أيضا عددا من القواعد التي تمثل نحو هذه اللغة .

(٢) لقد اكتشف العلماء أن معظم الحيوانات لديها نوع من الأنظمة الإشارية تستخدمه في الاتصال ببني جنسها، فمن المعروف أن العناكب لها نظام معقد للتعبير عن الحب، فذكر العنكبوت – عليه قبل أن يبدأ مغازلة الأنثي أن يقوم ببعض الحركات المتعمدة ليخبر الأنثي بأنه عنكبوت حقا وليس أية حشرة أخرى. وقد لاحظ العلماء أن هذه الحركات ثابتة – فلم نجد عنكبوتا – في هذا الموقف – يغيرها أو يضيف إليها .

ولدينا نحن البشر القدرة على التعرف على ما يحدثه هذا الاتصال اللغوي بالغير في شكل ردود أفعال أو استجابات تؤكد أن عملية الاتصال قد تمت، وأنها قد فسرت تفسيرا صحيحا أو خاطئا .

وهكذا يبدو لنا أن لغتنا تتضمن جانبين لا ينفصلان :

الأول: جانب اللفظ أو الشكل ويتمثل في منطوقات أو إشارات .

والثانى: جانب المعني أو المضمون ويتمثل في مفاهيم أو ردود أفعال.

وإذا كانت لغات البشر جميعا يتمثل فيها هذان الجانبان المتلازمان فهل لدى الحيوانات وسيلة مماثلة أو مقاربة للاتصال بأفراد نوعها ؟

لقد أجريت بحوث وتجارب متنوعة علي أنواع مختلفة من الحيوانات للتعرف علي طبيعة وسائل الاتصال التي تستخدمها، ومقارنتها بلغات البشر. لقد تبين مثلا أن القردة العليا – وهي من أرقي الحيوانات الثديية بعد الإنسان – تعيش في جماعات وتنتقل كذلك في جماعات، وتظهر ذكاء واضحا في السعي للحصول على الطعام وفي الانتقال من مكان إلى مكان. وقد نجحت القردة العليا في استخدام بعض الأدوات وفي حل بعض المشكلات البسيطة في أثناء التجارب، وفي حياتها العادية تبدي مقدرة كبيرة علي الاتصال بأفراد نوعها .

وقد أثارت بحوث (كيولر) خلافا كبيرا بين الباحثين، فيما يتعلق بنشاطها العقلي إذ يري أن الشمبانزي تبدي استعدادا وبدايات للسلوك الذهني من نفس نوع ونمط سلوك الإنسان، ويذهب (يركيز) إلى أبعد من هذا فيعترف بأن القردة تتمتع " باستذهان راق " على مستوي طفل في الثالثة من عمره .

ولا يري آخرون أي شيء في أداءات الشمبانزي يتعدى آليات الغريزة والتعلم بالمحاولة والخطأ. وعلي كل فالباحثون متفقون علي أن أداءات الشمبانزي تمثل نشاطا عقليا يتم في غيبة الكلام، وهو ما يميز الإنسان الذي لا ينفصل عنده التفكير عن اللغة .

ويري (يركيز) أن القردة العليا وبخاصة الغوريلا والجيبون مهيئة بيولوجيا لإنتاج عدد متنوع من الأصوات يشبه الأصوات الإنسانية، بل ويقرر بعض الباحثين أن صيحاتها تمثل عناصر كلامية من حيث إنها ترتبط بمواقف أو موضوعات محددة. وفي هذا المجال نجح بعض الباحثين في تسجيل اثنتين وثلاثين صيحة مختلفة لها علاقة بمواقف محددة كالخوف والألم والفرح والتحذير ... إلخ .

ومع ذلك فأغلب الباحثين ينكرون قدرة القردة علي استخدام صيحاتها علي أنها علامات أو رموز، و (كيولر) نفسه يري أن الشمبانزي يطلق فحسب صيحات محددة لأغراض محددة كأن يستدعي رفاقه أو ينذرهم بخطر .. أو نحو ذلك أي أنها صيحات خاصة بالتعبير عن الانفعالات والرغبات .

ويفسر الباحثون عدم قدرة القردة علي الكلام – علي الرغم من تطور جهازها الصوتي وقيامه بوظائف الجهاز الصوتي عند الإنسان – تفسيرات مختلفة، فـ (يركيز) يرجع ذلك إلى نقص وضعف مقدرتها علي التقليد الصوتي، إنها لا تقدر علي ما يفعله الببغاء بنجاح.

ويرى آخرون أن عملية الكلام تتطلب عملية عقلية من نوع خاص، وليس هناك ما يدل على أنها في مقدورة الشمبانزي .

ولقد أجرى العالم الألماني (فريش) تجارب مثيرة على نحل العسل استخلص منها أن النحلة التي تكتشف مصدر الطعام تستطيع أن تحدد – بدقة بالغة – المسافة بين الخلية ومصدر الطعام، واتجاه مصدر الطعام، وذلك برقصات دائرية معينة يكون الرأس في أثنائها متجها وجهة خاصة وبزاوية محددة. وهذا يعني أنها قادرة علي تأليف رسالة إشارية ذات غرض محدد للاتصال بأفراد من نوعها، وفي هذا – ولاشك – شبه من نواح عدة بما يفعله الإنسان مثلا حين يتصل بغيره من أبناء جنسه .

وتشير التجارب التي أجريت على الطيور إلى مقدرتها العجيبة علي إنتاج

الأصوات المتنوعة، وعلي تقليد الأصوات الإنسانية، ونستخلص من هذه التجارب أنها قادرة علي إنتاج عدد كبير جدا من الأصوات، وعلي استخدامها في مواقف أو لأغراض محددة، ومع ذلك فهذه البحوث تؤكد أن لغة الطيور كغيرها من أدوات الاتصال عند الحيوانات محدودة في مضمونها، ومكرورة لا مجال فيها للخلق أو للابتكار .

هذا وينبغي الوقوف طويلا إزاء هذه النتائج التي تشير إليها التجارب والبحوث السابقة.

إن نجاح القردة مثلا في استخدام الأدوات وفي حل المشكلات قد يتحقق في ظروف محكومة أي في مواقف تبعث على الحماس، ولكنها قد تتصرف في بيئاتها الطبيعية علي نحو آخر، بل إن (كيولر) نفسه يقرر أن نجاح أداءات الحيوانات يتوقف على رؤيتها لكل عناصر المواقف في آن واحد أي بطريقة متزامنة، فلو أن العصا التي تستخدم للوصول إلى الفاكهة الواقعة وراء قضبان القفص حركت بحيث يتعذر رؤية العصا والفاكهة بنظرة واحدة لأصبح حل المشكلة عسيرا بل مستحيلا. كما أن فشل الحيوان في التجارب قد يعزي إلى فشل الباحثين في التعرف علي قدرات الحيوان بطريقة مناسبة أي أنهم قد يستخدمون طرقا غير ملائمة أو يتجاهلون الحدود التي يمكن للحيوان أن يظهر فيها قدراته .

عناصر الاختلاف بين لغة الإنسان وأدوات الاتصال عند الحيوان:

لقد أكدت البحوث والتجارب التي أشرنا إلى بعضها آنفا أن الحيوانات تستخدم شكلا ما للاتصال بأفراد نوعها، وأن هذا الاتصال قد يتم عن طريق التصويت (كما تفعل الطيور دائما، وكما تفعل بعض القردة العليا أحيانا) أو عن طريق الإشارات (كما تفعل معظم الحيوانات وبخاصة النحل الذي يستخدم الدورات والرقصات).

وسوف نحدد هنا طبيعة هذه الأشكال وعلاقتها باللغة التي يستخدمها الإنسان في الاتصال ونهدف بذلك في الحقيقة إلى بيان طبيعة اللغة الإنسانية .

تختلف صيحات الحيوان وإشاراته في اللغة الإنسانية من الوجوه الآتية:

أولا : لقد رأينا أن النحل يستطيع أن يحدد مكان الطعام بدقة باستخدام أشكال معينة من الدورات والرقصات، غير أن هذه الأشكال محدودة للغاية فهي تقتصر علي هدفين هما : تحديد المسافة والجهة، فلم يثبت أن النحل لديه أشكال حركية للإشارة إلى كمية الطعام أو لون الأزهار أو غير ذلك من المعلومات التي تتصل بالطعام أو بغيره من الأغراض. ورأينا أيضا أن مجموعات الأصوات التي تستخدمها الشمبانزي في الاتصال تكاد تكون محصورة في إطار التعبير عن رغباته، وظهر لنا كذلك أن أغاني الطيور لا يتجاوز مضمونها مجال الطعام والعش والصغار .

وعلي هذا فالأشكال التعبيرية عند الحيوان محدودة في إطار ضيق علي حين يتسع إطار الأشكال اللغوية عند الإنسان اتساعا يشمل كل تجارب الإنسان ومعارفه .

ثانيا : قد تستعمل الحيوانات الأصوات في الاتصال، وقد أشرنا إشارة موجزة إلى اختلاف الباحثين في طبيعة هذه الأصوات. وفي الغرض من إنتاجها. والأصوات قد تكون رد فعل مباشر لمؤثر ما، كأن يطلق الإنسان صرخة حين يتعرض لما يؤلمه أو يؤذيه، هذا الصرخة إشارة مباشرة بسيطة، والعلاقة بينهما وبين ما تدل عليه علاقة مباشرة، وقد تكون رموزا اصطلاحية غير مباشرة، فحين تطلب من زميلك قلما قائلا : أعطني قلمك. تستخدم عددا من الرموز الصوتية تتمثل في الجملة السابقة، وليست هناك علاقة مباشرة بين الجملة المنطوقة وما تدل عليه، فالعلاقة بين كلمة (القلم) مثلا ومعناها في حقيقتها علاقة اعتباطية غير مباشرة، ففي العربية نستخدم اللفظ (قلم) للإشارة إلى شيء محدد هو الآلة التي نستخدمها في الكتابة، وفي الإنجليزية يستخدمون لفظا آخر هو Pencil، وفي الفرنسية يستخدمون لفظا ثالثا وهكذا ولو كانت العلاقة بين اللفظ وما يشير إليه علاقة مباشرة لكان للبشر لغة واحدة، وهذا معناه أن العلامة قد تنفصل

عما تشير إليه في لغة الإنسان .

أما عند الحيوان فهناك تلازم بين العلامة والمدلول، ويرى (فندريس) أنه للتخلص من هذا التلازم الضروري في لغة الحيوان وحتى تأخذ العلامة قيمة مستقلة عن الشيء ينبغي أن يتوفر عند الحيوان قدرة علي عملية نفسية معقدة، هذه العملية ليست في مقدرة الحيوان، وهذا هو الفارق الأساسي بين لغة الإنسان والحيوان .

ثالثا : من الواضح أننا نستخدم اللغة للاتصال بالغير ممن يعرفون لغتنا، فحين أتوجه إلى صديق وأقول له هات القلم من فضلك أكون قد عقدت اتصالا به بهدف الحصول علي القلم، وحين يقدم إليَّ القلم يكون قد استجاب لما أريد ومن ثم يتحقق الهدف من الاتصال.

من الواضح أن عملية الاتصال السابقة مقصودة. لقد اخترت لتحقيق الغرض وسيلة أو وسيطا يتم به الاتصال. ومن الواضح أيضا أن لدي إدراكا بالعلامات المختارة باعتبارها وسائط أو وسائل. والقصد بالضرورة يفترض اختيارا، لقد كان من الممكن اختيار وسيلة أخرى كأن آخذ القلم عنوة، وكان من الممكن أيضا أن أخطئ في استخدام الوسيلة فأقول مثلا هات لي السيارة، وأنا أعني القلم فلا تتحقق الاستجابة المطلوبة .

لقد تبين لنا أن بعض الحيوانات قد تنجح في إجراء اتصال بأفراد نوعها أو أفراد نوع آخر عن طريق الصياح أو الإشارة. وقد تتحقق نتائج لهذا الاتصال في شكل استجابات أو ردود أفعال، غير أننا نحن الذين نزعم أن صيحاتها علامات أو وسائط مما نراه من آثارها في الحيوانات الأخرى. نحن الذين نزعم أن الشمبانزي حيث يصيح قائلا : (ee) يعبر عن الخوف، لأننا لاحظنا أن الحيوانات الأخرى تفر بمجرد سماعها.

وسوف يكون تعميما خاطئا إذا ما قلنا إن هذا الاتصال مقصود بالمعني الذي أشرنا إليه آنفا، كل ما يحدث هو أن الحيوان يصيح معبرا عن الخوف وأن

الحيوانات الأخرى قد استجابت لصيحته دون أن يقصد إلي أخبارها البتة. ليس هذا النوع من الصيحات اتصالا، لأن الاتصال الصحيح يستلزم القصد كما أن القصد يستلزم اختيارا للعلامات .

وفي النهاية نقول إن الحيوان – في الحقيقة – لا يشعر بصيحته أو إشارته علي أنها علامة أو رمز، أما الإنسان فلديه إدراك بالعلامات التي يستخدمها باعتبارها وسائط لتحقيق أغراض، ولديه أيضا قصد واع عند استخدامها، ومن ثم يختار من بينها ما يراه مناسبا للموقف، وقد يصيب وقد يخطئ ما دام مختارا، أما الحيوان فليس لديه هذا الإدراك أو هذا القصد.

رابعا : يستخدم الإنسان اللغة في الإشارة إلى أشياء حسية، ويستخدمها أيضا في التعبير عن أفكار ذهنية مجردة، فالعربي مثلا يستخدم الكلمة : (تفاحة) للإشارة إلى الثمرة المعروفة، كما يستخدم كلمة (صداقة) للتعبير عن مفهوم مجرد ناتج عن خبرات أو تجارب اتصل بها علي نحو الأنحاء .

ويقرر (كيولر) أن تعبيرات الشمبانزي الصوتية تدل فحسب علي الرغبات والحالات الذاتية ولا تمثل علي الإطلاق إشارة Sign لأي شيء موضوعي. لقد كانت قردة (كيولر) تلعب بالصلصال وترسم رسوما حقيقية في مراكز التجارب، ولكنها في الحياة الطبيعية لا تفعل شيئا من هذا، ولهذا يقول (كيولر) : " لا نجد شيئا من آثار القردة يمكن أن نعدها تصميما أو تمثيلا لشيء. إنها في الحقيقة لا تستطيع أن تستخدم صوتا معينا أو إشارة معينة تقصد بها شيئا محددا محسا كان أو مجردا .

خامسا : يستطيع الإنسان أن يعمم اللفظ الذي يستخدمه في الإشارة إلى أشياء متشابهة فكلمة (حقيبة) مثلا تشمل جميع أنواع الحقائب، حقيبة اليد وحقيبة الكتب وحقيبة الملابس.. إلخ، وهذا اتجاه إلى تعميم الرمز اللغوي، فإذا ما أراد التخصيص أضاف إلى الكلمة رموزا لغوية أخرى تحدد المقصود وتعزله عما سواه مما يشبهه كأن يقول مثلا : حقيبة المدرسة أو الحقيبة الصغيرة أو حقيبة والدك ... إلخ .

إن الكلمات ما هي إلا رموز تلخص الموجودات، إن عملية التعميم تعتمد علي التجريد الذي هو عمل من أعمال الذهن يتلخص في أن الإنسان يجرد الشيء من مشخصاته ويركز النظر علي عنصر من فكرة أو تمثل مع إغفال العناصر الأخرى، والتجريد من شأن الإنسان فهو بطبيعته لا يستطيع أن يحيط بالواقع كله، ولا يرى منه إلا جزءا معينا في وقت واحد. إن كل ما في الكون من حقائب - بغض النظر عن التفصيلات والفروق غير الجوهرية التي تخرجها عن حقيقتها - يصدق عليها هذا الاسم .

هذا ما يراه الفلاسفة أما علماء سلوك الحيوان فلم يتبينوا هل الصوت الذي يصدره الحيوان مثلا للتحذير من الخطر يعني خطرا معينا أم أنه تحذير عام من كل الأخطار ؟

سادسا : تستخدم اللغة الإنسانية للإشارة إلى أشياء أو أحداث بعيدة عن المتكلم زمانا ومكانا، فالإنسان يستطيع أن يحكي أحداثا أو يصف مشاهد مرت به أو بغيره من الناس منذ زمن بعيد. كما يستطيع أن يتحدث عن تجارب أو مشاهد يتوقع حدوثها في المستقبل. وقد أشرنا من قبل إلى أن النحل يستطيع أن يخبر عن مكان الطعام بعد أن يعود إلى الخلية – وهذا مؤداه أن لديه القدرة علي الإخبار بتجارب ماضية غير أنها قدرة محدودة بالإخبار عما رأته النحلة بنفسها، ولم يثبت حتى الآن أن لدى النحلة قدرة علي وصف تجارب الغير، كما دلت التجارب على أن الحيوان لا يستطيع الإشارة إلى أحداث مستقبلة .

سابعا : قد ينطق الحيوان بعض الأصوات في أشكال تشبه الكلمات، وقد تعبر هذه المنطوقات عن حاجة أو علي أضعف الفروض – قد تشير إلى شيء ومع هذا فهذه الأشكال تختلف عن لغة الإنسان اختلافا تاما. فلغة الإنسان مركبة، أي تتألف من وحدات صغراها الوحدات الصوتية (من الصوامت والحركات) ويتألف من هذه الوحدات الصغرى وحدات أكبر منها هي الكلمات، ويتألف من هذه الكلمات وحدات أكبر منها هي الجملة .

فالمنطوق " محمد قادم " جملة تتألف من كلمتين هما : محمد وقادم وكل كلمة من الكلمتين السابقتين تتألف من وحدات صغرى هي الحروف فالكلمة محمد مثلا تتألف من الوحدات (م + ضمة + ح + فتحة + م + م + فتحة + د + ضمة + ن).

فهل تشبه صيحات الحيوانات لغة الإنسان من هذه الناحية ؟

لقد نجحت (لورنز) في تسجيل صيحات " غراب الزيتون " بنفس الطريقة التي تسجل بها لغات البشر، وقام بتحليلها بنفس المنهج المستخدم في تحليل لغات البشر. ومع هذا فلم يجزم بأن كل صيحة من صيحات هذا الطائر تمثل وحدة مفردة شبيهة بالكلمات، وأن كل صيحة منها تتألف من وحدات صغري شبيهة بالحروف التي تؤلف الكلمات. وقد ثبت أيضا أن الحيوانات لا تستطيع أن تؤلف من صيحاتها – إذا أمكن عزلها أو إفرادها – وحدات شبيهة بالجمل .

والخلاصة أن صيحات الحيوان لا تتضمن وحدات شبيهة بالوحدات التي تتألف منها لغة الإنسان، وتفتقر إلى التأليف أو التركيب الذي تتصف به لغة الإنسان. والذي يجعلنا قادرين علي تقسيم أي منطوق إنساني إلى أجزاء أو وحدات. إن صيحة الحيوان التي تنذر بالخطر مثلا لا يمكن تقسيمها إلى وحدات كما يمكن تقسيم أي منطوق لغوي إنساني .

ثامنا : يستطيع الإنسان أن يستبدل كلمة بكلمة في منطوق معين. قد يقول قائل، وهو يري السفينة التي ينتظر ظهورها : السفينة قادمة من الشمال. مثل هذا القائل يستطيع أن يستبدل كل كلمة من كلمات المنطوق السابق في مواقف أخرى، إنه يستطيع مثلا أن يقول :

السيارة

القاطرة قادمة من الشمال

الطائرة

..... إلخ

ويستطيع أيضا أن يقول :

الشمال

السفينة قادمة من الجنوب

الشرق

.... إلخ

وبهذه الطريقة يمكن للإنسان أن يصنع عشرات بل مئات من الجمل، وقد أثبتت البحوث اللغوية الحديثة أن عدد المنطوقات التي يمكن للإنسان أن ينتجها لا حصر لها، أما صيحات الحيوانات والطيور فمحدودة العدد، فالعصفور (الأعظم) وهو من أكثر الطيور تصويتا له فحسب ما يقرب من ثلاثين صيحة مختلفة. وهذا معناه أن لدى الإنسان مقدرة هائلة على الخلق والابتكار أي خلق جمل جديدة وفقا للمواقف التي تتطلب هذه الجمل، بل قد ثبت أن الطفل الذي لم يتجاوز الرابعة من عمره يستطيع أن يؤلف جملا لم يستخدمها من قبل ويستطيع أن يفهم جملا لم يسمعها من قبل .

تاسعا : وحين يؤلف الإنسان جملا لا يفعل ذلك علي هواه بل يلتزم قواعد صوتية وصرفية ونحوية ومعنوية معقدة متعارف عليها بين أبناء لغته ووفقا للمواقف المتعددة التي تتطلب منطوقا معينا، فالرجل الذي قال : السفينة قادمة من الشمال ينبغي أن يحدث تغييرا صرفيا في منطوقه عندما يتغير الموقف الذي يراقبه فيقول مثلا السفينتان قادمتان من الشمال .

أو يقول :

القطاران قادمان من الشمال

وليس لدي الحيوان مثل هذه المقدرة علي تغيير المنطوقات وفقا للمواقف.

عاشرا : يكتسب الإنسان قواعد لغته من الجماعة التي يشاركها لغتها، ترتبط لغة الفرد بلغة جماعته، وهذا الارتباط المتبادل بين لغة الفرد ولغة

الجماعة يكسب اللغة تنوعا عظيما نظرا لتنوع الجماعات التي تستخدم اللغة المعينة بفعل عامل المكان والزمان. فسكان القاهرة مثلا تختلف لغتهم اختلافا ظاهرا عن لغة سكان قري دمياط التي تبعد عنهم حوالي مائتي كيلو متر، كما أن لغة المصريين اليوم تختلف عن لغتهم منذ مائة عام مثلا.

ولقد أثبتت البحوث أن التنوع الذي يمكن أن يحدث بين مستعمرات النحل طفيف جدا لا يكاد يشبه التنوع الذي يحدث بين المجتمعات الإنسانية، إن صور الرقص وأشكاله التي لها علاقة متبادلة بمصدر الطعام خصائص نوعية أي خصائص هذا النوع في أي مكان) : وقد أثبتت أيضا أن الحيوان لديه مقدرة محدودة في مجال محدود على تطوير سلوكه .

حادي عشر : لغة الإنسان مكتسبة أي يتعلمها الأبناء من الآباء، ولابد للفرد – لكي يكون ناطقا – أن يعيش في مجتمع، فإذا لم يتوفر له ذلك فسيظل محروما من اللغة.

ويزعم بعض الدارسين أن بعض الحيوانات والطيور تكتسب صيحاتها أو إشاراتها من بيئاتها ومهما قيل في هذا المجال فسلوك الحيوان اللغوي – إن صح هذا التعبير – ليس في الغالب – محصلة تعلم واكتساب بل هو سلوك غريزى يتوارثه أفراد النوع كما يتوارثون أنواع السلوك الأخرى كالطعام والإخراج والحركة ... الخ .

ويؤكد ذلك كثير من التجارب فقد لوحظ أن فرخ الدجاجة يطلق صيحاته المحددة بمجرد خروجه من البيضة. وتستجيب الأم لصيحاته في الحال، بل وجد أن بعض الطيور تطلق صيحاتها وهي ما تزال في البيضة .

وهكذا نتبين أن أدوات الاتصال عند الحيوان – مهما تنوعت وتعقدت – لا يمكن أن تقاس – بحال من الأحوال باللغة الإنسانية في شكلها ومضمونها. ومع ذلك فلم ينصرف العلماء عن إجراء تجارب جديدة للتعرف علي طبيعة هذه

الأدوات باستخدام أساليب حديثة لم تستخدم من قبل، بيد أن هذه التجارب ما تزال في بداياتها، وإلى أن تظهر نتائجها وتتأكد لنقل: إن اللغة ظاهرة إنسانية، وإن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يستخدمها .

القضية الثالثة - تعليم الحيوانات لغة إنسانية:

انتهي بنا البحث إلى أن أغلب صيحات الحيوان وإشاراته موروثة غير مكتسبة كغيرها من أنواع السلوك مثل سلوك الاغتذاء وطلب المأوي ورعاية الصغار .. إلخ، فصغار الحيوانات لا تكتسب سلوكها اللغوي من بيئتها بل ترثه كما ترث أنواع السلوك الأخرى .

وقد دار في أذهان البشر قديما وما يزال يدور إلى اليوم – سؤال هل يستطيع الحيوان أن يكتسب لغة إنسانية إذا ما توفرت له الظروف المناسبة ؟

لقد بذل (مورر) جهودا مضنية في تدريب أنواع مختلفة من الطيور علي نطاق بعض الكلمات، وقد كان نجاحه أظهر في تدريب الببغاوات، وقد انتهي من بحوثه إلى أنه من الممكن تدريب الطيور علي استخدام الكلمات في التعبير عن حاجاتها وفي الإشارة بها إلى بعض الأشياء والأحداث. علي أن ما قرره يتعارض مع ما انتهي إليه (كويلر) الذي يقرر أن الطائر لا يستطيع أن يلفظ بكلمة تشير إلى الطعام حين يكون جائعا، أو بكلمة تشير إلى الماء حين يشعر بالعطش .

والذي يميل إليه كثير من الباحثين إلى أن الطيور وبخاصة الببغاوات قد تكون قادرة علي إنتاج منطوقات تشبه الكلمات والعبارات التي تتألف منها لغة مدربها غير أنها – في الحقيقة – تحكي ما سمعته أو تعلمته، يؤكد ذلك أن أحد العلماء نجح في تعليم ببغاء الإنجليزية، وبعد فترة استعان بمدرب ينطق الإنجليزية بلكنة مجرية، وسرعان ما ظهرت على لسانها هذه اللكنة .

على أن ما هو أوضح من ذلك في تقدير قدرتها علي التعلم أنها قد تنجح مثلا : في أن تقول (أهلا) أو (وداعا) ولكن من المحتمل أن تستخدم كلا منهما

في موضع الآخر فتقول للمقبل عليها (وداعا) وللراحل عنها (أهلا) وهذا يؤكد أنها لا يمكنها أن تستخدم اللغة الإنسانية استخداما وظيفيا .

وقد ينجح المدرب في أن يعلم الببغاء أن تقول – حين ترى قطة تدخل إلى حجرتها : القطة دخلت. بيد أنها بالتأكيد لن تستطيع – حين ترى عددا منها – أن تقول : القطط دخلت. وهذا يعني أنها غير قادرة على إحداث تغيير فيما تعلمته من منطوقات ليلائم الموقف الجديد.

والعلماء – مع تشككهم – فيما انتهي إليه (مورر) متفقون علي أن المعجم الذي يمكن أن تتعلمه الطيور محدود جدا، وأنها لا تستطيع – على أية حال – تأليف جملة لم تتعلمها من مدربها من مفردات سبق أن تعلمتها .

وقد أجرى العلماء بحوثا أخرى عديدة وبذلوا جهودا مضنية لتعليم الحيوانات وبخاصة القردة العليا لغة إنسانية منطوقة، وقد كان فشل أكثرها ذريعا، ونجاح أقلها محدودا بما نبه العلماء إلى أن ما يمكن أن يسمي جهاز النطق عند الحيوان غير مهيئ لإنتاج الأصوات الإنسانية ومن ثم انصرفت التجارب عن هذا المجال وتوجهت إلى تعليمها لغة الإشارة، لقد نجح العالم (دافيد بريماك) في تعليم القردة (سارة) لغة إشارية تتألف من رموز تتمثل في أشكال متنوعة من رقائق البلاستيك الملونة بألوان مختلفة، وكانت (سارة) ومدربوها يتفاهمون معا بهذه اللغة بترتيب هذه الرموز (أو الرقائق) علي لوحة ممغنطة .

١- تعلمت كيف تربط رمزا معينا (رقيقة البلاستيك) بشيء محدد، فقطعة البلاستيك المستديرة الحمراء تعني (موزة)، وقطعة البلاستيك المستطيلة الزرقاء تعني (مشمشة) .. وهكذا. ومن الواضح أن أشكال الرموز وألوانها عرفية، فليس ثمة علاقة مباشرة بين قطعة البلاستيك المستديرة الحمراء والموزة ... إلخ .

٢- نجحت في استخدام بعض الأشكال التي تعبر عن مفاهيم مجردة مثل

مختلف عن، مماثل لـ ... إلخ، وكانت الأشكال التي تستخدمها – بالإضافة إلى ما سبق – تتضمن بعض الأشكال التي تطابق ما في اللغة الإنجليزية من أجناس لغوية (أي من الأسماء والصفات والأفعال).

٣- نجحت نجاحا واضحا في استخدام أدوات النفي والاستفهام، ولكنها لم تستطع – ومن المحتمل ألا تستطيع البتة – أن تؤلف سؤالا منفيا، مع أن لديها أشكالا للنفي وأخرى للاستفهام .

٤- أتقنت بعض القواعد النحوية الخاصة بترتيب الكلمات في الجملة، وكانت قادرة علي تأليف جمل جديدة في حدود الجمل التي تعلمتها فحسب. ونجحت نجاحا ملحوظا في فهم كثير من الجمل المعقدة .

والآن هل نطمئن إلى القول بأن سارة قد تعلمت لغة إنسانية ؟

لقد ظهر مما سبق أن لغة الإشارة تتضمن كثيرا من خصائص اللغة الإنسانية، ومع ذلك، فما تزال لغتها مختلفة عن لغة البشر ويكفي في ذلك أن نشير إلى ما بينها من فروق فيما يتصل بطريقة الاكتساب أو التعلم .

كان مدربو سارة يبذلون جهودا مضنية في تعليمها القواعد، وكان لا ينتقلون من تعليمها قاعدة معينة إلى قاعدة أخرى إلا بعد أن يطمئنوا إلى أنها قد أتقنتها تماما، فإذا ما تم ذلك بدأوا في تعليمها القاعدة الجديدة بطريقة محددة ومقصودة، أما الآباء عندما يتحدثون إلى أبنائهم فلا يقيدون أنفسهم بكلمات قليلة (كالكلمات المحدودة التي تتضمنها لغة سارة) أو بنظام محدد في وقت محدد، ولا يتوقفون عن تعليم الطفل حتى يتأكدوا من إتقانه قاعدة سابقة .

إن الطفل لا يتلقى تدريبا مقصودا محددا، بل إن كثيرا من الأطفال ربما لا يلتقون بآبائهم إلا نادرا، إن الأطفال في الحقيقة يلتقطون اللغة من أفواه المحيطين بهم خاصة الصغار، وبتشجيعهم وبعنايتهم يتمكن الطفل من إتقان لغته، ولهذا السبب لا يتمكن الطفل من اكتساب اللغة إذا عاش منعزلا عن مجتمع لغوي .

والطفل حين يتحدث يتحدث بعفوية مع من يشاء وحين يشاء، أما سارة فلم تكن تستخدم الإشارات إلا مع مدربيها وفي الظروف التي تهيأ لها حتى تنجح في ذلك .

ومن الواضح أيضا أن مدربي سارة كانوا يستخدمون معها منهجا يعتمد على الثواب فعندما تنجح في إنجاز المطلوب منها كانت تثاب على نجاحها، على حين لا يثاب الطفل دائما على كل كلمة جديدة ينطقها أو كل جملة ينجح في تأليفها .

لقد ثبت للباحثين أن سارة لم تحقق النجاح المحدود الذي بلغته إلا بعد تدريب خاص محدد وفقا لخطة مدروسة، وقد تم ذلك في عزلة نسبية وفقا لمنهج نفسي معروف سلفا، أما البشر فسوف يكتسبون لغتهم ما داموا يعيشون في مجتمع لغوي بغض النظر عن كل الظروف التي هيأها المدربون لسارة كي تتقن في خمس سنوات هذا العدد المحدود من الأشكال اللغوية.

ولاشك أن هناك أسبابًا عديدة تفسر عجز الحيوان عن تعلم لغة إنسانية، فقد تكون هذه الأسباب فسيولوجية (مثل عجز أعضاء الحيوان عن إنتاج الحركات المناسبة لنطق الأصوات، أو ضعف قدرة الحيوان علي التحكم فيها، أو عدم وجود أعضاء معينة مثل الوترين الصوتيين) وقد تكون راجعة إلى عجز المدرب وافتقاره إلى المهارة والصبر الضروري في نجاح عملية التعلم. وربما كانت الأسباب العقلية أهم هذه الأسباب، فأكثر الباحثين اليوم يرون أن الإنسان يملك عقلا ذا قدرات خاصة، قدرات على التحليل والتركيب لا تتوفر لأي حيوان آخر. ولا نعني بهذا الإنسان الذكي فحسب، بل إن أغبى الناس يتقن لغته تماما كما يتقنها أذكاهم .

وعلي الرغم من الجهود التي تبذل في تعليم الحيوانات لغة إنسانية نطمئن مؤقتا وحتى يظهر ما يخالف ذلك – إلى أن الحيوانات لا يمكنها أن تتعلم لغة إنسانية فلم يرق حيوان – مهما بذل في تدريبه – إلى أن يكتسب لغة إنسانية،

وأن يستخدمها كما يستخدمها بنو البشر، ولم نجد – فيما انتهي إلينا – وسيلة من وسائل الاتصال لدي الحيوان قد تطورت علي نحو معقد كما تطورت لغة الإنسان، وإذا ما كان لدى الحيوانات مقدرة مماثلة لمقدرة الإنسان اللغوية فقد حق لنا أن نعجب لماذا لم يهيئها هذا الحيوان للاتصال حتى اليوم. إن لغة الإنسان في الحقيقة مختلفة اختلافا نوعيا عن أدوات الاتصال عند الحيوان .

القضية الرابعة - مقدرة الإنسان المنعزل عن المجتمع البشري على الكلام :

يتحدث العلماء والمؤرخون عن حالات كثيرة عاش فيها الإنسان منذ ولادته بين الحيوانات أو بمعزل عن البشر، يرجع أقدمها إلى عام ١٣٣٤م ويرجع أحدثها إلى عام ١٩٢٠م، ومن أشهر هذه الحالات حالة الغلام المتوحش (فيكتور) الذي اكتشف قرب نهاية القرن الثامن عشر في مقاطعة (أفيرون) بفرنسا وقد شوهد وهو عار تماما يبحث عن جذور النبات ليتخذها طعاما، وحين اقترب منه بعض المتجولين في الغابة تسلق شجرة عالية كما يفعل الحيوان، وكان حين قبض عليه يبلغ الثانية عشرة من عمره. ولم يكن آنذاك يستطيع الكلام، وكان يتصرف تماما كما يتصرف الحيوان المتوحش. وقد قضي الأستاذ (إتارد) خمس سنوات متواصلة في تعليمه الكلام والقراءة، ومع هذا فلم يستطع أن ينطق كلمة واحدة، وإن كان قد نجح في فهم عدد كبير من الكلمات والعبارات .

وقد انتهي (إتارد) من بحوثه وتجاربه إلى أن كلام البشر يتطلب تعزيزا اجتماعيا في مرحلة اكتساب الطفل اللغة – وهي المرحلة الحاسمة، وإلا فلن يقدر له أن يتكلم أبدا .

وقد رأي علماء البيئة – وعلى رأسهم (روسو) أن الحالات السابقة تدحض آراء القائلين بأن السلوك الإنساني طبيعي، وتؤكد أيضا أن الطبيعة الإنسانية تخلق في المجتمع وتكتسب شكلها مما يمليه عليها المجتمع. ومع هذا التطرف الشديد فى تقدير العوامل البيئية فلم ينكر هؤلاء العلماء أهمية العوامل الوراثية

في النوع، فالحيوان – أي حيوان – مهما عاش في بيئة إنسانية، ومهما تلقي من تعليم وتدريب لن يتحول إنسانا. ومعني هذا أن العوامل الوراثية للنوع هي العامل الأساسي في التطور النوعي، وأن العوامل البيئية تباشر تأثيرها في هذا الإطار .

وقد استخلص العلماء المعاصرون من دراسة هذه الحالات ما يأتي :

١- أن الإنسان الذي عاش منذ ولادته بين الحيوانات أو في عزلة عن المجتمع الإنساني لا يستطيع الكلام، وليس في مقدوره أن يكتسب لغة كاملة إذا تجاوز الثانية عشرة من عمره .

٢- أن اللغة إنما يكتسبها البشر الذي عاشوا في مجتمعات لغوية، ومؤدي هذا أن الطفل لا يولد مزودا بلغة معينة أو لديه قدرة على اكتساب لغة معينة، والصحيح أن الطفل يولد ولديه استعداد لتعلم اللغة (أية لغة)، وفي إطار مجتمع معين يكتسب لغة معينة فالطفل الذي يولد في مجتمع يتكلم العربية يكتسب العربية. والطفل الذي يولد في مجتمع يتكلم الإنجليزية يكتسب الإنجليزية .... إلخ .

وقد تطلع الناس قديما إلى اكتشاف حقيقة اللغة وهل هي طبيعية أو مكتسبة ونشير هنا إلى تجربة طريفة يرويها (هيرودت) عن فرعون مصر (بسماتيك) الذي عزل طفلين منذ ولادتهما وحرمهما من أن يسمعا أي كلام، وبعد شهور وجد الملك أن الطفلين يطلبان الطعام قائلين (باكوس) أي خبز باللغة الفريجية (وهي لغة دولة قديمة في آسيا الصغرى) وعندئذ ثبت أن اللغة الفريجية أقدم من المصرية .

ولا يعول العلماء كثيرا على هذه التجربة ولا يبنون أية نتائج علمية علي أساسها إذ إن البحوث العلمية الحديثة - وقد أشرنا إلى بعضها هنا - تنقضها في أساسها .

اللغـــة مكتســـبة

انتهي بنا الحديث في الصفحات السابقة إلى أن لدي الحيوان نظما للاتصال بأفراد نوعه، وأن هذه النظم غالبا ما يتوارثها النوع جيلا بعد جيل، فالنحل مثلا لديه نظام محكم للاتصال بأفراده، غير أن هذا النظام – ومثله أيضا أنظمة الاتصال الأخرى في المملكة الحيوانية – نظام ثابت لا يتغير، له هدف محدود، فالنحل دائما وأبدًا يستخدم نفس النظام ولنفس الهدف. فليس لدى الحيوان أي حيوان قدرة علي تطوير نظامه في الاتصال في شكله ومضمونه .

لقد ثبت أن الإنسان وحده هو الذي يكتسب لغته من مجتمعه، فالطفل منذ ولادته يبدأ في تعلم لغة لم يكن له منها شيء أبدا، وهو يكتسب هذه اللغة ممن يحيطون به من أفراد مجتمعه .

وقد ثبت كذلك أن اللغة هي أعقد ملكات البشر وأكثرها تنوعا، فكل البشر لديهم طاقة هائلة على خلق الجمل، ولكل لغة من لغاتهم قواعد تحكم استعمالها في مستوياتها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية – ومع هذا كله يتمكن الطفل الذي لم يتجاوز الرابعة من عمره من إتقان لغته إتقانا كلاما، وقبل أن يتعلم هذا الطفل كيف يجمع ثلاثة إلى أربعة يبلغ حد البراعة في تأليف الجمل خبرية أو إنشائية مثبتة أو منفية ... الخ. وتجيء جمله هذه مطابقة لقواعد لغته في مستوياتها المختلفة .

وينبغي أن ينمحي من الأذهان أن الطفل يكتسب لغته كما يتعلم الحساب أو الجبر مثلا، لأن كثيرا من الأطفال يولدون ويبلغون مرحلة النضج دون أن يتعلموا قواعد الحساب أو الجبر ومع ذلك نراهم قادرين علي اكتساب لغتهم واستخدامها بمهارة وفعالية، بل أن اكتساب الطفل لغته يختلف تماما عن تعلمه القراءة والكتابة، ففي العالم اليوم ملايين لا يقرأون ولا يكتبون ومع ذلك فهم يمتلكون لغاتهم ويستخدمونها أفضل استخدام. اكتساب اللغة إذن أمر مختلف تماما عن تعلم الحساب والجبر وتعلم القراءة والكتابة. ولهذا يؤكد بعض اللغويين أن هذه المرحلة الأولى من اكتساب اللغة تعتبر عملية نمو لا عملية تعليم .

ويرى العالم الأمريكي (سكينر) أن اللغة عادة مكتسبة كغيرها من العادات التي يكتسبها الإنسان، وأن الطفل يولد وذهنه صفحة بيضاء خالية من اللغة تماما، وبالتدريب المتواصل يتمكن من السيطرة عليها ومن ثم أصبح للمجتمع دور كبير في صبغ الكلام بالطابع الاجتماعي، فالمجتمع حريص على أن يكون سلوك أفراده سلوكا مشتركا وفي سبيل ذلك يحدث صراع بين القوي الفردية التي تجعل الطفل يحافظ على فرديته والقوي الجمعية التي تسعى إلى ضم الطفل إليها وصبغه بصبغتها الاجتماعية الخاصة. واللغة هي الوسيلة التي تستخدمها الجماعة لهذا الهدف .

أما علماء النحو التحويلي – التوليدي فيرون أن الطفل لا يتلقى اللغة من محيطه اللغوي تلقيا سلبيا، بل إنه يفعل ذلك بوعي كامل، ويستعمل أساليب عقلية تجريبية في أثناء تلقيه إياها، فالطفل إذن عنصر إيجابي متفاعل مع اللغة التي يتعلمها، وليس إناء يصب المجتمع فيه قوالب جاهزة يغرف منها الطفل ما يشاء حين يشاء. وقالوا أيضا : إن الطفل لديه المقدرة علي نطق عدد غير محدود من الجمل الصحيحة لم يسمعها من قبل ولم ينطقها من قبل .

نظريات في اكتساب اللغة

(اكتساب اللغة) موضوع شائك لقي اهتماما كبيرا في النصف الثاني من القرن العشرين من علماء اللغة وعلماء النفس. ولهم فيه نظريات عديدة نعرض هنا أهمها :

أولا - نظرية التقليد :

تؤكد البحوث التي جرت في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين أن الطفل بعد أن يتجاوز مرحلة المناغاة ينتقل خطوة أخرى إلى الأمام فيبدأ بالانتباه إلى أصوات المحيطين به، ويتسمع إليها في نفس الوقت الذي يري فيه ما يحدث في وجوههم وشفاههم وأفواههم من حركات، ويحاول – بقدر ما تسمح به مقدرته – تقليد هذه الحركات ليسمع ما ينتج عنها من أصوات .

وتصل قوة التقليد في هذه المرحلة – كما يقول الدكتور وافي – في مهارتها ودقتها ونشاطها وغزارة محصولها وأهميتها وسيطرتها على النفس إلى أقصى ما تبلغه قوة إنسانية.

وكما يقلد الطفل الكبار المحيطين به يقلد الكبار لغته بل ربما كان تقليدهم إياه أكثر معونة له في نموه، فهم يستعملون كلماته الطفلية باعتبارها وسيلة لتقريب لغتهم من لغته ومن ثم للتفاهم معه، والتقليد في حقيقته عملية ذات تأثير في حياة الطفل، وتقدم التقليد أمر لا مفر منه يصاحب نموه في مجتمع من المتكلمين، وتحتمه ضرورة دفع الطفل بأقصى سرعة ممكنة داخل دائرة الاختلاط الإنساني ولهذا يقرر (لويس) أن التقليد فن يكتسب وأن المجتمع هو الذي يصبغ التقليد بالصبغة الاجتماعية .

ولا شك في أن للتقليد دورا ملحوظا له أهميته في اكتساب اللغة، ولكن العلماء المعاصرين يرون أنه لا يكفي في تفسير كيفية الاكتساب، فقد لاحظوا – عند مقارنتهم لغة الطفل بلغة الكبار المحيطين به – أن اللغتين مختلفتان .

وهذه أمثلة نتبين منها هذا الاختلاف :

لغة الطفل	لغة الكبير
أطة إنين	أطنين
بابا شغل	باب في الشغل
ماما أكل	ماما بتعمل الأكل

فالكبار لا يقولون – بأية حال – أطة إنين ولا بابا شغل ... إلخ، إلا إذا قصدوا قصدا إلى تقليد أطفالهم والتحبب إليهم. ومن ثم يميل هؤلاء العلماء إلى القول بأن لغة الطفل لها قواعدها الخاصة في كل مرحلة من مراحل تطورهم اللغوي وهذه القواعد تختلف عن قواعد لغة الكبار، ولذلك يرون أنهم حين يحاولون – قاصدين – تقليد ما يسمعونه لا ينجحون في ذلك إذا كانت الجمل التي يحاكونها لا تخضع لقواعد لغتهم .

ونظرية التقليد لا تفسر ظاهرة لغوية هامة تتصل بالأطفال غير القادرين علي الكلام لأسباب عصبية أو نفسية أو جراحية، فهم – مع عجزهم هذا – يعرفون اللغة التي يتحدث إليهم بها ويفهمون ما يقال لهم. وعندما تزول الأسباب التي حالت دون كلامهم يصبحون قادرين في الحال على استخدام اللغة في الحديث .

وهكذا يبدو أن الطفل لا يكتسب اللغة ممن يحيطون به من الأطفال الذين يكبرونه، بل إنه يستخلص مما يسمع ما يمكن أن يكون مناسبا للمرحلة اللغوية التي يمر بها، وهذا يعني أن لديه استعدادا فطريا لاكتساب اللغة، وأن هذا الاستعداد يتطور في مراحل متدرجة، هذه الاستعداد هو أساس عملية الاكتساب عند علماء اللغة المعاصرين.

ثانيا - نظرية التدريب والتشجيع :

الحق أن هذه النظرية أقرب إلى أن تكون استكمالا للنظرية السابقة، ومؤداها أن الطفل – في أثناء مرحلة الاكتساب – يخضع لتدريب لغوي متواصل، يدعمه تشجيع وتعزيز من الكبار المحيطين به، يقول الدكتور القوصى :

ويخرج الأطفال أصواتا بعضها شبيهة بالكلمات التي ينطق بها الكبار المحيطون بهم، والكبار في هذه الحالة عادة يهللون ويفرحون ويشجعون الطفل ويكررون الكلمة التي يعتقدون أن الطفل يبدأ بنطقها، ويكررون له كلمات أخرى ببطء شديدة مرة بعد أخرى والطفل يفتح عينيه وينتبه اليهم ويحاول ويخطئ وتتكرر المحاولة، وتدريجا ينقص خطؤه ويقترب نطقه من الصواب، وينهي الدكتور تقريره السابق بما يعتقد أنه واجب الآباء على الأبناء من تمرينهم علي النطق وتصحيح أخطائهم وتنمية قدراتهم .

فهل صحيح حقا أن الأطفال يتلقون تدريبا متوصلا ممن يحيطون بهم، وأنهم يثابون علي الخطأ ؟

تؤكد بعض البحوث اللغوية المعاصرة أن كل المحاولات التي تبذل

لتصحيح لغة الطفل محكوم عليها بالفشل فالأطفال – في الحقيقة – لا يدركون في أي شيء يخطئون، بل أنهم غالبا ما يكونون غير قادرين على تصحيح أخطائهم عندما ينتبهون إلى ذلك، وهذا واضح من المثال الآتي :

الطفل : أعربة .

الأب : أول : عاربة .

الطفل : أعربة .

الأب : أول : عاً

الطفل : عاً

الأب : ربة .

الطفل : ربة .

الأب : عاربة .

الطفل : أعربة .

مثل هذا الحوار (وقد حدث بالفعل بيني وبين ولدي حسام حين كان في الرابعة من عمره) نادر الحدوث، فالأباء والأمهات مشغولون عن تصحيح أخطاء أطفالهم، بل إنهم عادة ما يفرحون بمثل هذه الأخطاء فهي ملح يتندرون بها في مجالسهم ولا يحرصون أبدا على تصحيحها .

ومن الملاحظ أن الطفل الذي لا يجد اهتماما بنطقه أو عناية بتقويمه يستوي هو والطفل الذي يجد هذا الاهتمام وهذه العناية، ربما يزيد معجمه قليلا بفضل ذلك، ولكن في الوقت المناسب سوف يتقن هذا وذاك قواعد اللغة المعينة المناسبة لمرحلة النمو التي يمر بها كل منهما .

ومع ذلك فبعض علماء النفس يؤكد أهمية التعزيز في عملية الاكتساب، يقول (مارك ريشل) : ليس لدينا أي سبب للاعتقاد أن التصرفات اللفظية سوف تبقي علي حالها بالقوة، أو أنها سوف تكتسب بشيء من التماسك إذا هى لم تعزز .

ليس صحيحا إذن أن الأطفال يكتسبون لغة الكبار بتقليدهم، أو أنهم يخضعون لتدريب مخطط متواصل يثبت الأشكال اللغوية الصحيحة، ويصحح الأشكال الخاطئة، وإن كان هذا لا يعني إنكار دور التقليد أو التعزيز، وعلى كل فإن أغلب علماء اللغة المعاصرين يقررون أن هاتين النظريتين لا تقدمان تفسيرًا كافيا للطريقة التي يكتسب بها الطفل لغته في مجتمعه .

ثانيا - نظرية القواعد التحويلية – التوليدية:

لم يهتم علماء اللغة التقليديون بموضوع اكتساب اللغة إلا اهتماما عرضيا، أما علماء اللغة المحدثون لاسيما تشوسكي وأتباعه فقد اهتموا به اهتماما بالغا، وجددوا تجديدا عميقا في الطرق التي تعالج بها مشكلاته. وبهذه المعالجة الجديدة اقتبس علم النفس نماذجه من علم اللغة، وبدأ علم اللغة – في الوقت نفسه – يتناول بعض المشكلات النفسية .

وكانت أوسع الطرق التقليدية انتشارا في دراسة هذا الموضوع تعتمد علي الملاحظة التي تقوم علي جمع ما ينطقه الطفل تلقائيا. وتوجهت معظم هذه البحوث إلى وضع قوائم بالمخزون المعجمي وبتنوع الأصوات وبطول العبارات .. بيدَ أن تحليلاتهم لهذه المادة الغزيرة ظلت سطحية غالبا حتى اطلع الباحثون على طرائق علم اللغة الحديث .

واهتمام تشومسكي البالغ بهذا الموضوع يقع في إطار النظرية العامة للغة، وإن كان ينفي إمكان الإحاطة به قبل أن نقوم بإعداد النظام التام لهذه اللغة .

والنظرية العامة للغة تسعي إلى أن تحدد نموذجا للكفاية اللغوية ونموذجا للأداء اللغوي ونموذجا لاكتساب اللغة، ويتعين على الباحث أن يخضع بحثه لهذا النسق، ذلك أن فهم مشكلات الأداء يستلزم اكتمال نموذج الكفاية، ولا يمكن التطرق إلى نموذج الاكتساب ما لم يتم التطرق إلى النموذجين الآخرين .

بمقتضى (الكفاية) يتمكن كل راشد ينطق لغة معينة – من نطق عدد غير محدود من الجمل أو فهمها، وإن لم يكن قد لفظها أو سمع بها من قبل، يقول

تشومسكي : من الواضح جدا أن للجمل معني خاصا تحدده القاعدة اللغوية، وأن كل من يمتلك لغة معينة قد اكتسب في ذاته – وبصورة ما – نظاما من القواعد يُحدد الشكل الصوتي للجملة ومحتواها الدلالي الخاص.

ويفرق تشومسكي بين (الكفاية اللغوية) التي هي معرفة الإنسان الضمنية بقواعد لغته و(الأداء الكلامي) الذي هو الاستعمال الآني الفعلي للغة ضمن سياق معين. ويرجع المتكلم – عند الكلام الفعلي – إلى القواعد الكامنة ضمن كفايته اللغوية كلما استعمل اللغة في مختلف ظروف التكلم. وتؤدي هذه التفرقة إلى اعتبار الأداء الكلامي انعكاسا للكفاية اللغوية – وإن كان الأداء الكلامي في الواقع لا يخلو من بعض الانحراف عن القواعد .

ويؤكد تشومسكي غير مرة علي أن الكفاية اللغوية ليست مستودعا في الذهن لقواعد اللغة بل تشكل في الواقع عملية ابتداع أي : إنتاج وتفسير الجمل الجديدة رغم خضوع هذه الجمل لأحكام القواعد نفسها .

ويؤكد كذلك الجانب الفطري في امتلاك اللغة بتقريره أن لدي الطفل قدرات فطرية تؤهله لتقبل المعلومات اللغوية لتكوين أبنية اللغة من خلالها، فهو يبني لغته بصورة إبداعية وبالتوافق مع قدراته الباطنة .

ومن الحجج التي يذكرها (تشومسكي) وأتباعه لتدعيم الجانب الفطري :

- اكتشف اللغويون عددا من السمات العامة المشتركة بين كل لغات البشر وهذه السمات هي التي يسعى علم اللغة العالم إلى بيانها .
- أن الأطفال الذين تعلموا لغتهم الأم يصبحون بسرعة كبيرة قادرين على توليد وفهم عدد لا محدود من الجمل، ويشهد هذا الأداء – بلا شك – بالنظر إلى تعقد النظام اللغوي – علي تدخل عوامل داخلية مهيأة أصلا لأن تتدخل .
- يشار أيضا إلى الانتظام والتدرج الذي تظهره المراحل العامة لظهور اللغة. هذا الانتظام الذي نجده من طفل لآخر، كما نجده بخطوطه

الكبرى من بيئة لغوية إلى أخرى. وتتكثف هذه المراحل في طور زمني تسود فيه شروط نفس فسيولوجية ملائمة بوجه خاص لظهور اللغة، ويذكرنا اكتساب اللغة من بعض الوجوه – مثل التطور الذهني – بسياق تطور الجنين .

يقول تشومسكي : تشير الحجج التي بحثنا فيها إلى أن اللغة الأم هي تطبيق بسيط ومنظم تنظيما عاليا لصيغة عقلية معقدة وكامنة تتصف بخصائص فارقة وفريدة. وتدلنا الملاحظة علي أن بنية النحو التي يستنبطها كل من اكتسب اللغة، بالفعل وبدرجة غير مشكوك فيها اليوم أن تشكل انعكاسا للسمة العامة لقدرة الفرد علي اكتساب اللغة أكثر مما تشكل انعكاسا لسياق خبرته الخاصة، فمن المحتمل أن الكائن الإنساني يحمل مجموعة محددة من الأنظمة التوليدية (التي تشكل نظريات بالقوة (هذه الأنظمة التي ينتقي هذا الكائن انطلاقا منها – النحو الخاص بلغته على قاعدة الوقائع اللغوية التي يتعرض لها) .

واللغويون الذين يفسرون اكتساب اللغة بعامل التقليد أو التدريب والتعزيز لم يتبينوا العامل الحاسم في الاكتساب وهو أن الأطفال يضعون قواعد لغتهم الخاصة بأنفسهم. هذه القواعد هي التي تحكم أداءهم اللغوي الفعلي، لاحظ مثلا كيف تتطور طريقة الطفل في تأليف الجمل المنفية، وكيف تبدأ بسيطة ثم تتدرج في التعقيد يوما بعد يوم .

ففي البداية يضيف الطفل إلى الجمل الخبرية المثبتة (لا) أو أي أداة أخرى للنفي في بداية الجملة أو في نهايتها فيقول مثلا :

أطة لأ	ويريد بها	لا أريد قطة
كلت لأ	ويريد بها	ما أكلت (أو لا أريد الأكل)
ننة لأ	ويريد بها	ما نمت (أو لا أريد النوم)

والحق أنه لم يسمع هذه الجمل ممن يحيطون به (كما تدعي النظريتان السالفتان) لأن هذه الجمل لا يستخدمها الكبار حتى يقلدها الصغار، وما حدث أن

الطفل قد قام ببساطة بتحويل الجمل الخبرية المثبتة إلى جمل خبرية منفية بطريقته الخاصة .

ثم يتقدم الطفل من القواعد البسيطة إلى القواعد المعقدة فيقول مثلا :

كلت ؟ لا ما كلتش .

نمت ؟ لا ما نمتش .

ولا نتبين في لغة الأطفال جميعهم هذا النمط من التطور (الذي مثلنا له آنفا) وإن كانوا جميعا يمرون بتغيرات مماثلة مطردة .

فهل من الصحيح إذن أن ندعي أن الطفل الذي قال : (كلت لأ) قد أخطأ لأن جملته السابقة تخالف لغة المحيطين به ؟

أصحاب هذه النظرية يرون أن هذا الطفل وأمثاله لم يخطئوا، وأن جملته السابقة تعكس قواعد مرحلة لغوية من مراحل تطوره، ومن ثم فهم يقررون أن الطفل يجيء كلامه وفقا لقواعد بسيطة جدا وعامة جدا خاصة به يستنبطها بنفسه من المحصول اللغوي الذي يستقبله، وهذا يذكرنا بما سبق أن قلناه من أن الطفل لا يكتسب اللغة وهو خالي الذهن تماما بل أنه يفعل ذلك بوعي كامل .

وأقرب الأمثلة لتوضيح هذه الفكرة ما يجنح إليه الأطفال من " تعميم " حين يستخدمون الأفعال أو الأسماء أو الصفات غير القياسية كما لو كانت مطردة فيقولون مثلا :

الولد أبيض البنت أبيضة

فالطفل يجيء بتاء التأنيث في وصف المؤنث قياسا علي القاعدة :

بابا طويل وماما طويلة

أو يقول : خروفات وكتبات قياسا علي بنات وستات

وهذه الأشكال التي نعدها أخطاء تكشف لنا أكثر من غيرها كيف يكتسب

الطفل لغته، فالطفل لا يقلد، لأن هذه الأشكال في الحقيقة لا يستخدمها أبدا الآباء أو الأبناء الذين يكبرونه.

وحين يتجاوز الطفل هذه المرحلة اللغوية سوف يتعلم أن هناك استثناء علي القاعدة.

عندئذ سوف يقول : (الولد أبيض والبنت بيضا)، أو أن هناك قاعدة أخرى وعندئذ سوف يقول : خرفان وكتب.

وقد لاحظ الباحثون أن الأطفال يسلكون نفس المنهج من التعميم في المستوي الدلالي، فقد لاحظوا مثلا أن الطفل في المراحل الأولي يطلق كلمة بابا علي كل رجل وماما علي كل سيدة، وبعد أن يتجاوز هذه المرحلة يختص بالكلمة الأولي أباه وبالثانية أمة فحسب .

وهكذا ينتقل معني اللفظ من المجال العام إلى المجال الخاص أو من التعميم إلى التخصيص .

نتبين مما سبق أن للطفل قواعده الخاصة التي تحكم لغته في مراحلها المتدرجة. الأطفال إذن هم الذين يضعون قواعد لغتهم الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، وهو عمل مذهل حقا، وفي ذلك يقول أحد اللغويين : يبدو لي أن الطفل منذ بلوغه الثانية من عمره يصبح لفترة قصيرة عبقرية لغوية، فإذا ما بلغ الخامسة أو السادسة تبدأ هذه العبقرية في الانطفاء .

واذكر – فيما يتصل بالجانب الابتداعي من ملكة الطفل اللغوية، أن ولدي حسام الدين حين بلغ الرابعة ابتدع فعلا من كلمة (الجرس) فكان يقول : جَرَّس أي دق الجرس، ومازال يستخدم هذا الفعل وما يتصرف منه حتى اليوم. ومن الواضح انه قد أخضع الكلمة لقاعدة متوفرة لديه جاء علي مثالها دَبَّس وخَرَّم، وهذا آخر يقول عن ذقن أبيه (شوَّاكة)، صاغها علي مثال ثلاجة، والأطفال جميعا يفعلون شيئا من ذلك، بيد أننا لا نلاحظ سلوكهم اللغوي ملاحظة دقيقة .

وقد أكدت البحوث التي أجريت في الولايات المتحدة الأمريكية أن نظرية (تشومسكي) في الاكتساب اللغوي صحيحة تلك النظرية التي تفترض أن الطفل لا يكتسب اللغة عن طريق محاكاة البالغين، بل إنه يفعل ذلك عن طريق تكوين الفرضيات واستعمال قواعد خاصة به يجري تعديلها باستمرار إلى أن تشبه القواعد التي تحكم لغة الكبار، وأنه يعلم بشكل آلي أن اللغة محكومة بقواعد معينة عليه اكتشافها .

مع هذا نقول إن علماء اللغة اليوم – حين يقيمون نظرية أو منهجا – أكثر تواضعا من أسلافهم التقليديين الذين ينشدون الصحة المطلقة. فالنظرية عندهم أولي من غيرها إذا فسرت الظواهر المدروسة تفسيرا أفضل وبطريقة أبسط. وهذا ما نقوله مطمئنين عن هذه النظرية :

ونلخص هنا أهم النتائج التي توصل إليها الباحثون في هذا المجال :

١- لا يتعلم الأطفال اللغة بتخزين كل الكلمات وكل الجمل فيما يشبه أن يكون معجما عقليا هائلا، فعدد الكلمات محدود، إذ لا يوجد معجم يمكنه أن يضم كل الجمل التي يمكن تأليفها من هذه الكلمات، هذه الجمل – في الحقيقة – لا يحدها الحصر .

٢- يؤلف الأطفال جملا لم يقوموا قبلا بتأليف معظمها .

٣- يفهم الأطفال جملا لم يسمعوها من قبل، ولا يتم لهم ذلك بمقارنة الجملة المسموعة بجملة مخزونة .

٤- وعلي الأطفال أن يتعلموا قواعد تسمح لهم باستخدام اللغة استخداما خلاقا. فالطفل الذي يقول : بابا جه وماما جت. قد استقرت في ذهنه قاعدة تمكنه من ابتكار جمل لا حصر لها تأتي مطابقة لها قد يقول مثلا: خالو جه وعمتو جت، بل ربما يقول : الكلب جه والأطة جت .

٥- لا أحد يعلم الأطفال هذه القواعد، فآباؤهم ليسوا أكثر منهم اهتماما بقواعد اللغة بمستوياتها الصوتية والنحوية والدلالية، ويبدو أن الطفل

يتصرف في لغته كما يتصرف اللغوي الكفء المزود بنظرية كاملة عن اللغة حين يستخدم هذه النظريات في وضع اللغة التي يسمعها .

٦- ليس اكتساب اللغة إلا تطورا بيولوجيا لا علاقة له بالذكاء، فالطفل الغبي والذكي على سواء في اكتساب نظام لغوي كامل يتألف من وحدات لغوية، ومن قواعد لتأليف هذه الوحدات .

٧- يتعلم الطفل اللغة على أية حال سواء تعلمها مباشرة من أفراد أسرته أم ترك وشأنه يلتقطها بنفسه ممن يحيطون به، ولهذا فليس هناك من فائدة تذكر فيما يبذله الوالدان وأفراد الأسرة من جهود في تدريب أطفالهم علي التكلم، فالطفل سيكتسب اللغة بطريقة أو بأخرى ما دام يعيش في مجتمع لغوي .

٨- لا يتعلم الأطفال قواعد اللغة المعقدة فحسب، بل يتعلمون كذلك القواعد المعقدة للاستعمال الاجتماعي المناسب للغة، ومن هذه القواعد ما يتصل بالتحيات المعروفة وبالكلمات المحرم استعمالها، وبصيغ النداء المهذبة، وبالأساليب المتنوعة التي تناسب المواقف المختلفة .. إلخ .

٩- الطفل الذي لا يعيش في مجتمع لا يمكن أن يكتسب اللغة، فالطفل لا يولد مزودا بلغة معينة بل يكتسب اللغة من المجتمع الذي يعيش فيه، وقد أشرنا قبلا إلى أن الأطفال الذين يعيشون بمعزل عن المجتمع البشري لا يستطيعون الكلام، بل يستطيعون أيضا تعلم لغة معينة إذا ما تجاوزوا سنا معينة .

١٠- يكتسب الطفل لغة مجتمعه تماما في فترة قصيرة نسبيا إذ يتمكن مثلا من تأليف الجمل. وفقا لقواعد لغته المعينة قبل أن يتجاوز الثالثة. وإذا ما بدأت عملية تعليم اللغة بعد هذه الفترة فسيكون النجاح ضئيلا وبطيئا، بل إن الطفل الذي يتجاوز الثانية عشرة من عمره لا يمكن أن يكتسب أي لغة .

١١- لقد تبين لنا أن الطفل يكتسب لغته من مجتمعه، وأنه في سن الثالثة أو ما حولها يتمكن منها بحيث يكون قادرا علي الاتصال الفعال بأفراد المجتمع. بيد أن عملية الاكتساب لا تتوقف عندئذ إذ إنها كما يقرر (لويس) عملية تدوم ما دامت الحياة في البيت وفي المدرسة وفي الحياة العملية .

فالطفل في خلال سنوات ثلاث أو ما حولها يستكمل المعرفة بمجموعة أصوات لغة الأم ونظام بنيتها ومفرداتها معرفة كافية لجعله واضحا في تعبيره عن حاجاته الملحة، ولاستجابته استجابة مناسبة لما يطلبه منه الآخرون بما يتصل بهذه الحاجات، وكل هذا الدور الإعدادي في التنشئة اللغوية يجري في البيت بأقل توجيه متعمد من المحيطين به، ثم يأتي عهد التربية الموجهة حينما يتطلب المجتمع بواسطة المدرسة وهي الأداة المتخصصة – هدفا رئيسيا، هو أن ينمي الطفل قدراته على التفاهم والتعبير، ثم تبدأ المرحلة الثالثة وهي اكتساب اللغة طول الحياة .

ونحن نعرف دور المدرسة في تعليم اللغة الذي يهدف إلى تنمية القدرة علي الاتصال عند التلاميذ، وإلى تبني الطفل لطرق التفكير والإحساس السائد في المجتمع .

أما ما يحتاج إلى توضيح هنا فهو أن المجتمع الحديث بتنظيماته المعقدة وأجهزته المتنوعة قد جعل من عملية النمو اللغوي عملية دائمة يمر بها كل أفراد المجتمع .

يقول (لويس): إن كل إنسان في المجتمع الحديث يتعلم اللغة بصفة دائمة ... إن تعقد الحياة المتحضرة يطيل مدى اكتسابها للغة ويجعل الحاجة إلى هذه الإطالة عامة حتى تشمل المجتمع كله.

إن عضوية الإنسان المعاصر في مجتمعه لتعتمد اعتمادا مباشرا علي قدرته علي الاتصال بأفراد مجتمعه، وأن هذه القدرة لتتمثل أساسا في اللغة .

١٢- تختلف وظيفة اللغة عند الطفل باختلاف سنه، فمنذ ولادته حتى يبلغ العام تقريبا تعبر صيحاته وإشاراته عن حالات شعورية ترمي إلى سلوك معين لتحقيق رغباته، فصيحاته إذا ما هي إلا وسيلة لقضاء حاجاته أو هي رد فعل عضلي تعبر عن حالة من حالات القلق، وما يظهر الطفل من استجابات بعد قضاء حاجته وهي تعبير عن الرضا أو الاكتفاء .

وعلى هذا فالكلام بالنسبة له لم يصبح بعد وسيلة لتسمية الأشياء التي يدركها بل سيمضى وقت طويل قبل أن يتمكن من استعماله كوسيلة لتكوين الأحكام، ولا شك أن لغته تكتسب بالتدريج هذه الوظائف الإدراكية بمجرد النضج في قواه العقلية من جهة ثم عن طريق ازدياد قدرته على الاتصال بمجتمعه، وشيئا فشيئا تضيف اللغة إلى التعبير عن الإحساس والرغبة قدرة علي إيصال التفكير .

وهكذا يبدو لنا أن لغة الطفل في مبدئها معبرة في معظمها عن الوجدان والنزوع ثم تتطور حتى تصير إدراكية وتكون وسيلة للدلالة على الموضوعات والمواقف .

١٣- يكتسب الطفل لغة مجتمعه على مراحل متدرجة: ولا علاقة لهذا بجنس معين أو بلغة معينة فأطفال العالم جميعا يمرون بنفس المراحل تقريبا، وليس صحيحا مثلا أن الطفل الصيني يستغرق وقتا أطول أو أن الطفل الإنجليزي يستغرق وقتا أقل. غير أن الأطفال قد يتفاوتون فيما بينهم في طول الفترة التي يستغرقونها في تعلم اللغة. فقد يبكر بعض الأطفال في نطق بعض الألفاظ أو في تأليف الجمل .. إلخ، وقد يتأخر آخرون في ذلك. وعلى كلٍ فالمراحل التي نتحدث عنها هنا تقريبية، ويختلف الدارسون كثيرا في تقدير بداية كل مرحلة ونهايتها .

اللغـــة أصـــوات

ذكرنا آنفا أن علم اللغة يوجه اهتمامه إلى الرسالة التي يريد المتكلم أن ينقلها إلى السامع، أما العمليات العقلية التي تسبق إنتاج الرسالة أو تعقبها فيعدها خارج مجال عمله .

والأصوات المنطوقة هي المادة التي تتألف منها اللغة الإنسانية، ومن المفيد أن نذكر هنا أن اللغة – أساسا – منطوقة، أما اللغة المكتوبة فثانوية، لقد تعلمنا جميعا الكلام قبل الكتابة. وإذا استعرضنا تاريخ الجنس البشري وجدنا ما يؤكد هذا، لقد وجدت مجتمعات بدائية لها لغات منطوقة لا تكتب ولكننا لا نعرف حتى الآن مجتمعا له لغة مكتوبة لا تنطق .

ولهذه الأصوات جوانب ثلاثة تتوجه إليها جهود اللغويين هي :

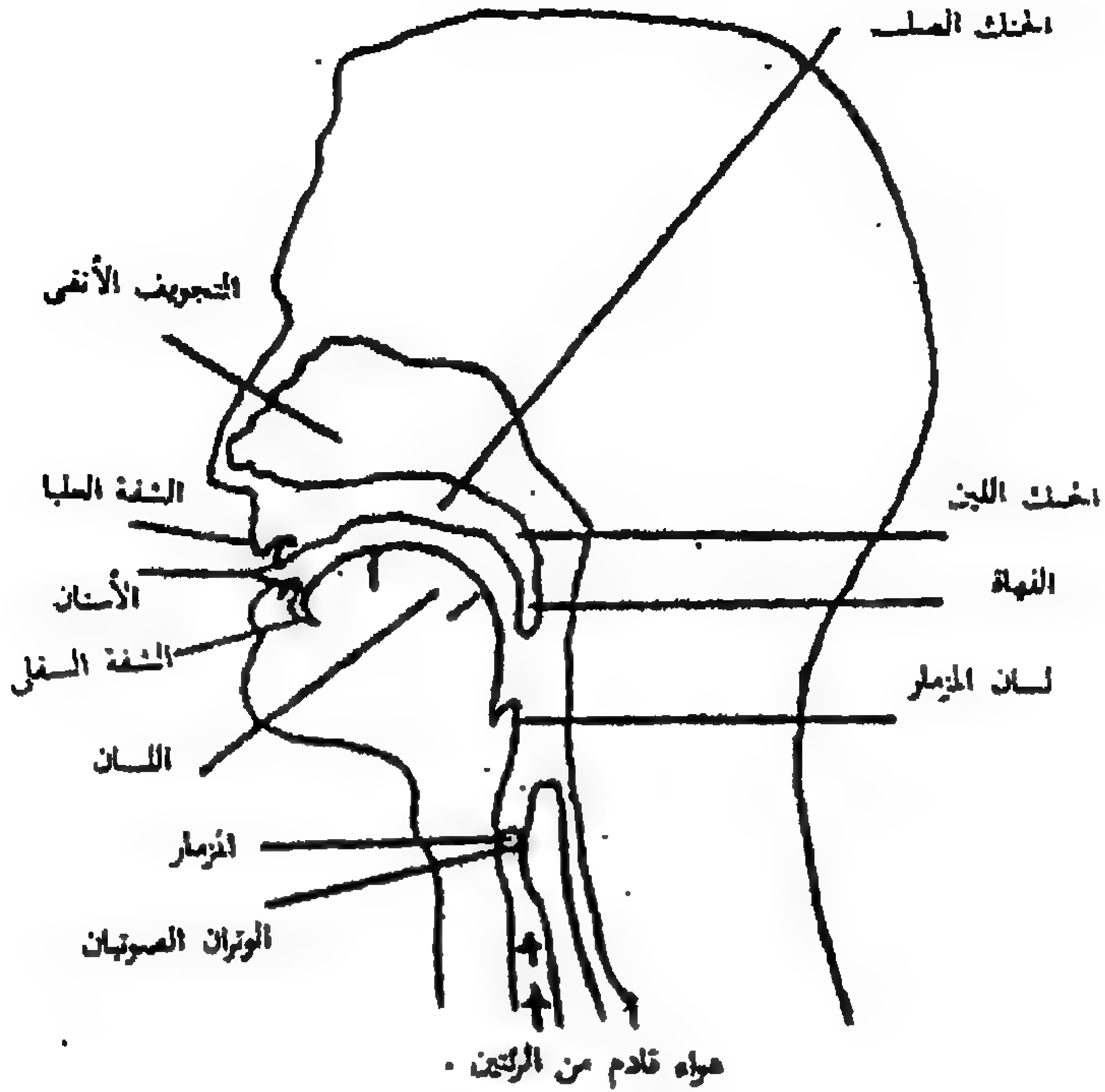
أولا : جانب إصدار هذه الأصوات، ويتمثل هذا فيما تقوم به أعضاء النطق من حركات لإنتاج الأصوات .

ثانيا : جانب انتقال هذه الأصوات في الهواء ويتمثل هذا في الموجات الصوتية التي تنتشر في الهواء نتيجة لما تقوم به أعضاء النطق من حركات .

ثالثا : جانب استقبال الأصوات، ويمتد هذا الجانب من اللحظة التي تستقبل فيها طبلة الأذن تلك الأصوات والذبذبات التي تحدثها في أجزاء الأذن المختلفة إلى أن تنتقل عن طريق الأعصاب إلى المخ .

وهذه الجوانب كلها تلقي اهتماما كبيرا من علماء اللغة، غير أن عنايتهم بالجانب النطقي أكثر، وكان هذا الجانب أيضا محط عناية قدامي اللغويين، ولهذا سيكتفي هنا بالإشارة الموجزة إلى هذا الجانب .

عنايتنا هنا إذاً سوف تتوجه أساسا إلى اللغة المنطوقة، وهذه اللغة المنطوقة يقوم بإنتاجها ما يسمي مجازا أعضاء النطق، ابتداء من الحجاب الحاجز حتى الشفتين، فالرئتان والحلق واللسان والأسنان والشفتان .. إلخ. لها وظائف حيوية أصلية غير الكلام لا تحتاج إلى بيان في هذا المقام .



عملية التنفس والكلام :

يرتبط إنتاج الكلام بعملية التنفس، إذ يحدث الكلام عادة عند عملية الزفير، وذلك بأن تعترض أعضاء النطق ممر الهواء. ويندفع الهواء إلى الخارج في دفعات تتفق كل دفعة منها مع إنتاج مقطع صوتي، وعلى سبيل المثال يتم إنتاج الكلمة (كتب) علي ثلاث دفعات، فالكاف والفتحة دفعة، والتاء والفتحة دفعة، والباء والفتحة دفعة.

ويمكن استخدام الهواء الداخل إلى الرئتين لإنتاج بعض الأصوات، غير أن هذا قليلا ما يحدث، وهناك وسائل أخرى لإنتاج الكلام لا ترتبط بعملية التنفس، ففي بعض اللغات الأفريقية أصوات هي فرقعات ناتجة من الحركات العضلية للسان، أو هي فرقعات ناتجة عن حركات الوجنتين والشفتين، ولكننا في العربية نعتمد في إنتاج الأصوات علي تدفق الهواء من الرئتين إلى الفم والأنف، هذا

الهواء الذي يندفع إلى الخارج تتغير طبيعته بفعل حركات أعضاء النطق التي أشرنا إليها قبلا .

وعلي هذا فالصوت اللغوي أثر سمعي ناتج عما تقوم به أعضاء النطق من حركات ويظهر هذا في صورة ذبابات تلائم هذه الحركات .

تصنيف الأصوات :

تنقسم أصوات الكلام إلى قسمين رئيسيين :

الصوامت Consonants كالباء والتاء والثاء والجيم من الأصوات العربية.

الحركات Vowels كالفتحة والكسرة والضمة وألف المد ويائه وواوه في العربية .

ويبني هذا التقسيم علي مجموعة من الأسس أهمها أوضاع الوترين الصوتيين، وطريقة مرور الهواء في الحلق والفم والأنف .

أولا - الصوامت :

تصنف الصوامت وفقا لاعتبارات ثلاثة هي :

١- وضع الوترين الصوتيين، فالصوت بهذا الاعتبار إما مجهور أو مهموس .

٢- حالة مجري الهواء والصوت بهذا الاعتبار قد يكون انفجاريا أو احتكاكيا أو رنانا مثل الباء والسين والراء .

٣- موضع النطق أو مخرج الصوت، والصوت بهذا الاعتبار قد يكون شفويا مثل الباء أو أسنانيا مثل الثاء أو لثويا مثل السين أو أسنانيا شفويا مثل الفاء .. إلخ .

ثانيا - الحركات:

تتميز الحركات بأنها كلها مجهورة، وتتحدد صفاتها الأخرى بوضع اللسان والشفتين. والحركات في العربية الفصحى ستة هي الفتحة والكسرة والضمة وألف المد وياء المد وواو المد وسوف يفصل لك القول في هذا في مقرر خاص.

اللغــة نظــام

اللغة مجموعة من القوانين أو الأنظمة تصف مجموعة لا حد لها من الجمل، كل جملة منها لها معني يقترن بسلسلة من الأصوات. والجملة تتألف من مجموعة من الكلمات، ومعنى الجملة يتوقف على معاني الكلمات التي تتألف منها، كما يتوقف نطق الجملة على نطق الكلمات التي تتألف منها، ولهذا يقال : إن اللغة تتألف من جمل، والجملة تتألف من كلمات، والكلمات تتألف من أصوات، وهذه هي الغاية التي يمكن أن ينتهي إليها الشخص العادي في تحليله، اما اللغوي فيري أن كل صوت من هذه الأصوات المفردة أو المستقلة يتركب في الواقع من عدد من الصفات (فالسين مثلا صوت يوصف بأنه مهموس، احتكاكي ، لثوي) هذه الصفات تمثل – طبقا لقواعد التحليل اللغوي – ذرات الكلام أو الأجزاء الصغرى .

ولكن المنطوق اللغوي (جملة أو أكثر) لا تنفصل وحداته أو أجزاؤه في الواقع، فليس ثمة فاصل قاطع بين الكلمات التي تتألف منها الجملة أو بين الأصوات التي تتألف منها الكلمة، ومن ثم فالمنطوق اللغوي أشبه ما يكون بجدول الماء المتدفق منه بالعُقد الذي تتوالى حباته حبة حبة. ومع ذلك فالمتكلم بلغة معينة يشعر باستقلال وحدات اللغة وتميزها بعضها من بعض، بل يستطيع – إلى حد ما – أن يفصل كل واحدة منها عن الأخرى. ونظام الكتابة يعكس مثل هذا التصور، فنحن نترك – في أغلب الأحوال – مسافة بين الكلمة والكلمة، ونميز كل وحدة من وحداتها برمز هجائي متميز. وهذا من الأسس التى يقوم عليها التحليل اللغوي.

وليست الجملة التي نعدها الوحدة الكبرى للكلام مجرد مجموع من الكلمات، بل هي كذلك بالإضافة إلي الطريقة التي بها تنتظم هذه الكلمات وتتركب ولهذا يقال : إن الجملة كل تنظيمي، والكل التنظيمي دائما أكبر من مجموع أجزائه. وأشبه شيء بذلك أن نقارن فرقة من الجيش تتألف من عدد

محدد بجماعة من الناس في الشارع لها نفس العدد، فالشأن أن فرقة الجيش تمتاز بأمر إضافي هو النظام التي يؤلف بين أفرادها، ومن ثم كان للفرقة من الخصائص والتأثير ما ليس للجماعة المذكورة .

وتأليف الجملة من كلمات والكلمة من أصوات يخضع لنظام محدد يتعارف عليه، ويلتزم به أفراد الجماعة اللغوية المعينة، ولا يجيزون مخالفته بأية حال. فمن يقول (من هات فضلك القلم) بدلا من : (هات القلم من فضلك) يقول هذرا لا طائل تحته، لأنه خالف النظام المتعارف عليه لتأليف الجملة في العربية الفصحى، مع أن كل كلمة من كلماته عربية صحيحة، ومن يقول (فلض) بدلا من (فضل) يكون حاله كحال صاحبه السابق، لأنه خالف القاعدة المتعارف عليها لتأليف الكلمة في العربية الفصحى، مع أن كل صوت من أصواتها عربي صحيح .

خلاصة القول إن اللغة نظام بالغ الدقة والتعقيد يتألف من عدد من الأنظمة الفرعية التي تتناول وحدات اللغة المختلفة، هي النظام الصوتي والنظام الصرفي والنظام النحوي. وكل نظام من هذه الأنظمة له وحداته الخاصة وله قواعده في تأليف الوحدات، ويمكننا التعرف علي هذه الوحدات وملاحظة الصور المسموح بها وغير المسموح بها. وكل نظام من هذه الأنظمة يعمل من خلال غيره من الأنظمة، ولكننا – مع ذلك – نستطيع أن نميز من أجل التحليل فحسب وحدات كل نظام منها وقواعد التركيب الخاصة به .

النظام الصوتي :

يستطيع الإنسان أن ينتج عددا كبيرا من الأصوات، وهو يستطيع كذلك أن يدرك الفروق التي تميز كل صوت منها عن الآخر. ولكن اللغة المعينة (العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية ... الخ) لا تستخدم كل الأصوات التي يمكن أن تنتجها أعضاء النطق بل تستخدم عددا محدودا جدا منها. والذين يعرفون لغات أجنبية يدركون هذا بوضوح. فالعرب الذين يعرفون الإنجليزية يعرفون أنها تستخدم

بعض الأصوات التي لا تستخدمها العربية (مثل صوت P.V.) ويعرفون أيضا أن العربية تستخدم أصواتا لا تستخدمها الإنجليزية (مثل صوت العين والغين والحاء والخاء ... إلخ) .

ومع هذا فهناك قدر مشترك من الأصوات تستخدمه اللغتان مثل t، f،d ، m والتي يقابلها في العربية الدال والفاء والتاء والميم .

وتختلف اللغات فيما بينها في عدد الأصوات التي يتألف منها بناء اللغة، فلغة أهل هاواي مثلا تستخدم ثلاثين صوتا على حين تستخدم الإنجليزية خمسة وثلاثين وتستخدم الإيطالية أربعة وثلاثين، وقد يزيد العدد على ذلك إذ تستخدم بعض اللغات ستين صوتا أو أكثر. أما العربية فتستخدم أربعة وثلاثين صوتا .

ومن المهم جدا أن نعرف أن الأصوات (أو الوحدات الصوتية Phonemes) ال التي تستخدمها كل لغة – مهما كان عددها – تتمثل في صور منتظمة يتعارف عليها أصحاب اللغة المعينة، ويستخدم هؤلاء هذا النظام بعفوية ودون إدراك لطبيعته أو قواعده، ولذلك يندهش الكثيرون حين يسمعون متكلما بلغة أجنبية لا يعرفونها ويتخيلون أنه ينطق أصواتا مختلطة لا نظام لها، وهذا تصور خاطئ مرجعه إلى أنهم لا يعرفون وحدات هذه اللغة وقواعد تأليفها، أما الذين يعرفون لغة أجنبية أو أكثر فيدركون أن لهذه اللغات وحدات تختلف قليلا أو كثيرا عن الوحدات التي تتألف منها لغتهم، وأن لها قواعد في تأليف هذه الوحدات تختلف عن قواعد لغتهم .

ونخرج من هذا بأن لكل لغة إنسانية وحداتها الخاصة ونظامها الخاص، أي أن لكل لغة عددا محدودا من الوحدات يمكن أن تجتمع في أشكال خاصة بعدد محدود من الطرق. فالعربية مثلا تستخدم أربعا وثلاثين وحدة صوتية تتوزع علي النحو الآتي :

ثلاث وحدات للحركات القصيرة هي : الفتحة والكسرة والضمة (لا تستخدم العربية رموزا كتابية أساسية تشير إلي الحركات القصيرة) وثلاث وحدات

للحركات الطويلة هي ألف المد وياء المد وواو المد، ووحدتان لأنصاف الحركات هي الواو والياء (تستخدم العربية رمزا كتابيا واحدا لواو المد في نحو " فول "، وللواو التي هي نصف حركة في نحو " وعد " وتستخدم رمزا واحدا لياء المد في نحو (" فيل "، وللياء التي هي نصف حركة في نحو "يأس") وست وعشرون وحدة من الصوامت هي الهمزة والباء والتاء والثاء والجيم والحاء والخاء والدال والذال والراء والزاي والسين والشين والصاد والضاد والطاء والظاء والعين والغين والفاء والقاف والكاف واللام والميم والنون والهاء .

كيف يتكون النظام الصوتي ؟

يقوم النظام الصوتي على أساس التبويب أو التصنيف، أي وضع الأصوات في أبواب وفقا لاعتبارات محددة بحيث تتقابل الأصوات فيما بينها وتتخالف .

فالأصوات التي يتألف منها النظام الصوتي في العربية يفترق كل واحد منها عن بقية الأصوات وفقا لأحد الاعتبارات الآتية :

١- الجهر أو الهمس (اهتزاز الوترين أو عدم اهتزازهما) والصوت بهذا الاعتبار إما مجهور أو مهموس .

٢- مجرى الصوت (طريقة مرور الهواء) والصوت بهذا الاعتبار إما انفجارى أو احتكاكى ... إلخ .

٣- مخرج الصوت (نقطة خروج الهواء) والصوت بهذا الاعتبار إما شفوى أو شفوى أسنانى أو أسنانى .. إلخ .

فالباء مثلا صوت شفوي انفجاري مجهور علي حين أن السين صوت لثوي احتكاكي مهموس، وبهذا يختلف الصوتان من حيث الاعتبارات الثلاثة. والسين والصاد يتفقان من حيث الاعتبارات الثلاثة : الهمس والاحتكاكية واللثوية، ومن ثم كان علي النظام – لكي يكون فعالا في التمييز والتفريق – أن

يوجد أساسا رابعا هو التفخيم والترقيم، فالسين مرققة والصاد مفخمة. وهكذا لا يمكن لصوت أن يشبه صوتا آخر من كل الوجوه وإلا كان هو، وكان ينبغي أن يختلف كل صوت من أصوات اللغة المعينة في صفة أو أكثر من الصفات المعتمدة في التفريق .

النظام الصرفي :

يتمثل النظام الصرفي في الطرق التي تبني بها المورفيمات من الوحدات الصغرى أو الفونيمات، وقد ذكرنا من قبل أن الفونيمات هي أصغر الوحدات التي يمكن أن تبنى منها اللغة، فهي إذن مادة الوحدة الصرفية .

ووحدة النظام الصرفي هي (المورفيم Morpheme) ويعرف بأنه : أصغر وحدة ذات معنى. فالكلمة (مصر) مورفيم لأنها أصغر وحدة ذات معني؛ إذ لا يمكن أن تنقسم إلي وحدات أصغر منها ذات معني. أما الكلمة (مصري) فليست مورفيما؛ إذ يمكن أن تنقسم إلي وحدتين أو مورفيمين هما : (مصر) وياء النسب، ولكل معنى .

والمورفيم من حيث تكوينه قد يكون وحدة صوتية، وقد يتألف من أكثر من وحدة صوتية. فالشكل (قَامَتْ) يتألف من مورفيمين الأول : هو قام ويتألف من الوحدات الصوتية ق + ا + م + فتحة والثاني هو : ت .

ويقسم اللغويون المورفيم إلي نوعين : مورفيم حر Free Morpheme إذا ما صح وقوعه منفردا ومورفيم مقيد Bound Morpheme إذا لم يصح وقوعه منفردا بل يكون متصلا بغيره. فالشكل (قامت) يتألف من مورفيم حر هو (قام) الذي يمكن أن يقع وحده في الجملة : قام محمد، ومورفيم مقيد هو : تاء التأنيث التي لا تأتي وحدها بل تجيء متصلة بالفعل.

ويفترق المورفيم عن الفونيم في الوظيفة فالمورفيم وحدة لها معني، فالمورفيم (باب) له معني، ويتألف – كما هو واضح – من فونيمات، ليس لأي منها معني، فالباء من (باب) مثلا لا معني لها، وان كانت لها وظيفة هي

التفريق والتمييز كما سبق أن أوضحنا عند الحديث عن النظام الصوتي .

ولكل لغة نظام خاص في بناء كلماتها فالإنجليزية مثلا تستخدم ما يسمي باللواصق. انظر مثلا إلى استخدام اللاحقة ly – في الكلمات quickly happily, slowly، انظر أيضا إلى استخدام السابقة -un في الكلمات unhappy, unusual, unsuitable .

وتستخدم هذه اللواصق بأنواعها المختلفة لأغراض نحوية، انظر مثلا إلى استخدام اللاحقة S في الكلمات boys, books, dogs وانظر إلى استخدام اللاحقة ed في الكلمات hoped, walked, talked .

والعربية تستخدم كذلك بعض اللواصق، انظر مثلا إلى استخدام (ال) في الكلمات الآتية : الكتاب، القلم، البيت، وانظر أيضا إلى استخدام الهمزة في تعدية الفعل اللازم نحو قام وأقام وخرج وأخرج ودخل وأدخل، وانظر إلى ياء النسب في نحو مصري وسورى وعراقى والى تاء التأنيث في الأفعال قامت وخرجت ودخلت. وإلى ألف الاثنين في نحو : كتابان وثوبان ... إلخ .

وتستخدم العربية وبعض اللغات الأخرى التغييرات الداخلية في بناء الكلمات، فالكلمة كاتب ومكتوب ومكتب وكتاب وكتب ... إلخ ترجع إلى أصل واحد هو الجذر ك . ت . ب، وتتألف الجذور في العربية من الصوامت وهي في الأعم الأغلب ثلاثية. وينسب إلى الجذر معنى عام في كل الكلمات التي تؤخذ منه، ففي الكلمات السابقة كلها معني الكتابة. غير أن كل كلمة منها تختص بمعني زائد على هذا المعني، فكاتب تدل علي من أحدث الفعل (الفاعلية) ومكتوب تدل على من.وقع عليه الفعل (المفعولية) وكتب تدل على حدث وقع في الزمن الماضي (الفعلية الماضوية) .. الخ .

فمن أين جاءت هذا المعاني التي تميز هذه الكلمات ؟

تتضمن الكلمات السابقة بالإضافة إلى الصوامت الثلاثة عنصر الحركات، وهذه الحركات هي التي تشكل ما يسمي بأبنية الكلمات أو صيغها، ويطلق علي

معني الصيغة (المعني الصرفي) ولعل ذلك يتضح من كتابتها علي النحو الآتي:

كاتِب / kaatib /

مَكْتَبْ / ma-ktab /

كَتَبَ / kataba /

كُتِبَ / kutiba /

يَكْتُبُ / ya-ktubu /

ولعلك لاحظت أن صيغة الكلمة تتحدد بنوع الحركة فتحة أو ضمة أو كسرة وبطولها قصيرة أو طويلة، وهناك عناصر أخرى تشترك في تشكيل بناء الكلمات وإضفاء المعاني الصرفية عليها. وتعرف هذه العناصر في الصرف العربي بحروف الزيادة. ومن أمثلتها (مـ -) في مكتب ومكتوب و (يـ -) في يكتب .

والمتكلمون باللغة يعرفون تماما نظامها الخاص في بناء كلماتها فليس في الإنجليزية مثل الشكل ngust ولو عرضته على إنجليزي لأنكره إنكارا تاما، لأن هذا الشكل لا ينهج طريق الإنجليزية في بناء الكلمات. وليس في الإنجليزية مثلا الشكل kindun لأنه لا يستخدم السابقة -un في مكانها الصحيح، وكذلك ليس بها الشكل lykind .

لأنه لا يستخدم اللاحقة -ly في مكانها الصحيح. ومعني ذلك أن هناك حدودا معينة على بناء الكلمات من الفونيمات، وعلى إضافة اللواصق إلى الكلمات .

والأمر كذلك في العربية لها في بنائها نظام مألوف يعرفه المتكلمون بها، وهذا النظام يسمح بأن تتكون الكلمات من عدد محدود من الوحدات، وبأن تتوالى علي نحو معين فليس في العربية مثلا الشكل (د صعل) أو (ثعصل) لأنها لا تبني كلمات من وحدات صوتية تتوالى على النحو السابق. ولها أيضا

نظام مألوف في استخدام اللواصق فعدد اللواصق محدود ويأتي في مواقع محدودة لا يتجاوزها بحال، فالكلمة "ضرب" مثلا قد تسبقها مجموعة محدودة من السوابق (مثل حروف المضارعة) فيقال : يضرب وأضرب ونضرب وتضرب. وقد يسبق حرف المضارعة بالسين ويقال : سيضرب وسأضرب وسنضرب، ولكنها لا تسمح أبدا بأن يأتي حرف المضارعة في آخر الفعل، أو أن تأتي السين بعده. كما أنها لا تسمح بزيادة حرف ليس من حروف الزيادة (سألتمونيها) ولا تسمح كذلك بإضافة أكثر من ثلاثة زوائد إلى الكلمة.

النظام النحوى:

ويمكننا أيضا التعرف على النظام الذي تنتهجه كل لغة في القواعد التي تنتظم تأليف الكلمات في عبارات أو جمل، وهذا ما يعرف بعلم النحو. وتقوم الدراسة النحوية على أساسين مهمين:

الأول : هو بيان الوحدات التي تتألف منها العبارة أو الجملة .

والثاني : بيان العلاقات المتبادلة بين هذه الوحدات.

وقد أشرنا من قبل إلى أن الوحدات التي يمكن أن تؤلف عبارة أو جملة هي الوحدات الصرفية أو المورفيمات .

أما العلاقات المتبادلة بين الوحدات فتأتي في شكلين : العلاقات الرأسية والعلاقات الأفقية .

العلاقات الرأسية:

وتقوم هذه العلاقات علي أساس أن أشكالا لغوية تشترك في خواص عامة يصح أن تشغل موقعا معينا، ولنأت بمثال لتوضيح ذلك :

تتضمن الجملة الإسنادية أو ما يعرف بالجملة النواة kernel sentence موقعين هما موقع المسند إليه وموقع المسند، ويتم شغل الموقع الأول منهما بوحدات من طبقة خاصة تسمى أشكال المسند إليه، ويتم شغل الموقع الثاني بوحدات من طبقة أخرى تسمى أشكال المسند .

فالوحـدات الآتيـة يمكـن أن تشـغل الموقـع الأول : محمـد ، الرجـل ، هـذا الرجل ، الذي يقوم ، الرجال ، ولا يمكن للوحدات الآتية أن تشغل هذا الموقـع : كتب ، يكتب ، اكتب لأنها الوحدات التي تشغل الموقع الثاني .

العلاقات الأفقية :

وهي تقوم على أساس علاقة الوحدة بما يجاورها من وحدات في سياقها ويتفرع عن العلاقة الأفقية العلاقات الآتية :

(أ) الرتبة :

لكل لغة نظامها الخاص في ترتيب الكلمات في جمل أو عبارات ففي الإنجليزية يقال The good man ولا يقال The man good على حين يقال في العربية : الرجل الطيب بتقديم الموصوف علي الصفة، ولا يقال الطيب الرجل بتقديم الصفة على الموصوف كما في الإنجليزية .

والرتبة نوعان محفوظة وهي أن تحتفظ أشكال لغويـة معينـة بمكـان ثابت بالقياس إلى ما يجاوزها فالصفة في العربية تتأخر عن الموصوف، والموصول يتقدم علي الصلة والمضاف يتقدم علـي المضاف إليه ... الخ. وغير محفوظة حيث يسمح لبعض الأشكال أن تتقدم أو تتأخر بالنسبة لأشكال أخرى، فالحال في العربية مثلا قد يتقدم على عامله فيقال : مبتسما حضر محمد أو علـى صاحبه حضر مبتسما محمد، والمفعول به قد يتقدم على الفاعل فيقال ضرب عليا محمد أو على فعله عليا ضربه محمد ... إلخ .

وللرتبـة أهميـة كبيـرة فـي الإنجليزيـة حتـى لينبنـي علـى تغييرها تغير فـي العلاقـات النحويـة ففـي الجملـة Tom hit John يتقدم الفاعل Tom ويتـأخر المفعول به John وسوف تتغير العلاقات حين يقال John hit Tom فيصبح John فاعلا ويصبح Tom مفعولا بـه، وشبيه بهذا فـي العربيـة قولنـا ضـرب موسـى عيسـى فالمتقدم هو الفاعل بالضرورة نظرا لأن الفاعل والمفعول هنا معربان بحركات مقدرة، وعلامات الإعراب في العربيـة تحـدد وظـائف الكلمـات في الجملة .

(ب) المطابقة :

تتم بين بعض الأشكال في السياق وتكون المطابقة فيما يأتي :

١- العلامة الإعرابية .

٢- الشخص (التكلم والخطاب والغيبة) .

٣- العدد (الإفراد والتثنية والجمع) .

٤- النوع (التذكير والتأنيث) .

٥- التعيين (التنكير والتعريف) .

وتتم المطابقة في العربية بين المبتدأ والخبر وبين الصفة والموصوف ... إلخ. فيقال مثلا: محمد قائم، وفاطمة قائمة، والرجلان قائمان، والفتاتان قائمتان، والرجال قائمون، والبنات قائمات ... إلخ .

ويقال مثلا : رجل قائم، والرجل القائم، وفتاة قائمة، والفتاة القائمة، ورجلان قائمان، والرجلان القائمان .. إلخ .

ولا يمكن بحال مخالفة هذه المطابقة فلا يقال مثلا : محمد قائمة أو قائمان... إلخ. وتختلف قواعد المطابقة باختلاف اللغات فالمطابقة بين الصفة والموصوف في الإنجليزية في العدد وفي النوع غير مرعية فيقال :

The good man. The good girl, The good men.

(جـ) الإعراب :

نظام يتألف من مجموعة من العلامات الشكلية تقوم بدور كبير في بيان المعاني النحوية، وتختلف اللغات فيما بينها في الاعتماد عليه، فالإنجليزية غير معربة على حين تعتمد العربية الفصحى عليه، وكانت اللاتينية لغة معربة، وما تزال بعض اللغات التي تفرعت عن اللاتينية تستخدم بعض الحالات الإعرابية.

ونظام الإعراب في العربية يتألف من أحوال إعرابية وهي: الرفع والنصب والجزم والجر، ولكل من الحالات السابقة علامات فعلامات الرفع قد تكون

الضمة أو الألف أو الواو، وعلامات النصب قد تكون الفتحة أو الألف أو الكسرة ... إلخ .

ولكل موقع من المواقع الإعرابية حالة معينة، فالفاعل مثلا مرفوع، والمفعول به منصوب، والمضاف إليه مجرور ... الخ .

اللغــة رمـــزية

أشرنا في الصفحات السابقة إلى أن اللغة نظام من الأصوات المنطوقة له قواعد تحكم مستوياته المختلفة الصوتية والصرفية والنحوية، وتعمل هذه الأنظمة في انسجام ظاهر وترابط وثيق، ولهذا قلنا عند الحديث عن هذه الأنظمة إن اللغة نظام الأنظمة .

الأصوات إذن هي مادة اللغة، وهذه الأصوات رموز، أي بدائل نستخدمها في الإشارة إلى شيء ليس هو الأصوات نفسها .

فالأصوات التي تمثل الكلمة " وردة " هي وسائل للإشارة إلى الوردة نفسها، وليس ثمة علاقة ضرورية أو طبيعية بين أصوات هذه الكلمة والوردة نفسها، وكل ما حدث أنه في وقت ما من تاريخ اللغة العربية ربط المتكلمون بهذه اللغة بين هذا اللفظ وهذا الشيء .. وقد كان من الممكن أن يستخدموا لفظا آخر أو يستخدموا هذا اللفظ للإشارة إلى شيء آخر .

إن العلاقة بين الأصوات المعينة، والأشياء التي يشار إليها بها علاقة اعتباطية .

وحين يتعرض الإنسان لما يؤلمه أو يؤذيه قد يطلق صيحة، هذه الصيحة هي رد فعل لما أحس به. والعلاقة بين الصيحة والألم علاقة مباشرة فليست الصيحة بديلا عن الألم بل هي رد فعل له .

أما الكلمة (ألم) مثلا فهي علامة غير مباشرة يستخدمها من يتكلم العربية للإشارة إلى إحساس ما، ويستخدم من يتكلم الإنجليزية كلمة أخرى هي Pain

لنفس الغرض، ويستخدم من يتكلم الفرنسية كلمة ثالثة ... وهكذا، لأنه لا توجد علاقة مباشرة بين العلامة المستخدمة (لفظ ألم أو pain ... إلخ) وما تشير إليه (الألم نفسه) .

اللغة إذن علامات غير مباشرة، أو رموز للإشارة إلى الأشياء. فما هي العلامات والرموز وما العلاقة بينهما وبين الأشياء ؟

العلامات Signs والرموز Symbols :

من الواضح أننا في حديثنا العادي لا نفرق بينهما، ولكن علماء السيميوطيقا- وهو العلم الذي يدرس كل أشكال العلامات والرموز عند الإنسان والحيوان والآلات - يفرقون بينهما .

إن كل ما في الكون من ظواهر ينبئنا أو يعلمنا بشيء ما، فالدخان الذي يتصاعد من النار علامة على وجود نار، إنه يعلمنا بوجود النار رغم أننا لا نراها .

ولكن النار تصبح رمزا إذا ما اتفق عدد من الناس على أن تكون للتحذير من عدو قادم، واللون الأخضر والأحمر والأصفر لا يعني شيئا غير اللون ذاته، ولكن هذه الألوان حين تستخدم لتنسيق حركة السيارات والمشاة تعني شيئا آخر غير اللون ذاته، أي تصبح رموزا للسير أو التوقف أو الاستعداد.

فالرمز يتطلب وجود طرفين : مرسل وهدفه الإعلام أو الإخبار، ومستقبل يتلقى الرمز .

أما العلامة فلا تتطلب بالضرورة وجود الطرفين معا، فرؤية المارة وهم يتدثرون بمعاطفهم علامة على برودة الجو، ولكنه ليس رمزا، لأنه ليس ثمة طرف يقوم بإخبارنا بذلك. وظهور سحاب كثيف علامة علي مطر متوقع، ولكنه ليس رمزا، لأنه ليس ثمة مرسل يقوم بإخبارنا بذلك، وتسمى هذه العلامات بالعلامات الدالة indexical .

لقد ذكرنا من قبل أن الحيوان يصيح عندما يشعر بالجوع أو الخوف أو

الألم ... إلخ وقلنا إن هذه الصيحات ردود أفعال لما يشعر به هذه الصيحات علامات وليست رموزا، والسبب في أن الحيوان حين يصبح عند اقتراب حيوان مفترس – فيتنبه رفاقه – يستجيب آليا للمثير وهو رؤيته للعدو، وصيحاته تثير عند هؤلاء الرفاق ردود أفعال فيتأهبون للقتال، غير أن هذا الحيوان في الحقيقة لا يقصد تحذيرهم عندما يصيح، ويؤكد هذا أنه يصيح هذه الصيحات عندما يشعر باقتراب العدو ولا يكون ثمة رفاق يحذرهم منه .

ومثل ذلك ما يبدو على الإنسان أحيانا في مواقف معينة، فالبكاء علامة للحزن، واحمرار الخدين علامة الخجل، واصفرار الوجه علامة على الخوف، وهذه العلامات ليست رموزا، لأنها نتيجة لحالات من الانفعال، ولأن الإنسان لا يقصد إلى استخدامها رمزا .

الرمز إذن يتطلب قصدا، أما العلامة فلا تتطلب ذلك بالضرورة .

وانظر إلى علامة المرور التي تمثل طفلين يعبران الطريق، هذه العلامة ليست رمزية لأنها تقدم لنا صورة فعلية لما يعتقد أنه مصدر خطر أمام السائقين، ولا يحتاج هؤلاء السائقين إلى من يلقنهم معنى هذه العلامة .

وحين يريد أحد الأشخاص أن يأكل فيعبر عن رغبته هذه بتمثيل حركات الأكل، هذه الحركات علامات وليست رموزا، لأنها تمثل الشيء على ما هو عليه، وتسمي هذه العلامات العلامات التصورية iconic .

وانظر إلى علامة المرور التي تمثل مشعلا يعني المعرفة ويشير إلى وجود مدرسة عبر الطريق. هذه العلامة رمز، لأن العلاقة بين المشعل والمعرفة اعتباطية، ولأن السائقين يحتاجون إلى من يفسر لهم معناها وتسمى هذه العلامة بالعلامة العرفية conventional أو الرمز sign .

الرمز إذن لا يمثل الشيء الذي يشير إليه، أما العلامة فقد تكون تمثيلا لما تشير إليه .

ونلخص الآن أهم خصائص الرمز :

١- يتطلب الرمز وجود مرسل يهدف إلى الإخبار بشيء ومستقبل يتلقى الرسالة .

٢- العلاقة بين الرمز والمرموز إليه علاقة اعتباطية، فليس ثمة علاقة ضرورية بينهما .

٣- يتطلب الرمز قصدا من المرسل ووعيا باستخدام الرمز وسيلة لتحقيق مراده .

٤- لا يمثل الرمز الشيء الذي يشير إليه بل يعني شيئا غير ذاته، ولهذا يحتاج إلى تفسير.

ومن الواضح إذن أن العلامة أعم من الرمز، فكل رمز علامة، وليس كل علامة رمزا.

أشكال من الرموز :

يستخدم البشر أشكالا متنوعة من الرموز، فاللون الأسود عند المصريين رمز للحزن، واللون الأبيض - لا الأسود - هو رمز الحزن عند الصينيين - ولا توجد علاقة مباشرة بين هذين اللونين والحزن. والإشارات رموز، فالإنجليزي يهز كتفيه عندما يريد أن يقول : لا أعرف. والروسي يرفع إبهامه إلى أعلي عندما يعبر عن دهشته، وليس ثمة علاقة مباشرة بين هذه الإشارات الرمزية وما تعبر عنه، فهز الرأس مثلا رمز للرفض عند قوم ولكنه يعني القبول عند الأتراك .

ومن الملاحظ أن إشارات اليد والوجه تتخذ لدى بعض الشعوب دورا مكملا للغة، وليس بديلا عنها، فالحركات التي نعبر بها عن انفعالاتنا تفيد في التأكيد على بعض الكلمات وتعطى طابعا جديدا للمعني ربما لا يحققه اللفظ، وقد يستعين المتحدث أحيانا بهذه الحركات ليعطي معني مخالفا لظاهر الكلام (المحاكاة الحركية بقصد السخرية أو الغمز بالعين) ويهتم المرء أحيانا بنغمة

الصوت وطبقته وبتعبيرات الوجه أكثر من اهتمامه بالألفاظ نفسها .

وقد تقوم الإشارات بدور اللغة في بعض المواقف، فالهنود الحمر يستخدمون النار والدخان، ففي الليل يستخدمون النار للإبلاغ عن قدوم غرباء أو دعوة المقاتلين إلى الحرب .. وفي النهار يستخدمون الدخان .

ويستخدم هنود (بيرو) الطبول للاتصال بالمناطق البعيدة، فيقرعون الطبول للإخبار بعدو قادم أو عيد مقبل أو زفاف أو غير ذلك من شئون القبيلة .

أما سكان جزر كنارى فيستخدمون وسيلة بارعة لنقل الكلام البشرى هي الصفير على نحو ما يفعل الصبية، وهو يشبه إلى حد كبير شفرة مورس .

أما الرموز التي تعنينا هنا أساسا فهي الرموز اللغوية سواء أكانت منطوقة (الأصوات) أم مكتوبة (حروف الهجاء) . والرموز اللغوية أو اللغة هي أغنى الأنظمة الرمزية وأكثرها إيجازا في الوقت نفسه.

العلاقة بين الرمز اللغوي وما يشير إليه :

الأصوات التي تستخدمها اللغة هي رموز تشير إلى أشياء خارج البيئة اللغوية، والعلاقة بين الأصوات والأشياء علاقة اعتباطية، وهذا معناه ببساطة أنه ليست هناك علاقة مباشرة أو ضرورية بين وحدات اللغة والأشياء أو الأفكار أو التجارب التي تعبر عنها .

ويؤكد ما سبق أن عقد اتصال - من خلال الكلام وحده - بين متكلمين يستخدمون لغات مختلفة مستبعد، إذ ليس هناك علاقة حتمية بين الأصوات التي تستخدمها كل لغة، والرسالة التي تحملها هذه الأصوات، حتى وإن كانت الرسالة متطابقة في كلتا اللغتين .

ففي العربية تستخدم الكلمة (تفاحة) للإشارة إلى الثمرة المعروفة، وتستخدم الإنجليزية كلمة أخرى هي apple، وتستخدم الفرنسية كلمة أخرى هي bomme، وهكذا تستخدم كل لغة كلمة مختلفة، ولو كانت هناك علاقة طبيعية أو مباشرة بين الأشياء التي تتحدث عنها اللغة وبين الكلمات التي تستخدم تمثيلها

لكانت لدينا لغة واحدة فحسب .

ولكن كيف يتم الربط بين الرمز (الألفاظ) والمرموز إليه (الأشياء) ؟

لقد ألقت التجارب التي قام بها العالم الروسي (بافلوف) ضوءا جديدا علي هذه العملية فقد اعتاد (بافلوف) أن يحدث صفيرا معينا وقت تقديم الطعام لكلبه، ومن ثم حدث ترابط وثيق بين منظر الطعام ورائحته وطعمه وبين الصوت الذي يصاحب تقديم الطعام بانتظام. كل هذه الانطباعات الحسية كونت جزءا من خبرة عامة متكررة. وبعد أن اطمأن (بافلوف) إلى استقرار هذه القرائن الحسية عمد ذات يوم إلى إحداث الصفير دون إحضار الطعام، فوجد أن الكلب قد أظهر كل علامات توقع الطعام، وكان اللعاب إحدى هذه العلامات. كل الذي حدث هو أن جزءا من الخبرة قد انفصل عن بقية الأجزاء وكان هذا الجزء وحده كافيا لاستدعاء بقية القرائن .

وهذا مؤداه أن الربط بين الرمز والشيء يحدث عن طريق الخبرة المتكررة، فالطفل الذي يبدأ في تعلم اللغة يتكرر أمامه من المحيطين به الربط بين رمز معين وشيء معين وليكن لفظ (كورة) والكورة نفسها، وبتكرار هذا الربط يتم تكوين خبرة لديه بحيث ينوب أحد الشيئين الرمز أو الشيء عن الأخر، فعندما يري الكورة ينطق بلفظ (كورة) وعندما يسمع هذا اللفظ يتكون لديه صورة الشيء وهكذا .

وهذا هو أيضا ما يحدث للكبار فليس الأمر مقتصرا علي الأطفال عندما يتعلمون اللغة.

اللغــة عرفيــة

عندما نتأمل في لفظ من ألفاظ اللغة يظهر لنا أن اعتباره رمزا اعتباطيا أمر واضح، لقد كان من الممكن أن نستخدم كلمة أخرى للتعبير عن نفس الشيء لقد أطلق العرب يوما لفظ (قلم) علي الأداة التي يكتبون بها، وقد كان من الممكن أن يستخدموا لفظا آخر، فليس بين هذا اللفظ وهذه الأداة علاقة ضرورية

كل ما هناك هو هذا الاختيار العشوائي للفظ .

غير أن اللغة ليست وحدات مفردة (كلمات) فحسب، فكل وحدة من وحدات اللغة لها علاقة واضحة ومطردة بغيرها من الوحدات، إنها في الحقيقة تستخدم وفقا لاتفاق بين المتكلمين، إن اللغة – بناء علي هذا – ونتيجة لهذا الاتفاق يمكن أن يقال إنها عرفية .

فلو قلت : ركبت سيارتي وانطلقت بها إلى البيت. سوف يفهم المتحدثون بالعربية ما أريد التعبير عنه بألفاظي، لأنهم جميعا يدركون العلاقة بين ألفاظ المنطوق السابق وبين الأشياء التي تشير إليها. ولو قلت : " ركبت قلمي وانطلقت به إلى التفاحة " ما فهم أحد شيئا، لأنني استخدمت الألفاظ بشكل يخالف ما هو مألوف في أذهانهم .

وليس اتفاق جماعة المتكلمين بالعربية مقصورا علي استخدام الألفاظ علي النحو السابق، بل أنه يشمل كل أشكال اللغة (بناء الكلمات أو بناء الجمل) .

فلو قلت مثلا : السيارة منطلق أو قلت خرج محمدا أو قلت : الكتاب المكتبة في .. الخ أكون قد خالفت عرف المتكلمين بالعربية .

إن هذا الاتفاق ليس عملا صريحا أو واضحا (فلم يجتمع الناس مثلا في مؤتمر ليتفقوا علي استخدام كلمة أو جملة ما) إنه فحسب اتفاق في السلوك والعمل. إن المتكلمين في مجتمع معين يستخدمون نفس الكلمات للإشارة إلى نفس الأشياء، ويستخدمون أنواعا من التراكيب للتعامل بها في مواقف مشابهة، إنه العرف الضمني الذي يكوّن ويقر الأنظمة اللغوية، وكل منا يكتسب لغته من مجتمعه المعين، ويتلقى في أحضانه كل القواعد التي تنظم لغته .

ومن النتائج المهمة للقول بالطبيعة العربية للغة اعتبار لغة متكلم واحد من الجماعة المعينة ممثلة للعادات اللغوية للمتكلمين الآخرين من نفس المجتمع. ولهذا يولي علماء اللغة المحدثون عناية كبيرة ببيان الجماعة اللغوية التي ينتمي إليها المتكلم المراد دراسة لغته باعتبارها مثلا للغة الجماعة .

والجماعة اللغوية – في إطار لغة معينة – هي الجماعة من الناس الذين تربط بينهم لغة واحدة .. وهي تطلق علي وحدات اجتماعية تتفاوت كبرا وصغرا، ويمكن أن نرتبها ترتيبا تصاعديا، يبدأ بالأسرة فالعائلة فالقبيلة فالأمة ثم ما يمكن أن يسمي بالأمة الكبرى .

وهناك عوامل لها تأثيرها في عرف الجماعة كالمنطقة الجغرافية أو الظروف الاجتماعية أو الثقافية. ولنا عودة إلى هذه النقطة فيما بعد .

غير أن كلمات اللغة كلها ليست عرفية، فهناك عدد من الكلمات تكون أصواتها دليلا من دلائل معناها، ويعرف هذا في اصطلاح اللغويين onomotopia أي استخدام كلمات يوحي لفظها بمعناها، ومن هذه الكلمات في العربية حفيف وخرير وأزيز. ومثل قهقة وتأوه، ومثل هذه الكلمات يستطيع الأجنبي الذي لا يعرف مدلولها أن يخمن هذا المدلول إلى حد ما. والغالب أن تتشابه هذه الكلمات في عدد من اللغات فاللغات الإنجليزية والفرنسية والبلغارية تطلق علي طائر معروف في أوروبا اسم cuckoo، وقد كانت هذه الكلمة تطلق في الأصل علي الصوت الذي يصدره هذا الطائر. ومن هذا النوع الكلمات التي يطلق عليها nursery words وهي الكلمات التي يستخدمها الأطفال وذووهم للإشارة إلى الأم والأب، فهذه الكلمات تكاد تكون هي في كل لغات العالم. فهي مثلا baba بابا و mama ماما في الإنجليزية والعربية والروسية والسواحلية .

ويعد (جسبرسن) من اللغويين الذين ينتصرون للقول بالمناسبة بين الألفاظ ودلالتها، ومما استشهد به في هذا المجال ما تحفل به اللغات من الألفاظ التي تعد صدى لأصوات الطبيعة كالخرير والأزيز والصرير وقد جمع (جسبرسن) عددا كبيرا من الشواهد ليدلل علي العلاقة التي تربط بين الألفاظ ببعض المعاني فهو يقول مثلا : إن الحركة " i " قد هيئت بصفة خاصة للتعبير عن الصغر والقلة ومن أمثلة ذلك الكلمات little, wee, tiny, slim, kid .

وقد تابعه في ذلك الدكتور إبراهيم أنيس الذي يقول : لقد لوحظ أن الكسرة

وما يتفرع عنها من ياء المد ترمز في كثير من اللغات إلى صغر الحجم أو قرب المسافة، ففي العربية مثلا نجد أن الياء هي علامة التصغير، وأن الكسرة علامة التأنيث .

وليس صعبا أن نورد أمثلة تخالف ما انتهي إليه (جسبرسن) والدكتور أنيس، فالكلمة big مثلا تتضمن الكسرة وتدل على الكبر، والكلمة small تدل على الصغر ولا تتضمن الكسرة. والياء التي ترمز إلى صغر الحجم أو قرب المسافة هي بعينها الياء التي في كبير وبعيد .

والرأي الذي نميل إليه هو أن كلمات اللغة في الأعم الأغلب اعتباطية، أما الكلمات التي يطلق عليها onomotopia فهي قليلة في كل اللغات وقد تختلف من لغة إلى لغة، ولا يصح أن نتخذ منها أساسا لظاهرة مطردة .

وخلاصة القول فيما سبق :

١- أن اللغة تتألف من أصوات، وأن هذه الأصوات رموز تستخدم للإشارة إلى أشياء خارج اللغة.

٢- أن اللغة اعتباطية فليست هناك علاقة طبيعية بين الألفاظ والأشياء التي تمثلها .

٣- أن اللغة عرفية: فالأفراد الذين ينتمون إلى مجتمع لغوي معين يستخدمون اللغة المعينة بطريقة واحدة متفق عليها فيما بينهم .

اللغـــات متشابهـــة

يقدر بعض اللغويين عدد لغات العالم بنحو ٣٠٠٠ ثلاثة آلاف لغة، ويقدرها آخرون بنحو ٨٠٠٠ ثمانية آلاف لغة، وليست هذه اللغات سواء في عدد المتحدثين بها، فمنها لغات واسعة الانتشار يزيد عدد المتحدثين بها عن مائة مليون كالصينية والإنجليزية والفرنسية والروسية والعربية ومنها لغات محدودة الانتشار ربما لا يزيد عدد المتحدثين ببعضها عن بضع مئات .

ويروي كاتب الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين أن الأرض كلها كانت لسانا واحدا ولغة واحدة، ثم انتشر الناس في الأرض حتى وصلوا إلى أرض شنعار، وبدأوا يبنون عليها مدينة وبرجا، وحين نظر إليهم الرب وهم يعملون قال : هل ننزل ونبلبل لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض، فبددهم الرب من هناك علي وجه كل الأرض، فكفوا عن بنيان المدينة، لذلك دعا اسمها بابل، لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض .

ولنتخيل الآن مدينة كبيرة كمدينة بابل القديمة يجتمع فيها ممثلون لهذه اللغات التي تحدثنا عنها آنفا، ولنتصور كيف يكون أمرهم حين يتحدث بعضهم إلى بعض بلغاتهم المتنوعة. لا شك أن الصورة سوف تكون مثلا فريدا على اضطراب الألسنة وتباين اللغات، وسوف يكون التفاهم بين سكان هذه المدينة العجيبة مستحيلا .

قد تدعونا هذه الصورة القديمة لبرج بابل أو تلك الصورة التي تخيلناها تخيلا إلى الاعتقاد بأن لغات البشر تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا يحول دون التفاهم المشترك والتعاون المتبادل. بل إنها تدعونا – نحن اللغويين – إلى أن نكف عن محاولة فهم وطبيعة اللغة الإنسانية، فلا سبيل إلى ذلك ولغات البشر على هذا النحو من الاختلاف والتنوع. غير أن الأمر لحسن الحظ ليس كذلك، فلو أمعنا النظر في هذه اللغات وتعمقنا في درسها لأدركنا أن بين لغات البشر جميعها قدرا من التشابه يجعلها داخلة في إطار ما نسميه (اللغة الإنسانية)، وبينها أيضا قدر من الاختلاف يكفي لتميزها وتفردها، ويدخلها في إطار ما يسمي (اللغة المعينة) كالصينية أو الإنجليزية أو العربية أو ما شاء الله لها من الأوصاف. ولنبدأ إذن في هذه المحاولة التي ترمي إلى فهم طبيعة اللغة الإنسانية وإلى إدراك ما بين لغات البشر من تشابه أو اختلاف .

وجوه الشبه بين لغات البشر :

إن التشابه الذي يرى اللغويون المعاصرون أنه موجود بين لغات البشر

ليس أمرا جديدا، بل كان نتيجة لبحوث لغوية متواصلة بدأها علماء اللغة في القرن السابع عشر، وهذا التشابه المفترض يعتمد على أسس قوية، منها على سبيل التمثيل :

أ- لقد ثبت أن الطفل قادر على اكتساب أية لغة إنسانية من لغات البشر المتنوعة بيسر وسهولة بالغين، بل أنه يكتسب اللغة بأنظمتها المعقدة في فترة قصيرة نسبيا لا تزيد عن أربعة أعوام، بل إنه يمتلك لغته تماما قبل أن يتعلم مثلا كيف يقسم أربعة على اثنين، وهذا كله يتم دون اعتبار لجنس الطفل أو ذكائه، بل إن بعض الأطفال الذين تتوفر لهم ظروف بيئية معينة قد يكتسبون لغة ثانية في هذه السن المبكرة .

ب- إن لغات البشر متشابهة، لأن البشر الذين يتحدثون بها متشابهون في إدراكهم لما يحيط بهم، إنهم يجربون العالم المادي المحيط بهم بطرق متشابهة في جوهرها. فحين يقول العربي رأيت كتابين لا يختلف في إدراكه لعناصر هذا الموقف عن الإنجليزي الذي يقول في الموقف نفسه I saw two books إن الجملة التي لفظها كلٌّ تتضمن نفس المفاهيم، وتشير إلى تجربة واحدة .

ومما يؤكد هذا أنه من الممكن ترجمة أي نص من لغة إلى لغة أخرى .

ج- يستخدم البشر جميعا عند الحديث جهازا واحدا هو ما يطلق عليه أعضاء النطق وهو هو عند جميع البشر، وتقوم هذه الأعضاء بإنتاج الكلام بطريقة متشابهة والأمر كذلك فيما يتصل بالهواء الذي يحمل الكلام وبأعضاء السمع التي تستقبله، بل إن الأمر هو هو فيما يتصل بالعمليات العقلية التي تسبق إنتاج الكلام أو تعقبه .

هناك إذن ما يسوغ القول بتشابه اللغات أو بما يسميه اللغويون بالعناصر المشتركة أو العناصر العامة، وفي ظل هذا التشابه يستطيع الإنسان أن يتعلم لغة أخرى غير لغته الأصلية بل أن الإنسان حين يتعلم اللغة الثانية يتعاظم إدراكه

شيئا فشيئا بالعناصر المشتركة بين لغته الأصلية واللغة الثانية، ويتم هذا دون اعتبار العلاقات الثقافية أو التاريخية بين اللغتين، إن هذه المقابلة سوف تتم في إطار ما بين اللغتين من مشابه لغوية .

وقد أحصى اللغويان (فيكتوريا فرومكين) و (روبرت رودمان) بعض وجوه الشبه بين اللغات، وأشارا إلى أنه إحصاء أولى يمكن إضافة عناصر جديدة إليه، وقد أشرنا في الفصول السابقة إلى بعض هذه الوجوه .

تتمثل هذه الوجوه فيما يأتي :

١- أينما وجد الإنسان وجدت اللغة .

٢- ليس في العالم لغات بدائية - فكل اللغات متساوية في تعقيدها وفي قدرتها على التعبير عن أي مفهوم في العالم. ومعجم أية لغة قادر علي أن يتسع ليضم كلمات جديدة تعبر عن مفاهيم جديدة .

٣- كل اللغات تتغير بمرور الزمن .

٤- كل اللغات المألوفة تستخدم الأصوات في التعبير عن المعني، والعلاقات التي بين الأصوات والمعاني هي في معظمها عرفية اعتباطية.

٥- كل اللغات المألوفة تستخدم عددا محدودا من الأصوات التي يتألف منها عناصر ذوات معان (أي morphmes)، وهذه العناصر تتضام معا لتؤلف (مفاهيم كاملة) أو جملا.

٦- تتضمن قواعد اللغة قواعد صوتية وصرفية ونحوية من نوع متشابه .

٧- تتضمن اللغات أنماطا نحوية متشابهة منها على سبيل المثال (الاسم والفعل) .

٨- في لغات العالم مفاهيم معنوية عالمية. فكل لغة لها طريقتها في التعبير عن الزمن الماضي وفي التعبير عن النفي وفي التعبير عن الاستفهام ... إلخ .

٩- كل المتحدثين باللغات الإنسانية قادرون على تأليف وفهم عدد لا حصر له من الجمل.

١٠- أي طفل أينما وجد في أي جزء من العالم، ومهما كان جنسه أو بيته أو وضعه الاجتماعي أو الاقتصادي قادر على تعلم أية لغة من لغات البشر قدر له أن يعيش بين أبنائها .

ويضيف هذان اللغويان إلى أوجه الشبه العامة السابقة التي تشترك فيها كل اللغات أوجها أخرى من التشابه تشترك فيها أغلب اللغات لا كلها، ويعدان هذه الأوجه نزعات أو اتجاهات عالمية، وهما يريان أنها كثيرة جدا، ومنها على سبيل المثال :

١- تنزع اللغة إلى أن تتضمن صوتا أنفيا على الأقل، والغالب أن يكون n فإذا ما تضمنت صوتا أنفيا آخر كان صوت m .

٢- إذا ما كان في اللغة أصوات احتكاكية، فالغالب أن يكون من بينها الصوت s .

٣- في معظم اللغات يتقدم الفاعل على المفعول به .

٤- غالبا ما تتضمن اللغات كلمات تحدد بعض المعاني المتقابلة، ومن ذلك علي سبيل المثال الثنائيات الآتية : شاب young، عجوز old، طويل long، قصير short حي alive، ميت dead ... إلخ .

وجود الخلاف بين لغات البشر :

وقد نظن بعد أن عددنا وجوه الشبه التي تنتظم لغات العالم جميعا أو تنتظم معظمها - أن هذه الوجوه كافية للتفاهم المشترك بين البشر غير أن الأمر على خلاف ذلك فإذا ما اجتمع عربي لا يعرف الإنجليزية وإنجليزي لا يعرف العربية وتكلما معا فلن يفهم أحدهما الآخر. فما سر ذلك إذن ؟

إن كل لغة من لغات البشر تتضمن صفات أو خصائص تميزها عن أية

لغة أخرى، وهذه الصفات أو الخصائص هي التي تجعل عقد اتصال لغوي بين متحدثين بلغتين مختلفتين أمرا مستبعدا .

ويقع هذا الخلاف في مستويات اللغة المختلفة المستوى الفونولوجي والصرفي والنحوي والمعجمي .

تختلف الأنظمة الفونولوجية للغات اختلافا كبيرا. إذ تضم كل لغة عددا مختلفا من الأصوات المتميزة phonemes، وإن كانت كل اللغات تضم بعض الأصوات المشتركة، ولتوضيح ذلك تعقد الموازنة الآتية بين النظام الفونولوجي في اللغة العربية واللغة الإنجليزية.

أولا : في اللغتين كلتيهما عدد من الفونيمات (الحروف) المشتركة مثل m م و n ن و s س و d د ، f ف .. إلخ .

ثانيا : في العربية فونيمات لا نظير لها في الإنجليزية مثل ع و غ و خ .. إلخ .

ثالثا : في الإنجليزية فونيمات لا نظير لها في العربية مثل P.V ... إلخ .

وليس الخلاف بين اللغات مقصورا على ما تتميز به كل لغة من فونيمات بل تختلف كذلك في القواعد الفونولوجية الخاصة بكل لغة. وعلي سبيل المثال لا تسمح قواعد العربية بمقطع تتوالى فيه السواكن علي النحو الذي تتوالى فيه في الكلمة الإنجليزية Splints .

لقد أشرنا قبل إلى أن العربي الذي يقول: رأيت كتابين يعبر عن المفاهيم التي يعبر عنها الإنجليزي حين يقول في الموقف نفسه: (I saw two books) .

ونضيف أيضا إلي أن الجملتين السابقتين تتضمنان فاعلا وفعلا ومفعولا به، وكل اللغات الإنسانية تتضمن هذه العناصر الثلاثة، غير أنها تختلف فيما بينها في الترتيب المسموح به .

فالترتيب المألوف في الإنجليزية هو فاعل + فعل + مفعول به ، وتفضل لغات أخرى ترتيبا آخر، فاللغة اليابانية تفضل الترتيب فاعل + مفعول به + فعل، واللغة

المالاجاشية تفضل الترتيب فعل + مفعول به + فاعل، وتفضل إحدى لغات استراليا الترتيب مفعول به + فاعل + فعل .

أما العربية فتفضل الترتيب فعل + فاعل + مفعول به وإن كانت تسمح بمخالفة هذا الترتيب لمقتضيات بلاغية .

وكل لغات البشر تتضمن عبارة اسمية تتألف من صفة وموصوف، وإن اختلفت في الترتيب، فالعربية يتقدم فيها الموصوف على الصفة فيقال الكتاب الأحمر وفي الإنجليزية يقال The red book بتقديم الصفة على الموصوف، ومع هذا الاختلاف فالعبارة في اللغتين تعبر عن علاقة تركيبية واحدة .

وربما كان الخلاف المعجمي بين اللغات واضحا جدا فكل لغة من لغات البشر تتألف من كلمات تعبر عن مفاهيم، ولدي البشر جميعا مفاهيم عامة لا يخلو منها معجم أية لغة من لغات البشر وعلي سبيل المثال في كل لغات البشر كلمة أو أكثر لتعبر عما تعبر عنه الكلمة العربية (ماء) ففي الإنجليزية water وفي الألمانية wasser وفي الأسبانية agua وفي الهندية vada ... إلخ .

ملخص لمفردات الوحدة



أولا ـ اللغة ظاهرة إنسانية:

- الإنسان حيوان ناطق أي مصوّت ومفكر في آن، بعبارة أخرى يضع أفكاره في ألفاظ.
- ناطقية الإنسان تعني أمرين: ممارسة التفكير والحياة في جماعة.
- البحوث الحديثة تؤكد اختصاص الإنسان باللغة.
- الاختلاف بين لغة الإنسان وأدوات الاتصال عند الحيوان اختلاف نوعي.
- عناصر الاختلاف بين لغة الإنسان وأدوات الاتصال عند الحيوان.

١- أشكال الاتصال لدى الحيوان محدودة العدد، محصورة المجال.

٢- الأصوات والإشارات عند الحيوان رد فعل مباشر.

٣- لا تتضمن صيحات الحيوان وحدات مستقلة.

٤- لدى الإنسان مقدرة هائلة على إنتاج جمل لا حصر لها.

٥- لغة الإنسان لها قواعد معقدة متعارف عليها بين أصحابها.

٦- لغة الإنسان مكتسبة من المجتمع، وأدوات الاتصال عند الحيوان غريزية .

٧- الإنسان قادر على استخدام الألفاظ على سبيل التعميم والتخصيص.

٨- يستخدم الإنسان لغته للإشارة إلى أشياء أو أحداث بعيدة عنه زماناً ومكاناً.

ثانيا ـ اللغة مكتسبة:

- النظريات التقليدية في تفسير الاكتساب.

- الفرق بين الاكتساب والتعلم.
- النظرية الحديثة في تفسير الاكتساب.
- الطفل يولد مزوداً بملكة **Competence** تعينه على اكتساب نظام لغوي معقد.
- الطفل عامل إيجابي في اكتسابه اللغة.
- الطفل يكتسب لغة المجتمع الذي يقدر له أن يعيش فيه.
- اكتساب اللغة تطور طبيعي تدريجي يمر به كل طفل لا علاقة له بجنس معين أو لغة معينة.

ثالثاً - اللغة أصوات:

- اللغة منطوقة أساساً.
- اللغة المكتوبة ثانوية.
- الجانب الصوتي في اللغة: (إصدار الصوت- انتقال الصوت- استقبال الصوت).
- أغلب لغات العالم إما سواكن **Consonants** أو حركات **Vowels**.

رابعاً - اللغة نظام:

(أ) مفهوم النظام:

- اللغة مجموعة من الأنظمة تصف مجموعة لا حد لها من الجمل.
- الجملة وحدة كبرى تنقسم - على سبيل التبسيط- إلى كلمات، والكلمات تنقسم إلى حروف، والحروف هي الوحدات الصغرى للغة.

(ب) وحدات النظام اللغوي: لكل نظام وحداته، وله قواعد في التأليف المسموح به وغير المسموح به.

(ج) النظام الصوتي:

- تعريف الوحدة الصوتية **Phoneme**.

- تتعدد وحداته في كل لغة.

- وحداته في العربية ٣٤ وحدات.

- كيف تتمايز الوحدات الصوتية.

(د) النظام المصرفي:

- تعريف الوحدة الصرفية **Morpheme**.

- بناء الوحدة الصرفية بالاشتقاق.

- بناء الوحدة الصرفية باللصق.

(هـ) النظام النحوي:

- تعريف العبارة والجملة.

- العلاقات الرأسية والأفقية.

- فروع العلاقات الأفقية: الإعراب، التضام، الرتبة، المطابقة.

خامساً - اللغة رمزية:

- مفهوم الرمز والفرق بينه وبين العلاقة.

- اعتباطية الرمز.

- خصائص الرمز.

- العلاقة بين الرمز اللغوي وما يشير إليه وكيف تكتسب.

سادساً - اللغة عرفية:

- الجماعة اللغوية.

- طبيعة الاتفاق على استخدام اللغة.

- بعض كلمات اللغة ليست عرفية.

سابعاً - اللغات متشابهة:

- لغات العالم كثيرة.
- بعض وجوه الشبه بين لغات العالم.
- بعض وجوه الخلاف بين لغات العالم.

أسئلة على الوحدة الأولى

أمثلة محلولة :

١. ماذا يعني أرسطو بقوله: إن الإنسان حيوان ناطق.

(أ) حيوان ينتج أصواتا فقط.

(ب) حيوان يفكر فقط.

(ج)حيوان ينتج أصواتا ويفكر معاً.

الحل: (ج)

٢. اللغة خاصة إنسانية بسبب..

(أ) درجة ذكاء الإنسان العالية.

(ب) لدى الإنسان مركز بالمخ مسئول عن إنتاج الكلام واستقباله وتفسيره.

الحل:

(ب)

٣. (اللغة مركب من وحدات)...

هل يمكن تقسيم زقزقة العصفور إلى وحدات؟

الحل: (لا)

أجب عما يلي:

٤. (حين يجوع الإنسان يصوت قائلاً: أنا جائع، هات الطعام):

(أ) أصوات الإنسان السابقة رد فعل مباشر للإحساس بالجوع (لا)

(ب)أصوات الإنسان السابقة رد فعل غير مباشر ( )

ضع علامة (√) أو (×) بين القوسين.

٥. أجب بلا أو نعم:

(أ) هل يمكن للحيوان أن يعبر عن حدث وقع في الماضي؟ (×)

(ب) هل لدى الحيوان قدرة على التعبير عن حدث مستقبل؟ (×)

٦. أجب بلا أو نعم :

هل تتغير أصوات الحيوان من وقت إلي وقت ومن مكان إلى مكان؟ (×)

٧. ضع العلامة (√) أو (×) بين القوسين:

(أ) الإنسان قادر علي إنتاج جمل لم يسمعها من قبل (√)

(ب) الإنسان قادر فحسب على إنتاج الجمل التي سمعها من قبل (×)

٨. (يكتسب الطفل اللغة كما يتعلم قواعد الجمع والطرح والضرب والقسمة) (×)

أجب بلا أو نعم.

٩. يكتسب الطفل لغته متى وجد في بيئة تتكلم) (√)

أجب بلا أو نعم

١٠. يخضع الطفل لتدريب منظم متواصل على النطق. (√)

أجب بلا أو نعم

١١. (ما يسمى أعضاء النطق عند الإنسان للنطق فحسب) (×)

أجب بلا أو نعم

١٢. ما الاعتبارات التي تصنف وفقاً لها الأصوات الصامتة:

(أ) [illegible]..........................

(ب) [illegible]..........................

(ج) ....

١٣. ضع العلامة (√) أو (×) بين القوسين:

(أ) اللغة نظام من وحدات مستقلة بعضها عن بعض ( )

(ب) اللغة نظام من وحدات متعالقة باطراد (✓)

(ج) اللغة نظام من وحدات غير مطردة ( )

١٤. ضع العلامة (√) أو (×):

(أ) عدد الصوائت أو الحركات في اللغة العربية ألف المد وياء المد وواو المد ( )

(ب) عدد الصوائت أو الحركات في اللغة العربية ستة ( )

١٥. (لا يسمح النظام الصوتي في العربية بأن تشبه وحدة صوتية وحدة أخرى في كل الصفات.

أجب بلا أو نعم.

١٦. ضع العلامة (√) أو (×) بين القوسين:

(أ) اللغة العربية اشتقاقية فقط ( )

(ب) اللغة العربية لصقية ( )

(ج) اللغة العربية اشتقاقية تعرف اللصق (✓)

١٧. (العلاقة بين الوحدات الآتية: السيارة، القطار، الكتابة في (الجمل)

السيارة مسرعة، القطار قادم، الكتاب يفيد.

(أ) علاقة أفقية ( )

(ب) علاقة رأسية ( )

ضع العلامة (√) أو (×)

١٨. (الرتبة بين المضاف والمضاف إليه في اللغة العربية).

(أ) محفوظة (/)

(ب) حرة ( )

١٩. أجب عما يأتي بلا أو نعم:

(أ) الفتحة والضمة والكسرة أحوال إعرابية في النظام الإعرابي في اللغة العربية (/)

(ب) الرفع والنصب والجر علامات في النظام الإعرابي للغة العربية (×)

(جـ) الفاعل والمفعول والحال مواقع إعرابية (/)

٢٠. ضع علامة (√) أو (×) بين القوسين:

(أ) (الرمز لا يتطلب وجود مرسل أو مستقبل (×)

(ب) لا بد من وجود نية للاتصال عند المتكلم ووعي بعملية الاتصال (√)

(ج) "يحمر الوجه خجلاً" أيعد هذا اتصالاً رمزياً؟ (×)

(د) يصلح متكلم واحد ليكون ممثلاً لجماعة لغوية (√)

(هـ) بين كل لغات العالم قدر مشترك من الأصوات (√)

(و) يختلف النظام الفونولوجي بين اللغات اختلافا كبيرا (√)



الوحدة الثانية
اللغة فى المجتمع

الهدف:

تهدف هذه الوحدة إلى التعرف على وظيفة اللغة من حيث هي تعبير عن أفكار ومشاعر، وتوصيل لها إلى المتلقين، وتأثير بها عليهم، مع الاهتمام بوظيفتها الاجتماعية للتفاهم بين أفراد المجتمع وقضاء مصالحهم.

ولأهمية علاقتها بالمجتمع فإن هذه الوحدة تهدف إلى بيان علاقتها بالجنس والقومية.

الوحدة الثانية

اللغــة فى المجتمــع

وظيفة اللغة:

ناقشنا في البحث السابق بعض الآراء التي تتصل بعلاقة الألفاظ بالأشياء أو التجارب التي تعبر عنها وهي العلاقة التي ينبني على تحديد طبيعتها تعريف المعنى.

وبعد أن اتضح ذلك يحق لنا أن نسأل لماذا نتكلم ؟ أو بعبارة أخرى ما وظيفة اللغة ؟

يلخص أولمان وظائف اللغة بقوله : الكلام معبر وموصل ومؤثر، فالكلام معبر لأنه يعبر عن أفكارنا ومعارفنا، وموصل، لأنه ينقل أفكارنا ومعارفنا إلى الغير، ومؤثر لأنه أداة نستخدمها للتأثير في الغير .

والقول الذي يقصر وظيفة اللغة على أنها أداة للتعبير عن الأفكار والعواطف ونقلها إلى الغير يحتاج إلى نظر، فهذه الوظائف هي بالفعل من وظائف اللغة، ولكنها ليست وحدها، فهناك وظائف أخرى جديرة بالاعتبار ومن الخطأ إغفالها عند الحديث عن وظيفة اللغة .

ولنبدأ أولا بمناقشة آراء القائلين بأن اللغة أداة للتعبير عن الأفكار والعواطف يقول (هرمان بول) : إن الوظيفة الأصلية للغة أن تكون أولا وقبل كل شيء وسيلة لنقل العواطف والمعلومات أو سواهما من الأمور .

ويقول (سابير) : اللغة وسيلة إنسانية صرفة – غير غريزية لنقل الأفكار والعواطف والرغبات بطريق نظام من الرموز الصادرة اختيارا عن الإنسان .

واللغويون الذين يقولون بذلك يشايعون علماء المنطق والفلاسفة الذين يحصرون همهم في اللغة باعتبارها وسيلة للتعبير عن الأفكار، والأفكار – كما

هو معروف – موضوع دراستهم .

ومن هؤلاء (جيوفنز) الذي يحدد أغراض اللغة في أمور ثلاثة :

١- كونها وسيلة للتفاهم .

٢- كونها أداة صناعية تساعد علي التفكير .

٣- كونها أداة لتسجيل الأفكار والرجوع إليها .

وعلاقة اللغة بالفكر علاقة قوية، فوجود اللغة ضروري لإمكان التفكير، وعلى الرغم من أن بعض البحوث الحديثة تشير إلي وجود تفكير مجرد لا يعتمد على اللغة فإن بحوثا أخرى قد انتهت إلى أن للغة تأثيرا كبيرا علي الطريقة التي يفكر بها أفراد المجتمع الذي يستخدم تلك اللغة .

ويبدو أن الأسلم هو القول بأن اللغة والفكر يعتمد كل منهما علي الآخر إلي حد كبير، فنحن لا نستطيع أن نفكر أبعد من قدرتنا اللغوية كما أننا لا نستطيع أن ننطق بما لا نستطيع التفكير فيه .

وعلي هذا فنحن نسلم لهم بأن اللغة أداة للتعبير عن الأفكار والعواطف ونقلها، ولكننا لا نسلم بأن هذه هي وظيفتها الوحيدة .

إن استعمال اللغة للتعبير والتوصيل – كما يقول (جسبرسن) – لا يمكن أن يتحقق للسواد العام من الناس، فالذين يستطيعون التفكير المنظم قليلون جدا بالقياس إلي غيرهم من بني البشر، كما أنهم لا يقضون حياتهم كلها في تفكير علمي دقيق وهم – ولا شك – بشر يخضعون للظروف التي يخضع لها كافة البشر.

والقائلون بأن اللغة أداة للتعبير والتوصيل يتغاضون عن الوظيفة الاجتماعية للغة، وهذه الوظيفة كانت موضع عناية بالغة من المدرسة الاجتماعية التي تري أن اللغة ظاهرة اجتماعية، وأداة لقضاء الحاجات .

ليست اللغة في كل الأحوال أداة للتعبير والتوصيل، فقد تكون في كثير من

الأحيان استجابة لنزعة الإنسان الفطرية في أن يثبت وجوده الاجتماعي .

وأوضح الأمثلة على ذلك لغة التحيات وألفاظ التجمل والتلطف التي تشبع في المناسبات الاجتماعية .

فعندما تلقى تحية الصباح علي مجموعة من زملائك يجلسون في انتظار محاضراتهم لا تعني من تحيتك معناها الحرفي، بل تبغي من ورائها أن تنضم إليهم وتشاركهم مجلسهم .

وحين تجلس في قطار في سفر طويل، وتقول لجارك : الجو حار اليوم : أليس كذلك؟ لا تبغي أن تخبره بحرارة الجو أو تطلب رأيه فيه، إنك لا تبغي إلا إنشاء علاقة اجتماعية، وتلبية حاجة ملحة لهذه العلاقة .

ولو تعطلت سيارتك في الطريق الزراعي، واحتجت إلي من يعينك في إصلاحها ووجدت جماعة من الفلاحين مشغولين في حقولهم، فماذا تفعل لدعوتهم إلي مساعدتك ؟ هل تتوجه إليهم بطلب المساعدة مباشرة أم تتجمل في الطلب وتسبق بالتحية المناسبة، إنها في هذا الموقف أداة لقضاء مصلحة أو تحقيق غرض .

إن اللغة في هذه المواقف وأشباهها ليست إلا وسيلة لخلق العلاقات الاجتماعية وتوثيقها أو تلبية رغبة البشر في الاجتماع الإنساني .

والعلاقة بين اللغة والموقف الذي يقال فيه يؤكد الوظيفة الاجتماعية للغة. فلو دخلت علي مجموعة من الأصدقاء يجلسون في مقصف الكلية وقلت لهم " العواف " مثلا لسخروا منك وهزئوا بك، لأن هذه التحية ليست مناسبة لهذا الموقف وليست ملائمة لهؤلاء الأشخاص.

ولو كنت من أبناء الريف مثلا وأردت أن تودعهم عند سفرك وقلت لهم : "باي باي" لأنكروا ما تقول إنكارا شديدا .

وربما كانت كلمة " ابن حرام " كلمة قاسية حين يقصد بها معناها الحرفي،

ولكنها قد تقال في بعض المواقف للإعجاب بعمل يقول به شخص يتمتع بذكاء كبير أو بقوة عظيمة .

وقد تثير كلمة (ابن أمه) ثائرة الكثيرين منا ويري فيها عيبا لا ينبغي أن يتصف به على حين أن معناها الحرفي لا غبار عليه، وهي تعبير عن علاقة طبيعية .

إن هذه الأمثلة – وغيرها كثير – تؤكد ما أعلنه (مالينوفسكي) من أن دراسة أي لغة لابد أن تسبقها دراسة لأوجه النشاط العامة للمجتمع الذي يستخدم هذه اللغة، إن اللغة ليست في الواقع إلا جزءا من هذا النشاط وطريقا من طرق السلوك .

وهناك وظائف أخرى للغة نوجزها فيما يأتي :

- قد تكون اللغة وسيلة للهو والتسلية، فكثيرا ما نري الأطفال يستخدمونها في ألعابهم بل كثيرا ما نراهم يستخدمون ألفاظا لا معنى لها أو يبتكرون ألفاظا أخرى، وليس هذا مقصورا على الأطفال بل إن كثيرا من المفكرين والفلاسفة قد يرسلون القول إرسالا .
- وتستعمل اللغة كذلك في إقامة الشعائر الدينية، وغيرها من المناسبات الاجتماعية التي ترتبط بالدين. إن مثل هذه اللغة لا تستخدم في الغالب للتعبير أو التوصيل، بل هي في الواقع محاولة لإقامة علاقة بين الإنسان وربه، وهي كذلك تعبير عن انتماء الفرد إلى جماعة دينية معينة فمن يقول "بسم الله الرحمن الرحيم" مثلا أو يقول "السلام عليكم" ينتمي إلى مجتمع إسلامي علي حين أن من ينتمي إلى مجتمع مسيحي يقول : "باسم الرب" ويقول : "سعيدة" .
- واللغة تستخدم كذلك في التأثير على الغير، إن الخطباء والصحفيين ورجال الإعلام وغيرهم ممن ترتبط أعمالهم أو تتصل حياتهم بالاتصال

بالناس يستخدمون اللغة للتأثير في السامعين أو القراء، ودعوتهم إلى الاقتناع برأي سياسي أو دعوة اجتماعية وقد تكون أداة لدفعهم لشراء سلعة أو الإسهام في مشروع أو الامتناع عن عمل .. إلخ.

- وتستعمل اللغة في التعبير عن المشاعر من حزن وسعادة، وحب وكراهية ... إلخ. إن اللغة في هذه الحالات وسيلة للتنفيس عما بداخل النفوس، وقد يقتصر دورها على هذا، وقد تكون دعوة إلى إشراك الغير في نفس الحالة، ويتمثل هذا في بعض الأعمال الأدبية من شعر أو نثر .

- واللغة هي الوعاء الذي يحفظ تجارب الأمة وثقافتها وتراثها وهي الوسيلة التي يتم عن طريقها نقل هذا التراث من جيل إلى جيل، وتمثل اللغة المكتوبة دورا كبيرا في حفظ هذا التراث .

إننا لا نعيش الحاضر بوجدان معاصر فحسب، بل نعيش فيه بجزء من ماضي المجتمع الذي ننتمي إليه، بجزء من تاريخه وثقافته وتجاربه. ذلك الجزء الذي يحيا في نفوسنا بفضل هذه الأداة الخطيرة : الكتابة. إن الشعوب التي لم تكتشف هذه الأداة ولم تستخدمها قد فقدت جزءا كبيرا من تاريخها وتراثها .

- وقد أشرنا سابقا إلى استخدام التحيات للتقرب من الغير ودعوته إلى مساعدتنا، ونشير هنا إلى استخدام اللغة في السيطرة على الغير وتوجيههم لتحقيق مصالحنا، كما أنها أيضا أداة للغير في السيطرة علينا وتحقيق مصالحهم، إن التعاون بين البشر لا يتحقق بصورة فعالة دون استخدام اللغة، ولهذا كانت هذه الوظيفة من أهم وظائف اللغة إن لم تكن أهمها .

ولعل ما سبق ذكره يصل بنا إلى هدفنا من هذا الحديث وهو أن اللغة أداة متعددة الأغراض، وإن كانت وظيفتها الأساسية هي تحقيق التعاون بين البشر. وليس من الإنصاف في شيء أن يدعي البعض أنها فحسب وسيلة للتعبير عن الأفكار والعواطف ونقلها إلى الغير.

اللغــة والمجتمـــع

يكتسب الطفل لغته من مجتمعه الذي يعيش فيه، ومنذ ولادته حتى وفاته يصير عضوا في هذا المجتمع، وقد يكون عضوا في مجتمع آخر. وبعد أسابيع قليلة من ولادته يبدأ في الصياح لتقضى له حاجة من حاجاته أو تشبع رغبة من رغباته، وبعد شهور يكتشف عالم الأشياء والأسماء ويدرك أن لكل شيء اسما، وأن قضاء حاجاته العملية أو الاشتهائية يتصل اتصالا وثيقا باللغة. ويستمر هذا الاتصال ممتدا في حياته طفلا في البيت أو تلميذا في المدرسة أو طالبا في الجامعة أو عاملا في مصنع ... أو في غير ذلك من الهيئات. وعضويته الفعالة في هذا المجتمعات ترتبط بقدرته علي الاتصال وسيطرته علي اللغة آلتي هي أعقد أدوات الاتصال وأغناها. ولهذا كان اكتساب الفرد للغة عملية ممتدة امتداد حياته، أو قل إنها عملية نمو متصل. وهذه العملية تتوقف على عوامل كثيرة بعضها يرجع إلى طبيعة الفرد نفسها وبعضها يرجع إلى طبيعة الجماعات أو المؤسسات التي يكون عضوا فيها .

والمجتمع حريص أشد الحرص علي أن يجعل الفرد عضوا فيه، وأن يصبغ هذا الفرد في فكره وفي سلوكه بصبغته. واللغة هي الأداة التي يستخدمها المجتمع لتحقيق هذا الهدف، ومن الواضح أن المجتمع بكل أشكاله يقوم بهذا الدور فالبيت والمدرسة والنادي والمصنع والمتجر ... ما هي إلا بيئات يتلقى فيها الفرد أنماط السلوك وقواعد اللغة. وبهذه الطريقة يكتسب الفرد شخصيته الاجتماعية فيكون عضوا فعالا، كما يكتسب لغته فيتحدث بها وفقا لعرف الجماعة التي ينتمي إليها .

ويدفع الفرد إلى اكتساب لغته وإلى تنميتها نوعان من الدوافع : الدوافع التعاملية، والدوافع التنفيسية .

يقول لويس : إن ملاحظة الطفل ومراعاة الاستعمال اليومي للغة في المجتمع لتوضح أن الدافعين التعاملي والتنفيسي توأمان يتم بهما تطور اللغة عند

الطفل ويظلان الوظيفتين الجوهريتين للغة في المجتمع .

وتخدم الوظيفة التعاملية في أكثر صورها تطورا ما يمكن أن يسمي النشاط العملي للمجتمع في عمومه ولأعضائه فرادي، ومدي هذا النشاط واسع جدا، فهو يشمل العمل اليومي المباشر من أجل تحقيق الحاجات الاقتصادية كما يشمل التنظيم السياسي للجماعة للمحافظة على شخصيتها في عالم تسود فيه الحروب، ويشمل أيضا التطبيق العملي للسيطرة على العالم المادي، ويستطيع الفرد بواسطة اللغة أن يستعين بإمكانيات المجتمع من أجل تحقيق هذه الأهداف، كما تستطيع الجماعة بها أن تنظم سلوك الأعضاء من أفرادها .

أما الوظيفة التنفيسية فتمتد عند نموها الكامل من المحادثة اليومية إلى أعلى مستوى من التفاهم والتعبير الجميلين ... وتبدو الأشكال العليا للوظيفة التنفيسية في التعبير الجمالي فكل الفن الأدبي تنفيس طالما حركته الدوافع الجمالية كالشعر والقصة والمقالات والدراما .. وفي كل المراحل الراقية للوظيفة التنفيسية تؤثر اللغة في خلق شركة في الفكر أو في الإحساس أو في كليهما أكثر مما تؤثر في تنظيم الجماعة من أجل العمل فيما يخص البيئة الطبيعية أو الاجتماعية .

اللغة والسلوك الجماعي :

حين يتركز التفكير حول الذات يكون تفكيرا فرديا، هذا التفكير هو ما يطلق عليه الكلام الداخلي، ولكن عندما يفكر الفرد مع غيره يكون التفكير جمعيا، هذا التفكير هو ما يطلق عليه الكلام الخارجي أو اللغة، ويأتي هذا التفكير مصطبغا بصبغة الجماعة التي تشترك فيه. فاللغة إذن هي وسيلة التفكير الجماعي أو السلوك الجماعي علي اعتبار أن التفكير أو النشاط ما هو إلا سلوك.

والسلوك الجماعي الذي يحدده تفكير الجماعة عن طريق اللغة يحقق وظائف أربعة هي: تذكر التجارب الماضية، والشعور بالبيئة الحاضرة المباشرة، وتوقع الأحداث المستقبلة والتخطيط لها، والتوجه العملي المباشر .

أما التذكر فيتمثل في استحضار الأحداث والتجارب الماضية للمجتمع وما يتصل بها من تقاليد وأعراف، ويظهر هذا في صورة أساطير أو خرافات وهو ما يشيع في المجتمعات البدائية، أما المجتمعات الحديثة فيلعب التذكر دورا أكبر ويتمثل في صور أكثر ثباتا، وقد يسرت الكتابة لهذه المجتمعات أن تحتفظ بتاريخها وتراثها الذي يتمثل في تقاليدها وأعرافها وفنونها مسجلا لا تنال منه الأيام أو السنون، وقد ظهرت وسائل أكثر دقة تقوم بهذا العمل مثل أجهزة تسجيل الصوت والصورة .

والشعور بالبيئة يرتبط بالأحداث والتجارب الماضية كما يرتبط أيضا بالأحداث والتجارب التي يقابلها المجتمع في حياته المعاصرة .

وتوقع الأحداث والتخطيط لها ربما يكون لهما دور أقل أهمية في المجتمعات البدائية ولكن لهما دور بالغ الأهمية في المجتمعات الحديثة، ويكفي أن نشير إلى هذا الدور في تنظيم الحرب أو النشاط السياسي أو الاقتصادي، ولتتخيل معي اجتماعا عسكريا للإعداد للحرب، أو مؤتمرا سياسيا لمناقشة مسألة دستورية، أو اجتماعا في مصنع لمناقشة مشكلة تتصل بالإنتاج، إن هذا كله لا يتم إلا في إطار اللغة التي تحقق الاتصال المنشود .

أما الوظيفة الرابعة وهي التوجيه العملي فتتعلق بالنشاط أو السلوك الذي يشترك فيه أعضاء الجماعة ليحصلوا على نتيجة عملية ذات أهمية حيوية بالنسبة لهم .

ولتتخيل معي ماذا يقول ضابط لجنوده عند الإعداد لاحتلال موقع أو ماذا يقول رئيس العمال لعماله عند إنجاز مهمة معينة .. إلخ .

إن اللغة – في المجتمعات الحديثة وثيقة الصلة بكل أشكال السلوك الجماعي، ويتمثل هذا على السواء عند استحضار تاريخ هذا المجتمع أو تجاربه الماضية أو عند الاتصال المباشر بالأحداث أو التجارب اليومية أو عند التخطيط لأحداث مستقبله أو عند مباشرة العمل وتوجيه القائمين به .

يقول لويس: " إن السلوك الجماعي الإنساني – كما نعرفه اليوم – إنما يكون في العادة – إن لم يكن دائما – في وسط من الاتصال الرمزي (أي الاتصال اللغوي أساسا) الذي هو وسيلة تستطيع الجماعة بها أن تنظم سلوكها في ضوء ذكريات الماضي غالبا، وبعبارة أخرى يصبح الاتصال الرمزي وسيلة تستطيع بها الجماعة أن تراقب سلوكها ووسيلة تكون الجماعة بها عقلا جماعية .

وسوف نناقش في هذا الباب بعض القضايا العامة التي ترمي إلى توضيح العلاقة بين اللغة والمجتمع .

لغة الحديث ولغة الكتابة

قلنا عند الحديث عن وظيفة اللغة: إنها أداة للاتصال بين أفراد المجتمع اللغوي المعين، ويتحقق هذا الاتصال في شكلين متميزين ، أحدهما: اللغة المنطوقة أو لغة الحديث، والآخر: اللغة المكتوبة أو لغة الكتابة .

وربما كانت اللغة المنطوقة أو لغة الحديث من حيث أدائها لوظيفة الاتصال أهم من لغة الكتابة وأوسع انتشارا، فالإنسان العادي ينتج من الحديث أكثر مما ينتج من المكتوب، كما أن المجتمع اللغوي المعين قد يكون بين أفراده أميون (تتفاوت نسبتهم من مجتمع إلى آخر) لا يستخدمون الكتابة، وهذا هو السبب في أن كثيرا من علماء اللغة المعاصرين يعطون اهتماما كبيرا للغة المنطوقة ويعدونها الشكل الأساسي على حين يوجهون إلى اللغة المكتوبة اهتماما أقل، ويعدونها ثانوية .

ويرجع هذا الاهتمام إلى بداية القرن الحالي، وقبل ذلك كانت لغة الكتابة تحظي بكل الاهتمام. وكان مرجع ذلك إلى أنها تفضل اللغة المنطوقة بميزتين ظاهرتين : أولاهما أن اللغة المكتوبة تنتقل من مكان إلى آخر وعبر مسافات بعيدة، والثانية أنها تكاد تكون ثابتة لا تتعرض للتغير المستمر الذي يصيب اللغة المتحدثة، ولهذا أمكن تسجيلها ونقلها عبر أجيال متعاقبة من البشر، وأصبحت

شكلا يمكن أن يتعلمه أفراد المجتمع المعين، على حين لم يتوفر للغة الحديث الظروف التي تثبتها على حال معينة تسمح بتسجيلها .

وقد فشلت كثير من الجهود التي حاولت تسجيل لغة الحديث في أشكال مكتوبة، (فقد فشلت مثلا المحاولات التي كانت ترمى إلى استخدام الحروف العربية في تسجيل العامية المصرية، كما فشلت كذلك محاولات بعض كتاب الرواية الإنجليزية في تسجيل لهجة لانكشير)، غير أن تطور الأجهزة التي تسجل الأصوات وتنقلها من مكان إلى آخر (المسجل، التليفون، الراديو، التليفزيون) وانتشار هذه الأجهزة بين الناس ورخص ثمنها جعل من الممكن تسجيل لغة الحديث وانتقالها من مكان إلى آخر عبر مسافات بعيدة. ومع ذلك فلا يزال للغة الكتابة أهمية كبيرة وبخاصة في المجتمعات التي تنتشر فيها الأمية على اعتبار أنها أكثر الأشكال اللغوية وفاء بتحقيق المراد في بعض الحالات .

اللغة المنطوقة أسبق وجودا من اللغة المكتوبة :

قد نختلف أحيانا في النطق الصحيح لكلمة من الكلمات، وقد نحتكم في ذلك إلى النصوص المكتوبة التي تهدينا إلى الصواب، وقد يفهم البعض أن ذلك يعني أن اللغة المكتوبة هي الأساس، وهذا غير صحيح لأمرين :

- **أولهما :** لقد ثبت تاريخيا أن الإنسان استخدم اللغة المنطوقة أولا، ثم اخترع الكتابة بعد ذلك، ويؤكد هذا أن في العالم اليوم مئات من اللغات المنطوقة لم يتوفر لها شكل كتابي حتى اليوم.
- **ثانيهما :** أننا نكتسب اللغة المنطوقة أولا من المجتمع الذي ننتسب إليه، ولا محيص عن اكتسابها ما دام الطفل يعيش في مجتمع لغوي، أما الكتابة فنتعلمها بعد أن نستوفي اللغة المنطوقة تماما ونتعلمها في المدرسة وفقا لمنهج مخطط .

خواص لغة الحديث ولغة الكتابة :

(أ) من حيث الشكل :

من الواضح أن لغة الكتابة موحدة ومتجانسة على حين نجد أن لغة الحديث

متنوعة وغير متجانسة يقول (نيدا) : إن كتابة اللغة تجعلها أكثر انتظاما .. لأن الكتابة تدخل عنصرا واعيا في عملية الاتصال .

إننا – في العالم العربى مثلا - نكتب بشكل واحد تقريبا على حين نتكلم لهجات مختلفة، بل إننا فى القطر الواحد نجد اختلافات لهجية نتيجة اختلاف المناطق الجغرافية أو الطبقات الاجتماعية.

وقد تكون الفروق بين لغة الحديث ولغة الكتابة قليلة لا تستحق الاهتمام ولا تؤثر فى التفاهم بين أفراد المجتمع اللغوي الواحد. وقد تكون كبيرة تستأهل الاهتمام وتؤثر في التفاهم، وهنا ينشأ ما يطلق عليه الثنائية digloesia والثنائية موجودة في لغات كثيرة فهى موجودة فى الألمانية واليونانية والعربية، ويعاني المتكلمون بالعربية من هذه الثنائية فهم على اختلاف أقطارهم يستخدمون في الحديث لغة لا يكتبونها، ويستخدمون في الكتابة لغة لا ينطقونها إلا نادرا، ويطلق علي الشكل الأول (العامية) منسوبة إلى قطر بعينه فيقال: العامية المصرية أو العراقية .. إلخ، ويطلق على الشكل الثانى (الفصحى) بإطلاق.

(ب) من حيث الوظيفة:

من المقرر أن لغة الحديث تفي بأغراض لا تصلح لها لغة الكتابة فهي لغة الحياة اليومية: لغة البيع والشراء حين نذهب إلى السوق، لغة المقابلات حين نتقابل في الشارع أو فى المنتديات وعندما نجلس للثرثرة .. إلخ. وهي اللغة التي يتلقاها الطفل من أمه ومن أقرانه فى بيئته.

أما لغة الكتابة فتصلح لأغراض أخرى فهي أداة المفكرين والعلماء حين يؤلفون، وهي لغة الأدباء حين ينتجون، ... إلخ. وهي اللغة التي يتلقاها التلميذ في مدرسته ويتعلم قواعدها من أساتذته .

(جـ) من حيث الخصائص اللغوية :

لا شك أن لغة الحديث لها خصائص لغوية تختلف عن لغة الكتابة، وقد أوجز (فندريس) الفرق بين الشكلين بقوله: إن لغة الحديث في الغالب لغة

انفعالية ولغة الكتابة في الغالب منطقية .

ولا يعنى هذا أن لغة الحديث غير منطقية وأن لغة الكتابة غير انفعالية فكل شكل منهما يتضمن عناصر منطقية وانفعالية .

وعلى سبيل المثال حين تقابل صديقا لم تتوقع رؤيته فقد تقول له مندهشا: أنت ! هنا!، أو عندما ترى حادثا مؤلما يصيب شخصا فتصيح راثيا لحاله يا عيني، ولكنك حين تريد التعبير عن هذين الموقفين كتابة فقد تقول : يدهشني أن أراك هنا، أو نحو ذلك، وقد تقول: أرثى لهذا المسكين أو نحو ذلك. ولعلك قد لاحظت أن لغة الحديث في الموقفين السابقين أحفل بالعناصر الانفعالية من لغة الكتابة .

واللغة الإنسانية تحفل بعناصر محددة أقدر من غيرها علي التعبير عن عاطفة المتكلم وأقدر علي التأثير في السامع (ومثال ذلك في العربية أسلوب التعجب وأسلوب القصر وأسلوب الاختصاص وأسلوب الطلب ... إلخ) .

انظر مثلا إلى ما يطلق عليه في العربية اسم الفعل من نحو أوه وأف ... إلخ .

إن هذه الأشكال تحمل شحنة عاطفية عظيمة تجعلها ذات تأثير كبير على السامع.

والفرق واضح بين هذه الأشكال وما يساويها في المعني من أشكال أخرى وتأمل معي حين يتألم شخص فيقول : أوه ! وكيف يؤثر علي سامعه، وحين يتألم آخر ويقول : أتوجع، وكيف يترك سامعه حائرا فيما أصابه أو فيما يعنيه .

يقول (نيدا): يستلزم الأسلوب المكتوب جهدا أكثر وعيا من الأسلوب المنطوق، ومن ثم يعطي اهتماما أكبر إلى التخلص من الأخطاء، والتوسع في خصائصه الشكلية وتزويقها.

وقد تنتشر كلمات معينة في لغة الحديث حتى تكاد تختص به، وأظهر ما يكون ذلك فى الكلمات المترادفة حيث يستخدم لفظ منها غالبا في الكتابة ويستخدم لفظ آخر غالبا في لغة الحديث.

لغة الكتابة		لغة الحديث	
جواد	(شعرية)	حصان	(عامة)
منزل	(شعرية)	بيت	(عامة)
فؤاد	(شعرية)	قلب	(عامة)
		ألب	(عامة)
خبز		عيش	(عامة)
إبل		جمال	(عامة)
يقذف		يرمي	(عامة)
		يحدف	(عامية)
سائل	(قرآنية)	شحات	(عامية)
شحاذ			

وفي هذا المجال يلاحظ (نيدا) أن الأسلوب المكتوب يتجه إلي أن يتحاشى بعض الأشكال العامية كالمفردات التي يوحي لفظ صوتها بمعناه (مثل آه وأوه ...) كما يتجه إلى أن يتجنب أسلوب المحادثة المباشرة إلى الأسلوب غير المباشر .

وقد يغلب في لغة الحديث تأليف كلمات الجملة على نحو معين على حين يشيع في لغة الكتابة تأليف آخر. فالمألوف في لغة الحديث العربية تقديم المسند إليه على المسند الفعلي فيقال: محمد كتب، علي حين يغلب في لغة الكتابة تقديم المسند الفعلي علي المسند إليه فيقال: كتب محمد. ويمكن مخالفة هذا الترتيب، ولكن ذلك سيكون لمقتضى، والقاعدة العامة لذلك هي أن إبراز كلمة من الكلمات بشكل غير معهود يرمى إلى توجيه اهتمام السامع إليها، وهي في نفس الوقت تعبر عن اهتمام المتكلم بها .

ففي العربية مثلا يقال : دخل المدرس مبتسما، ومبتسما دخل المدرس والجملتان تتضمنان نفس الكلمات التي تقوم بنفس الوظائف في الجملتين (فعل + فاعل + حال) .

ولكن كل جملة منهما صالحة لموقف دون موقف، ولا شك أن الجملة الثانية التي تخالف الترتيب المألوف الذي يتمثل في الجملة الأولى أقرب إلى الموقف الذي يراد فيه توجيه الاهتمام إلى الحالة التي جاء عليها المدرس .

وفي لغة الحديث عناصر صوتية مصاحبة للكلمات تمنحها قوة وحيوية وروحا، هذه العناصر هي تنغيم الصوت أو نبر الكلمات أو سرعة الأداء أو بطئه. وأي جملة من الجمل تحفل بعشرات من صور الاختلاف في النبر أو التنغيم أو سرعة الأداء وهي صور تقابل ألوانا مختلفة من العواطف. وعلى ذلك فالجملة المكتوبة أقل قدرة على التعبير العاطفي من الجملة المنطوقة التي ينفخ فيها المتكلم الحياة بفعل هذه العناصر الصوتية .

وإليك بعض الأمثلة التي تكشف عن الدور الذي تمثله هذه العناصر الصوتية في لغة الحديث وتكشف أيضا عن عجز اللغة المكتوبة عن أداء هذا الدور .

انظر مثلا حين تقول لصديق لك : المشوار طويل ، فتطيل من مدة الواو، فكأنك تريد بمدها الإيحاء بطول المشوار .

وانظر حين تقول : السؤال صعب، فتضغط على عين الكلمة الأخيرة فكأنك بهذا توحى إلى السامع بأنه بالغ الصعوبة. ولا تستطيع الكتابة أن تعبر عن هذا المعنى أو ذاك .

وحين يقول قائل : إنها جميلة جدا؛ بنغمة معينة يعني تقرير واقع وهو جمال الفتاة التي يتحدث عنها، ولكن حين يقولها بنغمة أخرى، قد يعنى أنها ليست جميلة أبدا. وقد يعني أنها جميلة حقا ولكنها ليست ذكية، والأمر كذلك حين نصف فتاة ونقول: إنها ذكية جدا قد نعنى - إذا ما قلنا الجملة السابقة بنغمة معينة - أنها ليست جميلة .

وقد تتأدب مع شخص يتكلم بصوت عال وتقول له :

آسف جدا إذ أقاطعك (ألا يكون جميلا منك أن تخفض صوتك قليلا). بنغمة معينة فتعني ما تقول حقا، وبنغمة أخرى فتوبخه وتهزأ به .

وقد تقول لصديق: " لا أريد قهوة " بنغمة معينة فيفهم أنك تريد شايا وهو ما تريده حقا.

وقد يستخدم المتكلم التنغيم ليجعل السامع يذهب في تفسير المراد مذاهب، قد يقول قائل:

إنها جميلة جدا ولكن ... وينغم الكلمة جدا بنغمة خاصة ويقف علي الكلمة (لكن) وقفة مميزة فيوحي إلي المتكلم بما يريد .

وقد تكون النغمة وحدها هي الأساس في التمييز بين الإخبار والاستفهام فحين نقول مثلا : ظهر الحق، بنغمة هابطة تكون إخبارا، وبنغمة صاعدة تكون استفهاما .

وهكذا يبدو لنا الدور الكبير الذي تقوم به العناصر الصوتية المصاحبة للحديث من أدوار بالغة الأهمية في التعبير عن مشاعرنا ومقاصدنا. ولا شك أن الموقف وما يحيط بالكلام من عناصر غير لغوية يعين في تحديد المقاصد السابقة، وإن كانت العناصر الصوتية المصاحبة للحديث تقوم بالدور الأكبر .

وقد بذلت جهود كبيرة لكي تقوم الكتابة بما تقوم به العناصر الصوتية المصاحبة للحديث فوضعت علامات الترقيم المختلفة كالنقطة والفصلة والشرطة وعلامة التعجب والاستفهام ... إلخ وقد نجحت هذه العلامات جزئيا .

والأدباء المبدعون يحاولون دائما أن يجعلوا الشكل المكتوب من اللغة يوصل نفس الرسالة الأصلية التي ينقلها الشكل الكلامي المطابق له، ولذلك يستخدمون المفردات التي تنبض بالحياة، ويكثرون من استخدام الصفات ليزيد من فعالية الكلمات، ويكثرون أيضا من استخدام الأفعال بحيث يوحون بفيض

الحركة والحيوية بل ويعمدون كثيرا إلى استخدام المحسنات البديعية كالجناس والسجع وغيرهما لتكون بديلا عن تلك العناصر الصوتية المصاحبة للكلام المنطوق .

ومن الفروق الملحوظة بين لغة الحديث ولغة الكتابة أن لغة الحديث تتألف من جمل أو أجزاء جمل يتوالى بعضها إثر بعض وفقا لانفعالات المتكلم ودون روابط تربط بعضها ببعض على نحو ما هو معروف في لغة الكتابة. بل إن مفهوم الجملة بالمعني النحوي لا يتحقق في لغة الحديث دائما، فقد يقتصر المتكلم علي بعض الكلمات ويستغني عن كلمات أخرى، فليس ضروريا أن تستوفي الجملة كل عناصرها الضرورية، والمتكلم يعتمد علي العناصر الصوتية كالتنغيم والنبر وطريقة الأداء علي استكمال هذه العناصر، ويعتمد أحيانا علي الإشارة التي تصحب الكلام، وربما يتوقف فهم السامع لما يقول علي عناصر أخرى موجودة في الموقف الذي يدور فيه الحديث مثل مكان الحديث وهوية المشتركين فيه وموضوع الحديث .

ويشير (نيدا) إلى سمة هامة مميزة للغة الكتابة حيث يقول : يبدو الشكل المكتوب في أغلب الأحوال أقل إطنانا من اللغة المنطوقة، فهو يتجه إلي أن يكون أكثر إيجازا ودقة وأكثر اقتصادا، وتتراكم فيه نسبة أقل من المفردات الفائضة التي تتطاير داخله وخارجه في الكلام العامي .

ولنلاحظ معي النص الآتي الذي يمثل لغة أحد سكان مدينة القاهرة:

" وبالطريأة دي يعني. الحمد لله عندنا في مصر يعني . المحبة موجودة والأخلاء وحب الناس لبعضها يحبو يكونوا أريبين من بعض يحبو يتعاونوا يعني واحد مريض يحب يزوره، يعني يكونوا كويسين، يعني طبعا التعلم في بلادنا زاد وده بيخلي طبعا الأولاد يطلعوا متنورين ومتعلمين أكتر وبيتهيأ لي أن التلميذ أحسن من الجاهل وده بيكون يعني كويس وبياخذ طريأة في الحياة وبيتهيأ لي كمان يعني مع علمه ده بيحترم الدولة اللي هو عايش فيها يعني وطنه" .

ونترك لك أن تتعرف من هذا النص علي خصائص لغة الحديث التي أشرنا إليها آنفا، وهل يمكن لعلامات الترقيم أن تقوم بما تقوم به العناصر الصوتية المصاحبة ! ولاحظ معي ما فيه من إطناب حيث تنتشر الكلمة (يعني) بلا موجب غالبا. مع ملاحظة ما يأتي :

١- أن النص السابق يفتقر إلي العناصر الصوتية المصاحبة له من التنغيم والنبر وطريقة الأداء .. إلخ، وهى عناصر لا تنقلها الرموز الكتابية المستخدمة .

٢- صاحب النص قاهري يقيم في حي المنيرة ويعمل بتجارة الورق، وقد سبق له العمل في مطابع مجلة الرسالة، يبلغ من العمر خمسين عاما، وموضوع الحديث " العادات والتقاليد المصرية الشائعة في تربية الأولاد "، وكان النص السابق إجابة عن سؤال عن منهجه في تربية أولاده، وكان الحديث بحضور باحثة أمريكية، وقد تم الحديث في بيته في شتاء عام ١٩٨١.

٣- لا شك أن لغة الحديث تتميز خصائصها وفقا لاعتبارات كثيرة. ليس هنا مجال الحديث عنها. ومن أهمها: المنطقة السكنية التي يقطنها المتحدث، والظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التى يعيش في إطارها، وقد أشرنا آنفا إلى هذه العوامل.

اللغـــة والجنــس

الجنس يراد به عادة قوم من الناس ينحدرون من أصل واحد أو أرومة واحدة، ومن ثم أصبح لهم خصائص معينة مشتركة.

ويصنف علماء الأنثروبولوجيا الجنس البشرى إلى أنواع وفقا للون البشرة على النحو الآتى: الأبيض القوقازي والأصفر المنغولى، والأسود الإثيوبى، والأحمر الأمريكى والأسمر والأصفر المالاوى. ثم يضعون أسسا أخرى للتفريق بين هذه الأنواع هى الهيكل العظمى وشكل الجمجمة وطول وعرض

الأنف ولون العينين، وبروز الفكين وغير ذلك من خصائص الجسم البشري .

وقد تبين أن النتائج التي وصل إليها هؤلاء الباحثون مضطربة وغير مؤكدة، وتبين أيضا أن توزيع الأجناس في العالم تباين تباينا غير متوقع حين وضع في الاعتبار خصائص بدنية معينة : كالقامة والأنف والأعين والبشرة ونحو ذلك. فالأجناس التي حاولوا تمييزها قد تبين للدارسين أنها غير واضحة المعالم وأن أساس تميزها تحكمي .

وقد تقدمت علوم الوراثة تقدما كبيرا وظهرت حقائق بالغة الأهمية فيما يتصل بالجنس، فقد ثبت أن وراثة الدم فكرة خاطئة، فالوراثة تتم عن طريق الجينات في الكروموزومات. فنواة كل خلية من جسم الوليد تتضمن ٢٣ زوجا من الكروموزومات زوج من جهة الأب وزوج من جهة الأم، أي أن الجنين ينحدر إليه ٢٣ من الكروموزومات عن كل من الأبوين، ولكن عدد ما يرثه منهما يختلف باختلاف الوالدين، فما يرثه عن أحدهما قد يكون أقل أو أكثر أو مساويا لما يرثه من الآخر في حدود الثلاثة والعشرين كروموزوما. ومن المحتمل جدا أن يرث عددا من الصفات من الجد الأول أو الثاني أو الثالث أو الرابع .. وتقل هذه الصفات بالنزول إلي الجد الثامن والتاسع حتى نصل إلي الجد السادس عشر حيث تكاد تنعدم الصفات التي تربطه به.

وقد ثبت أيضا من البحوث البيولوجية أن الفرق بين دم الزنجي في أفريقيا ودم الرجل الأبيض فرق طفيف، بل برهنت التحاليل أن فصائل الفريقين متطابقة .

وهكذا يبدو لنا أن الادعاء بأن جنسا من الأجناس قد احتفظ بصفات خاصة عبر آلاف السنين ادعاء يرفضه العلم، وفوق ذلك فقد ثبت أن الشعوب قد اختلط بعضها ببعض اختلاطا لا يتيح لأحد أن يقول بوجود عناصر نقية مميزة لشعب من الشعوب .

وقد وجد هذا التصنيف طريقه إلي بعض علماء اللغة أواخر القرن التاسع

عشر، فقد ربط (ماكس مولر) بين اللغة والجنس، وقسم لغات البشر وفقا للخصائص الجسدية، فهناك لغات الشعوب المجعدة الشعر، وهناك لغات الشعوب الملساء الشعر، وغير ذلك من أقسام. وقد أطلق مولر الصفة Aryan (وهي من الكلمة السنسكريتية arya بمعنى النبيل العريق) على أنواع محددة من البشر وعلى لغاتهم، وهم مجموعة من الشعوب عاشت منذ عهد بعيد في وسط آسيا، وزعم (مولر) أن هذه الشعوب كانت أصل الإنسانية، وينسب إليها صفات مثالية جسدية كالشعر الأملس والرأس الطويل والقوام الطويل .. إلخ، وقد كانت هذه الآراء ذريعة للقول بتميز الجنس الآرى على غيره من شعوب الأرض بهذه المزايا الجسدية وما يترتب عليها – من وجهة نظرهم – من مزايا فكرية ولغوية، وقد تمثلت هذه الأفكار العنصرية فيما دعا إليه النازيون في ألمانيا والفاشيون في إيطاليا من ادعاءات بتميز العناصر الآرية الأوربية وأحقيتها – لما تتميز به من سمو – في استعمار الشعوب الأقل رقيا وتحضرا .

وقريب مما سبق ما يذكره البعض عما أطلقوا عليه الأمم البدائية واللغات البدائية يقول أحدهم: "ففي الأمم البدائية الضعيفة التفكير المنحطة المدارك تغزر الكلمات الدالة على المحسَّات والأمور الجزئية وتنعدم أو تقل الألفاظ الدالة علي المعاني الكلية، وتخلو دلالات المفردات من الدقة والضبط فيكثر فيها الخلط واللبس والإبهام وتخلو القواعد أو تكاد تخلو من ظواهر التصريف والاشتقاق وربط عناصر الجملة والعبارة بعضها ببعض، ويضيق متن اللغة فلا يتسع لأكثر من ضروريات الحياة. ويستشهد على ما ذكره من أن علماء (الأثنوجرافيا) يقررون أن عقليات السكان الأصليين بأمريكا واستراليا وأفريقيا لا تكاد تدرك المعاني الكلية في كثير من مظاهرها وأن هذا القصور العقلي كان له صدى كبير في لغاتهم فلا نكاد نجد في كثير منها لفظا يدل على معنى كلى، ففي لغة الهنود الحمر مثلا يوجد لفظ للدلالة على شجرة البلوط الحمراء وآخر للدلالة علي شجرة البلوط السوداء .. وهكذا ولكن لا يوجد أي لفظ للدلالة على شجرة البلوط، ومن باب أولى لا يوجد أي لفظ للدلالة على الشجرة على العموم.

ثم يقول عن الشعوب الهندية الأوربية : وعلى العكس من ذلك الشعوب الهندية – الأوربية حيث ينشط التفكير ويعمق الإدراك ويدق الحس، وتتجه العقول إلى التأمل الفلسفي، وتميل إلى تفسير ظواهر الكون والمجتمع الإنساني تفسيرا علميا يربطها بأسبابها وقوانينها، ففي هذه الشعوب تكثر في اللغات الألفاظ الدالة على المعانى الكلية والتراكيب المعبرة عن الحقائق العامة، وتغزر أزمنة الأفعال وتطول الجمل وتتعدد أجزاؤها وتتنوع الروابط وتختلف دلالاتها فتتسع للتعبير عن دقيق الوجدان وعميق الإدراك وحقائق الفلسفة والعلوم .

وقد ثبت خطأ الربط بين الجنس واللغة فليست هناك علاقة ضرورية بين الأمرين فاللغة والثقافة والدين عناصر يكتسبها الفرد من نشأته في مجتمع معين، فالطفل الزنجي أو العربي الذي يولد في إنجلترا وينشأ فيها ويعيش بين أبنائها في ظروف طبيعية سوف يتكلم الإنجليزية أو الفرنسية كأحد أبنائها، والعكس أيضا صحيح ويتكلم الإنجليزية والفرنسية اليوم شعوب متباينة كالزنوج الأمريكيين والهنود الحمر والأفريقيين الذين اتخذوا من هاتين اللغتين لغة رسمية، وقد انتشرت العربية بين شعوب متنوعة فقد استخدمت في فارس والهند، كما استخدمت في أفريقيا بين الزنوج. ولهذا ينبغي أن نفصل فصلا واضحا بين الصفات الجسدية لمجموعة من الناس وبين اللغة التي يستخدمونها وينبغى ألا ننساق وراء الدعاوى المضللة التي تقوم بسمو جنس أو لغة علي لغة. وما قد يظهر بين اللغات من تفاوت في الأداء ليس مرجعه إلى خصائص بدنية أو عقلية بل مرجعه إلى عناصر ثقافية وحضارية يمكن تحصيلها.

وقد قررنا من قبل أن اللغة والفكر صنوان، وأن فكر كل أمة ينعكس في لغتها وأن لغتها تعبر عن فكرها، وإذا كان ثمة شعوب تمر اليوم بمرحلة عقلية دون المرحلة التي وصل إليها الغربيون، فليست هذه بحالة ثابتة، لقد وجدوا في ظروف بيئية واجتماعية انتهت بهم إلي هذه المرحلة، وحين تغيرت الظروف بدأ اتصالهم بالحضارة الغربية يؤتى ثماره، وظهرت قدراتهم التي لا تقل عن قدرات الغربيين في كثير من المجالات .

وقد يبدو في بعض هذه اللغات شيء من القصور في معالجة قضايا الفكر العامة، وقد تكون بعيدة عما يموج به العالم من تيارات ثقافية واجتماعية، وقد يظهر فيها عناية خاصة بتفاصيل موضوع معين، وعجز عن التعبير في موضوع آخر. ولكن ذلك مما يتغير بتغير الظروف، وفي كل لغة وسائل – قلنا سابقا – إنها أكثر من حاجة أصحابها لتعويض هذا القصور واستدراك هذا النقص .

ليس من الإنصاف أن نعجب من عناية شعب ما بموضوع معين تجعله يدقق في التعبير عما نراه نحن لا يحتاج إلى تدقيق، إن هذا العناية وهذا التدقيق يعكسان اهتمام الشعب بهذا الموضوع وارتباط حياته به. إنه من المعقول جدا أن نجد عند الإسكيمو عشرات من الألفاظ تدل على أنواع مختلفة من الثلج، فهذه حياته ومجال اهتمامه. وليس من الإنصاف أن نتهم لغته بالقصور لأنها لا تتضمن أو لا تتسع لألفاظ الحضارة المعاصرة التي تعكس في الحقيقة اهتمامات العالم الغربي .

ومن المفيد هنا أن نستشهد بما قاله اللغوي الكبير (فندريس) في لغة هذه الشعوب يقول: إن منهم من يتكلم لغات على درجة من التعقيد لا تقل عما في أكثر لغاتنا تعقيدا، ومنهم أيضا من يتكلم لغات على درجة من البساطة تحسدهم عليها أكثر لغاتنا بساطة، فهذه وتلك ليست إلا نتيجة تغيرات تغيب عنا نقطة البدء التي صدرت عنها.

وهكذا يبدو لنا أن مزاعم التخلف اللغوى التي ألصقت بهذه اللغات لا أساس لها من الصحة، ولو تحرينا البحث فى الأسباب البعيدة أو فى بدايات اللغات لتكشف لنا حقائق تدفعنا إلى إعادة النظر في هذه الأحكام.

وقد لاحظ اللغويون أن الذين يتكلمون الإنجليزية فى أمريكا من الزنوج والهنود الحمر أو غيرهم كاليهود والأسبان والصينيين قد يظهر في كلامهم بعض الخواص اللغوية التي تميز كلامهم، وقد انتهى اللغويون إلى أن هذه

الخواص لا ترجع إلى الجنس بل تخضع لعوامل اجتماعية في المقام الأول، فهي تظهر مثلا في لغة المهاجرين الأوائل الذين تمكنت فيهم لغاتهم الأصلية، أما أبناؤهم الذين خضعوا لظروف طبيعية في مواطنهم الجديدة فإنهم يكتسبون الإنجليزية كأبناء المجتمع الأصليين، غير أن هذا مشروط باندماجهم في البيئة الجديدة ورغبتهم في الانضمام إلى المجتمع الجديد ومشاركته لغته، وإلا حال ذلك دون إتقانهم لغة هذا المجتمع وظهور بعض خواص لغاتهم الأولي، وهذا يحدث كثيرا في لغة المجموعات البشرية التي تهاجر إلى مناطق جديدة، وتحتفظ بتقاليدها وتخشى الاختلاط بالمواطنين الأصليين، ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما يطلق عليه في أمريكا Black English أو BE .

لقد احتفظت هذه اللهجة BE بخصائصها المتميزة لأسباب اجتماعية وتعليمية واقتصادية، إن التعصب العنصري عبر التاريخ ضد الأمريكيين السود لم يسمح لهم أن يكونوا مواطنين عاديين، لقد كانوا يعيشون فى مناطق منعزلة عن مناطق البيض، وكانوا يتعلمون في مدارس خاصة بهم، وحيثما يكون الانعزال تزيد الفروق اللهجية وتتكثف.

واليوم ينظر الأمريكيون السود إلى لغتهم نظرة أخرى، إنها ليست دون اللهجات الأمريكية الأخرى، بل إنهم يعدونها مظهر الشخصية المشرقة للأمريكى الأسود.

ولقد كان كثير من الأمريكيين يعتقدون أن المتحدثين بـ BE عقلياتهم متخلفة وثقافتهم فقيرة، ويؤكدون ذلك بقولهم: إن BE لغة غير نافعة وغير منطقية وغير كاملة.

والحق – كما يقول بعض اللغويين الأمريكيين : إن هذه النعوت لا يصح أن تطلق على أية لغة إنسانية .

إن الثقافة الفقيرة ما هي إلا خرافة مثلها تماما اللغة الفقيرة. إن الشخص قد يكون فقيرا في مجال ثقافي ولكنه يكون غنيا في مجال ثقافي آخر، فالأمريكي

الأسود الذي يقول Mary hat ليس فقيرا في فكره ولا في لغته بالقياس إلي من يقول Mary's hat .

وبعض الأمريكيين يعتقد أنه يمكنهم التعرف علي جنسية شخص لا يرونه بمجرد سماعهم حديثه، معتقدين أن الأجناس المختلفة تتحدث بفطرتها بطريقة مختلفة. وهذا الزعم ايضا خاطئ تماما. إن الطفل الأسود حين يعيش في بيت من البيوتات الإنجليزية الراقية سوف يتكلم اللغة التي يتحدثون بها، كما أن الأبيض الذي ينشأ بين الزنوج الأمريكيين سوف يتحدث كما يتحدثون تماما .

وقد أثبتت البحوث اللغوية التي عالجت BE أن الفروق بينها وبين الإنجليزية الفصحى أو المعيارية Standerd English في الأصوات والصرف والنحو لا تمثل خروجا على قواعد الإنجليزية الفصحى أو المعيارية أو انحرافا عنها بل هي فروق تتمثل في قواعد مطردة ليس فيها من عيب إلا أنها تخالفها - إن كانت المخالفة عيبا، ولعل هذا ينفي البتة فكرة غير المنطقية أو فكرة بدائية هذه اللهجة .

بقيت فكرة أخيرة في هذا الموضوع تتصل بما يجده بعض التراجمة من مصاعب حين يترجمون نصوصا لبعض عشائر الهنود والأفارقة .

لقد كان (مالينوفسكي) مثلا يعتقد أن مصاعب الترجمة ترجع إلي حد بعيد إلي فروق في طبيعة اللغات، وأن الحاجة إلي استحضار المقام أكثر إلحاحا عندما يتصل الأمر باللغات البدائية. وقد كان في ذلك كما يقول (بالمر) علي خطأ بين. ربما يكون في عالمنا اليوم بدائيون تنقصهم المعرفة والمهارة اللتان تتوفران عند الشعوب المتحضرة ولكن ليس بين اللغات لغة بدائية. ربما لا يتوفر لبعض اللغات معجم يمثل مظاهر الحياة في المجتمع الصناعي الحديث، ولكن هذا النقص يعكس في الحقيقة اهتمامات هؤلاء الناس، ولا يرجع البتة إلى الطبيعة البدائية لهذه اللغات. وقد نجد عند هؤلاء الناس البدائيين اهتمامات لا تعني المتحضرين ومن ثم لا نجد لها كلمات في معاجمهم .

اللغة والقومية

من الضروري هنا قبل أن نسترسل في الحديث عن العلاقة بين اللغة والقومية أن نشير إلي الملاحظات الآتية :

١- إن مصطلح (القومية) في مفهومه المعاصر مصطلح حديث نسبى فلم يبدأ علماء الاجتماع والسياسية يتناولونه بالبحث إلا منذ أواخر القرن الثامن عشر .

٢- إن مصطلح (القومية) كمصطلح سياسي واجتماعي مصطلح غامض يعسر تعريفه تعريفا جامعا مانعا، وإن مفهومه قد يختلط بمفهوم مصطلحين آخرين هما الأمة والدولة .

٣- إن معظم الكتاب من علماء الاجتماع والسياسة ينظرون إلي القومية باعتبارها حقيقة واقعية ويعترفون بتأثيرها القوي في نهضة الشعوب، وإن اختلفوا في تعريفها وفي تحديد مقوماتها .

٤- إن بعض السياسيين يرى أن القومية ليست إلا شعارا يرفعه بعض القادة والزعماء ليجمعوا الناس حولهم ويضمنوا ولاءهم وخضوعهم لنظام الحكم الذي يتولون أمره، وهم يرون أيضا أن الدولة لا القومية ذات مفهوم واقعي يسهل تحديده، وقيام العلاقات بين الناس وفقا لقوانينه.

ولسنا هنا في مجال تفصيل القول بشأن هذا الخلاف، ويكفي فحسب أن نشير إلى أن الذين ينكرون القومية يتغاضون عن قوة لها تأثيرها في التاريخ الحديث، فمازالت كثير من الشعوب تشعر بروابط قوية تتجاوز الحدود السياسية التي ترعاها القوانين الدولية. وعلي الرغم مما يعانيه العالم العربي في التاريخ المعاصر من عوامل الفرقة والخلاف، وعلى الرغم من التشاؤم الذي يسيطر على كثير من الناس من جراء ذلك فإن الشعور العام الذي يسيطر على مشاعر الناس ويؤثر في اتجاهاتهم العامة وفي نظرتهم إلي المستقبل – يكاد يجتمع على

أن العرب – على اختلاف دولهم – يحسون برابط قوي يجمعهم وبأمل واحد يحدوهم. وليس من الإنصاف أن نتغاضى عن هذه المشاعر النبيلة أو نقلل من أهميتها وتأثيرها في مسار تاريخ العرب الحديث سلبا أو إيجابا .

والقومية في أبسط تعاريفها ودون أن نتورط في الجدل القائم بين أصحاب التعاريف المختلفة هي : الولاء السياسي لدولة معينة أو الانتماء إلي هذه الدولة سواء أكان ذلك بالميلاد أو باكتساب الجنسية .

وليس من اللازم أن تنطبق حدود الدولة علي حدود القومية، فالدولة وحدة سياسية وقانونية يقطنها مجموعة من الأفراد بصفة دائمة. علي حين أن القومية حقيقة اجتماعية وحضارية. وقد تضم الدولة الواحدة عدة قوميات كما كان الشأن في الإمبراطورية العثمانية قديما، وكما هو الشأن في سويسرا حديثا وقد تضم القومية الواحدة عدة دول كما هو الشأن في القومية العربية .

وقد اختلف علماء السياسة والاجتماع في المقومات التي تعتمد عليها القومية، فيرى بعضهم أن التاريخ المشترك هو الدعامة الأساسية في نشأة القومية، ويرى آخرون أن المصالح الاقتصادية هي عماد القومية. ونحن نميل إلي رأى القائلين بأن القومية تستند إلى دعائم متعددة، وربما كان أشهرها الجنس والدين والثقافة واللغة ومع أن هذه المقومات تتفاوت في تأثيرها من قومية إلي أخرى فإن اللغة المشتركة هي أهم هذه المقومات وأبعدها أثرا في نشأة القوميات في تاريخ العالم المعاصر. بل إن نشأة الدول في العصر الحديث ترتبط إلي حد كبير باستعمال لغة قومية واحدة، وتنص أغلب دساتير العالم علي اللغة القومية التي يتخذها الشعب لغته الرسمية .

وتمثل اللغة أكبر الأدوار في حياة الشعوب فهي الأساس في شعور الجماعة بانتماء بعضهم إلى بعض، ولهذا يعدها بعض الدارسين تعبيرا آخر عن القومية.

يقول (هردر) في العلاقة بين اللغة والقومية : إن اللغة القومية بمنزلة

الوعاء الذي تتشكل به وتحفظ فيه وتنتقل بواسطته أفكار الشعب. إن اللغة تخلق العقل أو علي الأقل تؤثر في التفكير تأثيرا عميقا وتسدده وتوجهه توجيها خاصا. ولغة الشعب تتمثل في كل روح الشعب نفسه، إن لغة الآباء والأجداد بمثابة مستودع لكل ما للشعب من ذخائر الفكر والتقاليد والتاريخ والفلسفة والدين، إن قلب الشعب ينبض في لغته، إن روح الشعب يكمن في لغة الآباء والأجداد .

ويقول (ماكس نورداو) : إن الفرد يندمج في المجتمع باللغة، وبها وحدها، وباللغة يصبح عضوا في الشعب الذي يتكلمها، وباللغة وحدها يتلقى كل التراث الفكري والشعوري والأخلاقي، والاجتماعي للأمة سواء ما انحدر عن قرائح الكتاب والشعراء والمفكرين السالفين والمعاصرين .

والقائلون بهذه العلاقة الوثيقة بين اللغة والقومية يرون أن القوميات التي نشأت في أوربا في القرن التاسع عشر قد قامت على أساس اللغة، فقد وحدت ألمانيا وإيطاليا على هذا الأساس، وقد قام استقلال اليونان وبلغاريا وألبانيا والمجر ويوغسلافيا على أساس أن لكل دولة من هذه الدول لغة قومية متميزة. غير أن علماء آخرين يعترضون على هذه النتائج، ويرمون أصحابها بالتطرف، ويرون أن دور اللغة في نشوء القوميات الأوربية دور ثانوي. ويسوقون أمثلة عديدة لتأييد وجهة نظرهم، ففي بلجيكا مثلا لغتان مختلفتان هما الفرنسية والفلمنكية تعيشان متجاورتين دون أن يكون لهما تأثير في نشأة الدولة أو في توجيه شئونها، وفي سويسرا أربع لغات، فتنتشر الإيطالية على حدودها مع إيطاليا والفرنسية على حدود فرنسا والألمانية على حدود ألمانيا. واللغة الرابعة هي اللغة الرومانسية وهي لغة من أصل لاتيني. وليس لهذه اللغات تأثير يذكر علي مجريات الأمور في سويسرا. ويرون أيضا أن الولاء السياسي للدولة الرومانية – قديما – ثم للسلطة الروحية للكنيسة المسيحية كان أشد سيطرة علي الناس من اللغات المتعددة التي كانت تستخدم آنذاك، فقد كانت الدولة الرومانية تجمع تحت حكمها شعوبا مختلفة تستخدم لغات متعددة، وكذلك كان الحال في

الدولة العثمانية التي كانت تسيطر علي شعوب يدينون لها بالولاء، مع اختلاف قومياتهم ولغاتهم .

ولا يسلم القائلون بتأثير اللغة في نشوء القوميات بكل هذا ويرون أن الوضع في بلجيكا وسويسرا وضع خاص كان محصلة لعوامل كثيرة – لا مجال لتفصيل القول فيها هنا. كما يرون أن سقوط الدولة الرومانية وانهيار الإمبراطورية العثمانية كان من جراء اختلاف اللغات فيها، وقد كان انفصال الدول عن كل منها من آثار هذا الاختلاف .

وقد أثبتت الأيام صحة رأي القائلين بتأثير اللغة في مصير الأمم والشعوب فقد أصدر البرلمان البلجيكي في شهر أغسطس ١٩٨٠ قرارا بأغلبية ساحقة يقضي بمنح سلطات الحكم الذاتي لإقليمي (فلاندر) و (فالوني) لوضع حد للصراع اللغوي القائم بين سكان الإقليم الأول الذين يتحدثون اللغة الفلمنكية وسكان الإقليم الثاني الذين يتحدثون الفرنسية على مدى السنوات العشر الماضية بشكل أدى إلى شلل الحياة السياسية في البلاد. وقرر البرلمان إرجاء تحديد الوضع في العاصمة بروكسل التي يتحدث ٨٠٪ من سكانها بالفرنسية في حين أن المدينة نفسها محافظة بأراضي إقليم (فلاندر) .

والاعتزاز باللغة القومية كان من أمضي الاسلحة التي شهرتها الدول المستعمَرة في وجوه مستعمريها الذين حاولوا فرض لغاتهم علي هذه الشعوب، وحين نجحت هذه الشعوب في الحصول على استقلالها كان من أهم مطالبها الاعتراف بلغاتها القومية لغات رسمية .

ومن أوضح الأمثلة على تأثير اللغة في بناء الدول أن إسرائيل قد رأت بعث اللغة العبرية – التي قد ماتت – إلى الحياة مرة أخرى، وكانت في ذلك مدركة لأهمية الوحدة اللغوية في ترسيخ وحدة اليهود الذين جاءوا من كل مكان ويتحدثون لغات مختلفة .

ومن مظاهر اعتزاز الأمم بلغاتها القومية أن أصحابها قد يتخذون مواقف

عدائية أحيانا نحو ما في لغتها من كلمات دخيلة، وتظهر عندئذ الدعوة إلى تطهير اللغة من هذه الكلمات وإلى إحلال الكلمات القومية محلها. ويكفي هنا أن نشير إلى جهود مجمع اللغة العربية بالقاهرة في تقديم ألفاظ عربية أصيلة للتعبير عن حضارة العصر تقوم مقام الكلمات الدخيلة التي انتشرت في كل مجال من مجالات الحياة في مصر .

ونستخلص من كل ما سبق في هذا الموضوع ما يلى:

١- اللغة من أهم مقومات القومية من حيث إنها الأداة المشتركة التي تجمع الناس على شعور واحد وفكر واحد وهدف واحد، ومع ذلك فليست المقوم الذى ينفرد بالتأثير .

٢- كان لبعض العوامل السياسية والاقتصادية تأثير كبير في نشوء بعض القوميات وبعض الدول الحديثة، وبعد أن تحققت نتائجها جعلت من اللغة أساس شخصيتها القومية. وتميل معظم دول العالم – في الوقت الحاضر – إلى تنحية بعض العوامل المؤثرة في الشعور القومي كالجنس والدين والطبقة الاجتماعية – ولكنها تؤكد أهمية العامل اللغوي وتحرص على أن تكون لها لغتها القومية التى تساعد على توحيد أفكار الناس واتجاهاتهم .

٣- دور اللغة العربية في مستقبل العرب دور على جانب كبير من الأهمية فهى أهم المقومات التي تقوم عليها القومية العربية، وتحقيقها لهذا الدور مرهون بما يقوم به المفكرون واللغويون من جهود في التقريب بين لهجاتها وفي تدعيم دور الفصحى المشتركة في الربط بين شعوبها .



ملخص لمفردات الوحدة

أولاً- وظيفة اللغة:

- الوظيفة التقليدية: التعبير والتوصيل والتأثير.
- الوظيفة الاجتماعية للغة:

١. إنشاء علاقة إنسانية.

٢. تحقيق المصالح.

٣. الحفاظ على التراث الإنساني بالكتابة.

ثانياً- اللغة والمجتمع:

- اللغة سلوك جمعي.
- لغة الحديث ولغة الكتابة:

١. من حيث الشكل.

٢. من حيث الوظيفة.

٣. من حيث الخصائص اللغوية.

ثالثاً- اللغة والجنس:

- مفهوم الجنس.
- تصنيفات متعددة للأجناس.
- التصنيف اللغوي وفقا لخصائص الجنس (ماكس مولر).
- الأدلة على نفي العلاقة بين اللغة والجنس.
- إنجليزية السود Black English وظروف نشأتها.

رابعاً- اللغة والقومية:

- تعريف القومية.
- اللغة إحدى عناصر القومية.
- مشكلات لغوية على أسس لغوية.
- اللغة العربية من أهم مقومات العروبة.

أسئلة على الوحدة الثانية

?

أمثلة محلولة :

أجب بـ: لا أو نعم :

١- تحيات الصباح والمساء، وألفاظ التجمل والتلطف لها وظيفة اجتماعية. ( )

الإجابة: (نعم) .

٢- لغة الشعارات السياسية تعبر عن مضمونها بصدق دائما. (X)

الإجابة: (لا) .

٣- اللغة عند الأطفال قد تكون مجرد وسيلة للتسلية. ( )

الإجابة: (نعم).

٤- اللغة العربية الفصحى هي اللغة الرسمية (لغة الدولة) في مصر. (X)

أجب بـ: لا أو نعم

الإجابة: (نعم)

٥- الإنسان العادي ينتج من المكتوب أكثر مما ينتج من المنطوق. (X)

أجب بـ: لا أو نعم .

٦- معدل التغير في اللغة المكتوبة أسرع من معدله في اللغة المنطوقة. (X)

أجب بـ: لا أو نعم.

٧- الثنائية **Diglosiq** ظاهرة معروفة في أغلب لغات العالم. ( )

أجب بـ: لا أو نعم

٨- ليس من الضروري أن تكتمل عناصر الجملة في لغة الحديث. (✓)

أجب بـ: لا أو نعم

٩- يغلب أن يكون المنطوق أكثر إطنابا من المكتوب (نعم)

أجب بـ: لا أو نعم

١٠- ثمة بين لغات العالم لغات بدائية. (✗)

أجب بـ: لا أو نعم

١١- اللغات الآرية ذات مزايا لغوية وفكرية (✗)

أجب بـ: لا أو نعم

١٢- اختلطت الشعوب بالهجرات والحروب مما ساعد على اختفاء الفروق بين الأجناس (نعم)

أجب بـ: لا أو نعم

١٣- اللغة العربية من أهم مقومات القومية العربية (✓)

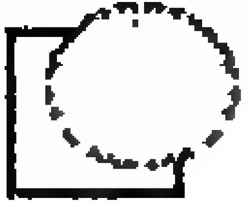
أجب بـ: لا أو نعم

١٤- اللغة تؤدي إلى وحدة ثقافية بين أفراد المجتمع (✓)

أجب بـ: لا أو نعم

١٥- الفروق بين إنجليزية السود والبيض في الولايات المتحدة نتيجة اختلافات في الجنس (✗)

أجب بـ: لا أو نعم



الوحدة الثالثة

التنوع اللغوى

الهدف:

- تهدف هذه الوحدة إلى بيان التنوعات اللغوية الناتجة عن اختلاف الجماعات اللغوية من حيث اختلاف المناطق المحلية والطبقات الاجتماعية.
- وتهدف كذلك إلى بيان التنوعات الناتجة عن موضوع الاتصال اللغوية، والغرض منه، وتنوع أشكاله (الأساليب).
- وتهدف كذلك إلى بيان الفكر اللغوى العربى وإسهاماته الثرية فى هذا الموضوع (البلاغة والنقد)

الوحدة الثالثة

التنوع اللغوى

اللغات واللهجات:

أشرنا قبلا إلي أن الفرد يكتسب لغته من المجتمع الذي يعيش فيه فالطفل الذي يعيش في مصر مثلا سوف يتكلم العربية، والطفل الذي يعيش في إنجلترا سوف يتكلم الإنجليزية ..... إلخ. ولكننا إذا دققنا النظر سوف نجد أن أفراد المجتمع الواحد الذين يتكلمون لغة واحدة لا يتكلمونها بطريقة واحدة بل نجد بينهم اختلافات قد تكثر أو تقل، بل يقرر علماء اللغة أنه لا يكاد يوجد شخصان في بيئة واحدة ينطقان نطقا متماثلا كل التماثل .

ففي إطار ما يسمي " اللغة العربية " نجد اختلافات محلية، فالمصري الذي يزور العراق مثلا سوف يجد أن لغتهم مختلفة عن لغته، وسوف يجد العراقيون كذلك أن لغته مختلفة عن لغتهم، وهكذا الأمر فى كل أرجاء العالم العربي، ولنأخذ الفعل (قال) مثالا علي ذلك، ينطق المصريون، القاف منه همزة، علي حين ينطقها الفلسطينيون كافا وينطقها السودانيون جيما أو غينا وينطقها المغاربة قافا .. إلخ، وكلنا يعرف كيف ينطق العراقيون وأهل الخليج الضاد كأنها الظاء المصرية، وكيف ينطقون الكاف كأنها Ch في الإنجليزية إلى غير ذلك من فروق تميز كل منطقة من هذه المناطق عن أية منطقة أخرى، ومع وجود هذه الاختلافات يرى العرب جميعا أنهم يتكلمون لغة واحدة .

وقد استخدمنا كلمة المصريين والفلسطينيين والعراقيين ... إلخ، على سبيل التعميم، فالمصريون جميعا لا ينطقون القاف همزة بل ينطقها بعضهم قافا، وينطقها آخرون (جيما) .. وكذلك الأمر فيما مثلنا به من ظواهر صوتية في السودان أو العراق أو المغرب .. إلخ.

فما حقيقة هذا الأمر هل يتكلم العرب جميعا لغة واحدة، وإذا كان كذلك، فماذا نقول في شأن هذه الاختلافات ؟

سوف يكون من المفيد في فهم هذه القضية أن نرجع إلى تعريف اللغة الذي انتهينا إليه قبلا، لقد قلنا إن اللغة: نظام من الرموز الصوتية المنطوقة تستخدمه جماعة معينة من الناس بهدف الاتصال وتحقيق التعاون فيما بينهم غير أن هذا التعريف هو تعريف اللغة دون تخصيص، فماذا نفعل حين نسأل ما اللغة العربية وما اللغة الإنجليزية ... إلخ ؟

إن التعريف المقترح يربط اللغة المعينة بجماعة معينة تستخدم هذه اللغة، فما المقصود بهذه الجماعة. وما المعايير التي تحددها ؟

الجماعة اللغوية:

وضع اللغويون معايير لتعريف الجماعة اللغوية Linguistic community من أهمها :

(أ) المعيار اللغوى:

لعل أبسط تعريف لها هو التعريف الآتي : كل الناس الذين يستخدمون لغة أو لهجة معينة .

والمقصود بالجماعة : وحدات اجتماعية متفاوتة، فالأسرة جماعة والعائلة جماعة والقبيلة جماعة والأمة جماعة .

ومن الواضح أن أصحاب هذا التعريف لا يعنيهم كثيرا العوامل السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية التي تتدخل في تشكيل الجماعة، بل يعنيهم في المقام الأول الخواص اللغوية المميزة لهذه الوحدات : أي أن الفرد يكون عضوا في جماعة لغوية معينة إذا كان يستخدم لغة هذه الجماعة فحسب .

ويعترض على هذا التعريف بأمور :

أولا : قد يكون هذا التعريف وافيا بالمراد إذا كان من الممكن أن نعرف المقصود باللغة واللهجة. وهذه هي المشكلة .

ثانيـا : فـي إطـار اللغـة الواحـدة جماعـات ثنائيـة اللغـة (كـالنوبيين مـثلا الـذين يتكلمون العربية والنوبية) فمـاذا نقول فـي هؤلاء ؟ أنقول إنهم يتكلمـون العربية أم النوبية ؟

ثالثـا : لقـد قلنـا مـن قبـل إن أصـحاب هـذا التعريـف يعنـيهم فـي المقـام الأول الخواص اللغوية، وهذا مؤداه أنه ليس من الضروري أن يتوافر للجماعة اللغوية وحدة ثقافية وهذه مشكلة.

لنبحث إذن عن معيار آخر ما دام هذا المعيار غير كاف .

(ب) الوحدة السياسية:

يتألف عـالم اليوم مـن وحـدات سياسية أو دول، كل وحـدة منهـا تستخدم – بشكل عام – لغة رسمية واحدة، وتنص كثير من دساتير هذه الدول علي هذه اللغة، وهناك اتجاه عام يفترض أن كل أفراد هذه الدولـة يستخدمون هذه اللغة وأنهم لهذا السبب يؤلفون جماعة لغوية تستخدم لغة واحدة متجانسة .

هذه اللغة الرسمية – في العـادة – لغة مكتوبـة، ذات تقاليد ثابتـة نوعـا مـا، وينظر إليها أصحابها على أنها تحظى بمكانة خاصة، فالعربية الفصحى – مثلا – هي اللغة الرسمية التي تستخدمها مجموعة من الدول يجمعها مـا يطلق عليه الأمة العربية، وهي لغة مكتوبـة فـي أغلـب استخداماتها، وهـي لغـة ذات قواعد وأصـول ثابتـة، ولهـا أدبهـا المتنـوع، وتاريخهـا الطويـل، ولـدى العـرب جميعـا إحساس مشترك بمكانة هذه اللغة المتميزة، وبأنهـا الربـاط الذي يوثق علاقاتهـا، وبأنها الأداة التي تحقق مصالحهم المشتركة، وأنها بعد هذا وذاك العامل الأكبر في تأكيد شخصيتهم المستقلة .

غير أن هذا المعيار ينزلق بنا إلي مشكلات معقدة .

فاللغـة الإنجليزيـة مـثلا – تستخدمها دول كثيـرة لغـة رسمية لهـا، فهـي اللغـة الرسمية في الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، وفـي استراليا وفـي نيوزيلندا، وينبغي – وفقا للمعيار السابق أن نقول اللغة الأمريكية واللغة الاسترالية .. إلخ واللغـة العربيـة

تستخدمها دول كثيرة فهي اللغة الرسمية في مصر وسوريا والعراق .. إلخ فهل نقول – مثلا اللغة المصرية واللغة السورية واللغة العراقية ... إلخ ؟

لقد وضح إذن أن المعيار السابق يضطرنا إلي تحكيم اعتبارات سياسية في موضوع لغوي، وليس معقولا أن نترك لرجال السياسة أن يفصلوا في مسائل لغوية، وأن يقرروا مثلا هل يستخدم المصريون اللغة العربية ام اللغة المصرية؟

وهناك مشكلة أخرى أكثر تعقيدا، ففي إطار الدولة الواحدة قد نجد لغتين أو أكثر ففي فرنسا مثلا نجد الفرنسية والبريتونية ولغة الباسك، فهل نعد الذين يتكلمون البريتونية متحدثين بالفرنسية ؟ إن هؤلاء الفرنسيين ليسوا أقل حرصا علي لغتهم من الفرنسيين الذين يتكلمون الفرنسية بل إنهم يطالبون اليوم بالاعتراف بلغتهم لغة رسمية. وفي إنجلترا مشكلة كهذه فعدد كبير من سكان (اسكتلندا) يتكلم اللغة المعروفة بـ (الغالية Gallic) وسكان (ويلز) يتكلمون لغة منحدرة من اللغة (الكلتية) .

وفي مصر مثلا يتحدث بعض سكان النوبة اللغة النوبية وهي إحدى لغات المجموعة السودانية، وفي المغرب يتحدث بعض سكانها اللغة البربرية .

فإذا ما استخدمنا المعيار السابق انتهينا إلي أن اللغة الفرنسية في فرنسا هي وحدها التي تستحق أن تكون لغة، وأن الإنجليزية في إنجلترا هي وحدها التي تستحق أن تكن لغة، وأن العربية – في مصر أو في المغرب مثلا – هي وحدها التي تستحق أن تكون لغة، فإذا صح هذا فماذا نقول عن البريتونية والغالية والنوبية والبربرية ؟ لن نجد جوابا شافيا عن هذا السؤال، ولهذا ننتقل إلي معيار آخر .

(جـ) التفاهم المشترك:

يرى القائلون بهذا المعيار أن الجماعة اللغوية هي : جماعة من الناس يفهم بعضهم بعضا عندما يتحدثون، وعلى هذا فنحن نتكلم لغة واحدة إذا تحقق التفاهم بيننا، ونحن لا نتكلم لغة واحدة إذا لم يتحقق هذا التفاهم. فالعرب جميعا.

مع أنهم يؤلفون وحدات سياسية مختلفة – يستخدمون لغة واحدة يفهمونها جميعا، والفرنسيون كذلك تحقق لهم الفرنسية التفاهم المشترك.

ومن الواضح أيضا أن العربي (الذي لا يعرف الإنجليزية) لا ينجح في الاتصال بالإنجليزي (الذي لا يعرف العربية) ولن يتحقق التفاهم بينهما إذا ما استخدم لغته العربية، وإنما كان ذلك كذلك لأنه يتكلم لغة أخرى .

وقد يحل هذا المعيار المشكلة التي تركناها آنفا دون حل، فالبريتون في فرنسا – بهذا المعيار – يتحدثون لغة غير اللغة الرسمية الفرنسية، والنوبيون في مصر يتحدثون لغة غير اللغة العربية الرسمية .. إلخ .

غير أنه – مع ذلك – مقياس غير دقيق ولا يجسم المشكلة التي نحن بصددها فليست الأمور بسيطة وواضحة على النحو الذي عرضناه آنفا .

لدينا أمثلة عديدة لأقاليم أو مقاطعات يستطيع سكانها التفاهم المشترك مع جيرانهم المباشرين الذين يقيمون في الطرف الآخر من الحدود السياسية لوطنهم دون صعوبة تذكر، وهذا هو الحال في مناطق الحدود بين فرنسا وإيطاليا مثلا، فالسكان في تلك المناطق على جانبي هذه الحدود يستطيعون التفاهم فيما بينهم دون صعوبة على حين يجدون صعوبة في التفاهم مع مواطنيهم في المناطق البعيدة عنهم. (تورينو) مثلا – وهي مقاطعة إيطالية – يتفاهمون بنجاح مع جيرانهم الفرنسيين في الجانب الآخر من الحدود أكثر مما يتفاهمون مع مواطنيهم الإيطاليين في (تارنتو) في جنوب إيطاليا. ولو استخدمنا المعيار السابق لقلنا إن سكان (تورينو) يتكلمون الفرنسية، وهذا لا يقره أبدا سكان (تورينو) أنفسهم، واللغويون الإيطاليون يعدون لهجة (تورينو) إحدى اللهجات الإيطالية .

ولدينا مثال آخر في الاتجاه المقابل، إذا درسنا الموقف اللغوي بين السويد والنرويج فسوف نجد بين اللغتين تشابها كبيرا، وسوف نلاحظ أن السويديين والنرويجيين يفهم بعضهم بعضا، ولكنهم - مع هذا وذاك - يزعمون أنهم يتكلمون لغتين مختلفتين.

على أن التفاهم المشترك عبارة غير دقيقة، لأن التفاهم المشترك درجات متفاوتة، فقد يجد المصريون صعوبة كبيرة عند الحديث مع الجزائريين أو المغاربة، لكن هذه الصعوبة تقل شدتها حين يتحدثون إلي السوريين أو السودانيين، قد يقال إن التفاهم المطلوب هنا نسبي، وهذا صحيح، وقد يقال أيضا في تقديره إنه يتحقق علي شكل أفضل مما يتحقق ولو تكلم سوري مع تركي أو تكلم مغربي مع سنغالي أو تكلم عراقي مع إيراني ، وهذا أيضا صحيح .

ومن الواضح ايضا – كما يقول (هدسن) أن التفاهم المشترك لا يتوقف فحسب علي توفر عناصر لغوية مشتركة بين المتحدثين، بل يتوقف أيضا علي طبيعة ونوع الناس الذين يعنيهم عقد اتصال فيما بينهم .

ولننظر مثلا إلى صاحب فندق صغير على الحدود بين إيطاليا وفرنسا يستقبل كل يوم نزلاء من الإيطاليين والفرنسيين، لا شك أن قدرته علي التفاهم سوف تكون أكثر من أي شخص آخر لا تتوفر له نفس الظروف .

وأخيرا لقد وضح لنا أن معيار التفاهم المشترك لا يحل المشكلة فقد يتحقق بين أفراد يدعون أنهم يتكلمون لغات مختلفة، وربما لا يتحقق بين أفراد يقال إنهم يتكلمون لغة واحدة .

فهل ثمة معيار آخر ؟

(د) الشعور بالانتماء إلي جماعة معينة :

يقوم التفاهم المشترك بين أفراد الجماعة اللغوية علي أساس التشابه الفعلي في الخواص اللغوية المميزة لأفراد الجماعة، وعلي هذا، فالتفاهم المشترك والتشابه اللغوي مترابطان، ومع هذا فلم يمدنا أحدهما بمعيار كامل لتعريف اللغة .

لعل أفضل الحلول التي قدمها علماء اللغة المعاصرون لهذه المشكلة هو الحل الذي يتمثل في تعريف الجماعة اللغوية بأنها : **جماعة من الناس يعدون أنفسهم متحدثين بلغة واحدة.** فأنا أتكلم العربية، لأنني أعد نفسي فردا في جماعة المتكلمين بها، وهكذا تكون اللغة التي يتحدثها شخص ما إنجليزية مثلا

إذا عدها الشخص نفسه إنجليزية، وتكون الفرنسية إذا عدها كذلك .

ومن الواضح أن هؤلاء العلماء يجعلون موقف الجماعة من تحديد ذاتها هو المعول عليه، فالجماعة جماعة، لأنهم ينظرون لأنفسهم علي أنهم كذلك، وليسوا جماعة، لأن لغويا أو أي شخص آخر ليس من الجماعة يعدهم جماعة كما في التعريفات السابقة.

إن أفراد الجماعة التي تعد نفسها متحدثة بلغة واحدة لديهم نوعان من المعايير :

معايير ثقافية (أو صور مثالية مجردة) لما ينبغي أن يكون عليه سلوكهم الاجتماعي، والغالب أن يكون لهؤلاء ثقافة واحدة تتمثل في تقاليد ومعتقدات مشتركة، ولهم أيضا تاريخ مشترك، بل ولهم أدب مشترك، إن سلوكهم سوف يميل إلي أن يتماثل حتى يقترب من المعيار المشترك .

ومعايير لغوية (أو صور مثالية مجردة) لما ينبغي أن يكون عليه سلوكهم اللغوى. فحين يتحدث أفراد هذه الجماعة يكادون يتحدثون بطريقة متشابهة. لأنهم متفقون ضمنيا على قدر من الخواص الشكلية للغة، (وقد يكون هذا أوضح حين يكتبون أو يتكلمون بعناية في مواقف محددة). إن لغتهم سوف تميل إلى أن تتشابه وتقترب إلى المعيار الذي في أذهانهم .

بقي شيء آخر جدير بالتنويه إليه هو أنه لا حدود للطرق التي ينظر إليها البشر باعتبارها عناصر في تحديد شخصيتهم : كالمهنة، والهواية ، والوضع الاقتصادي، والحزب السياسي، والديانة .. أو غير ذلك من العناصر المشتركة، ويترتب علي ذلك أنه لا حدود لعدد أو تنوع الجماعات اللغوية في المجتمع .

إن الفرد قد يكون عضوا في غير هيئة اجتماعية واحدة، ومن ثم يكون عضوا في غير جماعة لغوية. فالمحامي مثلا يكون عضوا في نقابة المحامين، ومع ذلك قد يكون عضوا في حزب سياسي معين، وقد يكون عضوا في ناد رياضي .. إلخ، وفي كل هيئة من هذه الهيئات يلتزم بسلوكها الاجتماعي واللغوي.

وبعد ، فإننا بهذا المقياس نحسم كثيرا من المشكلات السابقة، فالبريتونية لغة، لأن المتحدثين بها يعدونها كذلك، والبربرية لغة لأن المتحدثين بها رأوا ذلك، والنوبية لغة لأن المتحدثين بها اعتبروها كذلك .. إلخ.

والعراقية والمغربية والجزائرية .. إلخ ليست لغات لأن العراقيين والمغاربة والجزائريين .. إلخ، يعدون أنفسهم متحدثين باللغة العربية .

ولكننا لاحظنا أن المصريين والعراقيين لا يتكلمون العربية على سواء، بل نجد أن المصريين قد يظهر في عربيتهم خصائص لا تعرفها عربية العراقيين .. إلخ فاللغة العربية إذن تتنوع بتنوع المناطق الجغرافية التي تستخدمها، وقد نلاحظ في إطار الإقليم الواحد أن طبقة من الناس تتكلم بطريقة معينة تميزها عن غيرها من طبقات المجتمع، فالمثقفون في مصر مثلا يتحدثون العربية بطريقة تخالف طريقة العمال أو الفلاحين، فالعربية إذن تتنوع بتنوع الطبقات الاجتماعية. وقد اصطلح اللغويون أن يطلقوا على هذه الطرائق الخاصة في استخدام اللغة مصطلح "اللهجات" وهكذا يبدو لنا أن اللغة الواحدة تتألف من لهجات جغرافية أو اجتماعية.

سوف نناقش هذه المسائل في الصفحات القادمة

اللغة الفصحى (المعيارية):

قلنا سابقا إن عالمنا المعاصر يتألف من وحدات سياسية أو دول مستقلة، وأن كل دولة من هذه الدول تعين لغة محددة في دستورها تجعلها لغتها الرسمية أو الوطنية National language وأن هذه اللغة الرسمية أو الوطنية تحظى بمكانة خاصة باعتبارها لغة الدولة بإدارتها وأجهزتها المتعددة، وهي أيضا لغة التعليم في معاهده المختلفة، بل تحظى هذه اللغة بمنزلة عند أفراد الشعب أنفسهم، إذ يعدونها الأداة المشتركة التي تجمعهم في إطار واحد، وتميزهم عن غيرهم .

وقد لاحظ علماء اللغة أن الاتجاه إلي إعطاء لغة ما منزلة خاصة يظهر في المجتمعات التي تستخدم مستويين متميزين من اللغة : (لغة عالية) تستخدم في

المناسبات الرسمية وفي النصوص المكتوبة، و(لغة هابطة) تستخدم في الأحاديث العادية .

ويطلق علي هذا المستوي العالي المتميز : اللغة الفصحى أو المعيارية Standard Language ومن أظهر الأمثلة علي ذلك : (العربية الفصحى) إذ تمثل اليوم شكلا متميزا يحظى بمكانة خاصة في دور الحكومة والعلم وتحظى أيضا بمنزلة خاصة عند الأدباء ورجال الإعلام والعلماء ورجال الدين .. إلخ وهذا الشكل هو الذي يتعلمه الطفل في مدرسته .

ويطلق على المستوى الهابط : اللغة العامية أو الدارجة Vernacular ويستخدم هذا المستوي في التعبير عن مطالب الحياة اليومية في السوق وفي النادي وفي البيت .. إلخ، وهو الشكل الذي يكتسبه الطفل منذ ولادته إلي التحاقه بالمدرسة من أسرته وقرنائه والمحيطين به.

والعالم العربي اليوم من تلك المجتمعات الثنائية، فالعربية الفصحى يقف إلي جوارها العامية (مصرية أو سورية أو عراقية ... إلخ) ولكل مجال وخصائص ليس الآن مجال الحديث عنها .

وهذه اللغة التي تحظى بهذه المكانة المتميزة لها – في الغالب – أدبها المتميز الذي يضرب بجذوره في أعماق المتكلمين بها، بل أن اللغويين يرون أن الأدب من أهم العوامل التي تساعد على ظهور اللغة المشتركة، وكثيرا ما يتحدث الأدباء واللغويون عن فضل (دانتي) في نشأة اللغة الإيطالية المشتركة وعن فضل (تشوشر) في نشأة الإنجليزية المشتركة.

والعربية الفصحى كانت لغة أدبية، لقد كانت لغة الشعر أساسا، وقد كان الشعراء، والخطباء هم الذين خلقوا هذه اللغة الأدبية المشتركة، وهم الذين جعلوها على ألسنة العرب على اختلاف ألسنتهم .

وغالبا ما تكون اللغة الفصحى أو المعيارية في أول الأمر لهجة محلية تنال شيئا من التمجيد أو التقدير، ويعترف بها لغة رسمية لسبب من الأسباب، كأن

تكون لهجة منطقة من البلد اتخذت مقرا للحكم (مثل الفرنسية الباريسية) أو لهجة مجموعة من الناس أصبح لهم سيطرة عسكرية (مثل القشتالية الأسبانية) أو لهجة منطقة لها زعامة أدبية (مثل التوسكانية في إيطاليا) .

وكذلك كانت العربية الفصحى، لقد تهيأت ظروف عديدة لتجعل لهجة أهل مكة لغة مشتركة للعرب جميعا، فقد كان الناس يفدون إلى مكة للتجارة والحج، ولم تكن مكة سوقا للتجارة أو مثابة للعبادة فحسب بل كانت أيضا مركزا للأدب والخطابة، وكان الشعراء والخطباء من كل القبائل يقصدونها ليعرضوا شعرهم وخطبهم علي الناس، وكانوا ينشدون الناس أو يخطبون فيهم بتلك اللغة المشتركة التي يجتمعون علي فهمها علي الرغم من اختلاف ألسنتهم ولهجاتهم .

وتحظى الفصحى أو المعيارية بمكانة عالية عند أصحابها يدل على ذلك أنها هي اللغة التي يعلمونها لمن يريد تعلمها من غير المتكلمين بها، وهي اللغة التي يعدونها قرينا للغات الأخرى ومعبرا عن شخصيتهم القومية. ونلاحظ أن الأجنبي يجد فيها بغيته حين يريد الاتصال بأبنائها، فهي الوسيلة التي يمكن أن يستخدمها بغض النظر عن الفروق اللغوية المحلية التي مرجعها تنوع الأقاليم أو الطبقات، والحق أنه لا سبيل لهذا الأجنبي إلي التمكن من هذه اللهّجات المحلية مهما حاول في تعلمها وجاهد في محاكاتها.

إن الفصحى أو المعيارية قد تقوم بوظائف أكثر أهمية واتصالا بالشئون العامة لأفراد المجتمع، فهي لغة الدولة بكل هيئاتها، وهي لغة التعليم بكل مراحله، وهي لغة العلم بكل فروعه، وهذا كله يلقي عبئا ثقيلا عليها فهي مطالبة أن تفي بكل هذه المطالب وبخاصة ما يتصل بالمصطلحات العلمية والفنية، وبالألفاظ التي تعبر عن المبتكرات الحديثة والمذاهب الجديدة، وارتباط هذه اللغة بالأدب ينمي معجمها وأساليبها بما يبدعه الشعراء والكتاب .

يركز اللغويون على الصفات اللغوية التي تميز الفصحى، ويحددونها بمعلمين هامين:

أنها مستوي لغوى أرقى من لهجات الخطاب في غالب الأحوال، أي أنها

ثابتة الأركان والدعائم، وقد استقر أمرها على قواعد ونظم لا تسمح بالتغيير أو التطور إلا في القليل من الأحيان، وبعد أجيال من الاستعمال، وهي لذلك يتخذها الناس مقياسا لحسن القول وإجادة الكلام .

والصفة الثانية للغة المشتركة هي التي عبر عنها (هنري سويت) بقوله: هي اللغة التي لا يستطيع السامع أن يحكم علي المنطقة التي ينتمي إليها المتكلم، أي أن اللغة المشتركة - وإن تأسست في بدء نشأتها علي لهجة منطقة معينة - قد فقدت مع الزمن أو نسي الناس في أثناء استعمالها كل المنابع التي استمدت منها عناصرها وأصبح لها كيان مستقل .

ونذكر الآن بما سبق أن انتهينا إليه عند الحديث عن الجماعة اللغوية لقد قلنا إن لدى أفراد الجماعة اللغوية المعينة معايير لغوية يحاولون استخدامها للوصول إلى ما ينبغي أن يكون عليه السلوك اللغوي، إن اللغة الفصحى أو المعيارية هي في الحقيقة صورة لغوية مثالية، فلا أحد يستخدمها ولا أحد يعرفها تماما، وكل ما هنالك أننا نحاول الوصول إليها، وتتفاوت حظوظنا في ذلك .

ونشير هنا إلى ما تقوم به الهيئات التي أوكل إليها المحافظة على اللغة الفصحى (كالمجامع اللغوية والهيئات التعليمية والمعاهد اللغوية) من وضع المعاجم وتأليف كتب القواعد، وهي كلها جهود ترمي لتدعيم الفصحى وتثبيت قواعدها والمحافظة عليها. وتقوم هذه الهيئات بتبصير الناس بالصواب الذي عليهم الالتزام به وبالخطأ الذي عليهم اجتنابه .

ويتصل بما سبق أن اللغة الفصحى لغة لها نظام كتابي ثابت، واستخدام الرموز الكتابية يعمل علي تثبت اللغة على حالها ويحافظ على أنظمتها المختلفة، بل ويحافظ على تراثها العلمي والأدبي. ومن هنا كانت الدعوة إلي الفصحى والمحافظة عليها مرتبطة بالمحافظة على نظامها الكتابي ومقاومة أي محاولة لتغييره (على الرغم مما فيه من عيوب) أو أي محاولة لوضع نظام خاص لكتابة اللهجات المحلية .

ونلخص الآن أهم العناصر التي تؤلف تعريف اللغة الفصحى أو المعيارية:

١- اللغة الفصحى شكل لغوي مختار يكتسب أهميته من ظروف سياسية أو اجتماعية أو أدبية.

٢- وهي شكل يعده الناس لغتهم القومية، وهو مظهر شخصية أصحابه، ورمز استقلالهم وتميزهم، ومن ثم يحظى بمكانة تفوق أي شكل لغوي آخر في المجتمع .

٣- وهي شكل له وظائف أكثر ارتباطا بالشئون العامة للأفراد، فهي لغة الدولة بهيئاتها المختلفة، والتعليم بكل مراحله، والعلم بكل فروعه .. إلخ.

٤- وهي شكل لغوي ثابت نسبيا يعد معيارا للصواب وحسن القول، وشكل تحفظه الكتابة وترعاه الهيئات المعنية باللغة، ويحاول الالتزام به أفراد المجتمع .

اللغة العربية الفصحى واللهجات المحلية:

يستخدم العرب اليوم شكلين لغويين متميزين أولهما العربية الفصحى، وهي شكل لغوي معياري مشترك، وثانيهما اللهجات المحلية وهي تختلف باختلاف الأقطار .

والعربية الفصحى اليوم غير واضحة المعالم، وإن كان اللغويون متفقين على أنها هي الشكل الذي تجتمع الأمة العربية عليه: يعينهم علي التفاهم المشترك وقضاء المصالح المتبادلة والتعبير عن الأحاسيس المشتركة. وهي بذلك تؤدي ما تؤديه الإنجليزية المشتركة التي تستخدمها دول متعددة كإنجلترا وأمريكا واستراليا ونيوزيلندا .

ولكن هل حقا يستخدم العرب اليوم العربية الفصحى في صورة مشتركة واضحة المعالم ؟ الحق أننا – إذا أردنا الدقة – لا نفعل، وهذا يذكرنا بما سبق أن قلناه من أن الفصحى أو المعيارية صورة مثالية، ويكفي للتحقق من ذلك أن

تستمع إلى نشرات الأخبار التي تبثها الإذاعات العربية من كل أرجاء الوطن العربي – وعربية هؤلاء المذيعين عربية متفق علي أنها فصيحة – ولن تجد صعوبة كبيرة في إدراك بعض الخصائص المحلية التي تظهر على ألسنة هؤلاء المذيعين .

وإذا كانت الفصحى هي اللغة المشتركة للعرب جميعا، فإن عامية القاهرة هي العامية المشتركة في مصر (إذ هي الشكل المشترك لقضاء المصالح والتعاون بين المصريين جميعا علي اختلاف أقاليمهم). وإذا أردنا الدقة قلنا إن عامية العواصم الإقليمية هي العامية المشتركة لكل إقليم على حدة وإن عامية القاهرة هي العامية المشتركة لهذه العواصم .

وتباشر عامية القاهرة نفوذها الكبير بوسائل الإعلام المسموعة والمرئية وعلى خشبة المسارح وفي دور السينما وفي أروقة المصالح الحكومية ... بل إن بعض الباحثين يرى أن عامية القاهرة لها نفوذ كبير في العالم العربي، فهي محببة إليهم مفهومة عندهم جميعا، ويقربها إليهم أنها تجد طريقها إليهم بيسر في أجهزة الإعلام المختلفة، وأن المصريين يحملونها إليهم في أقطارهم، كما أن القاهرة تعد قبلة العالم العربي التي يتجهون إليها للتعليم أو السياحة أو قضاء المصالح .

بقيت مسألة أخيرة تتصل بالمقابلة بين اللغة الفصحى واللهجات المحلية. فقد ينظر الناس إلى اللغة الفصحى أو المعيارية علي أنها لغويا أرقى من اللهجات المحلية، وأنها المثل الذي ينبغي أن يحتذى، وقد ينظرون إلي اللهجات المحلية علي أنها دون الفصحى وأنها الصورة التي ينبغي أن تجتنب، فالعرب مثلا يجعلون العربية الفصحى في مكانة عليا ويعدون العامية شكلا لغويا أدنى، وهذه هي أيضا نظرة الفرنسيين إلى الفرنسية الفصحى وإلى لهجاتهم المحلية. وهي نظرة اجتماعية لها ما يبررها ولكن هل نجد في الفصحى أو المعيارية صفات لغوية خالصة تجعلها في المكان الأعلى ؟

من حيث الوظيفة تؤدي الفصحى وظائف ربما لا تنهض بها اللهجات المحلية، فهي لغة العلم والسياسة والفن .. إلخ، وتقوم اللهجات المحلية بوظائف أخرى ربما لا تنهض بها الفصحى، فهي لغة الحياة اليومية، لغة البيع والشراء .. إلخ، إذ إن للفصحى مكانًا متميزًا يقدره المتعلم الذي يستخدمها، فربما لا يكون لها نفس المكان عند من يستخدم لهجته المحلية، ويري فيها وسيلة كاملة للاتصال وتحقيق التعاون .

ومن حيث الخصائص اللغوية الخالصة، ليست اللغة الفصحى أو المعيارية أكثر دقة أو أجمل تعبيرا أو أكثر منطقية أو اطرادا من اللهجات المحلية وليست اللهجات المحلية في هذا المجال فسادا أو انحرافا بل يتضح عند البحث أنها ليست أقل دقة أو جمالا أو منطقية أو اطرادا .

إن هذه الأحكام ما هي في الحقيقة إلا أحكام اجتماعية – قد يكون هناك ما يفسرها أو يسوغها – ولكنها ليست أبدا أحكاما لغوية أو علمية .

لهجة الفرد:

قد يتصور البعض أن أفراد الجماعة اللغوية ينبغي أن يتحدثوا بطريقة متماثلة، فهل هذا صحيح ؟

ليس صحيحا بحال من الأحوال أن أفراد الجماعة المعينة – حتى في أصغر أشكالها – يتحدثون لغتهم بطريقة متماثلة، بل الصحيح – وهذا ضروري بحكم انتمائهم اللغوي أنهم يتكلمون بطرق متشابهة، فكل فرد من أفراد الجماعة يظهر في كلامه ما يجعله متميزا عن أي فرد آخر في نفس الجماعة، قد ينطق صوتا ما بطريقة معينة، وقد يميل إلى كلمات بعينها، وقد يؤثر عبارات معينة، أو يفضل أنماطا خاصة من الجمل .

ويطلق اللغويون على الشكل اللغوي الذي يميز فردا عن فرد في جماعة لغوية واحدة مصطلح (idiolect لهجة الفرد) وقد تكون الصفة أو الصفات المميزة له صفة صوتية أو صرفية أو نحوية أو معجمية أو أسلوبية وعلى هذا فلغة الجماعة تتألف من تلك الأشكال الفردية.

على أن هذه الخواص المميزة قد تدق بحيث لا يدركها إلا أهل الاختصاص من اللغويين، أما المتكلم نفسه فهو يعتقد أنه يتكلم كما يتكلم الآخرون، ويرى أنهم جميعا يتكلمون بنفس اللغة .

وفي الحقيقة لا يتنبه السامع إلي مثل هذه الفروق الدقيقة، فانتباهه إنما يتوجه إلي الفروق التي يترتب عليها اختلاف في المعني، وعلي سبيل المثال يدرك السامع الفرق بين الطاء في (طين) والتاء في (تين) والكاف في (كلب) والقاف في (قلب) .. إلخ، بل ربما كان وقوع أحد المتكلمين في الخلط بينهما مجالا لسخريته. ويتمتع كل أفراد الجماعة بروح من التسامح عن الفروق الفردية التي لا تشكل عائقا في التفاهم المشترك، بل إن الطفل في مراحل اكتسابه اللغة المعينة يتمتع بهذه الروح .

واختلاف لهجة الفرد عن لهجة أي فرد في جماعته اللغوية إنما هو نتيجة لعوامل كثيرة بعضها بيولوجي، إذ لا تعمل أعضاء النطق بطريقة واحدة في كل الظروف، وبعضها اجتماعي، وذلك أن كل فرد له صلاته الخارجية التي يتخذ النشاط اللغوي فيها دورا رئيسيا، وبهذا يصبح الفرد عضوا في حلقات لغوية متعددة يأخذ منها وتأخذ منه يتأثر بها ويؤثر فيها. وكلما اتسع مجال اتصاله اتسع معجمه وتنوعت خصائصه التركيبية. وربما كان الفرد ميالا إلي العزلة فتضيق دائرة اتصاله ومن ثم تقل حصيلته ولا تتنوع أشكاله اللغوية .

أما اللغوى فيستطيع أن يتبين هذه الفروق مهما دقت، بل قد أثبتت بعض البحوث اللغوية أن الفرد نفسه يختلف نطقه بعض الاختلاف في كل مرة يتكلم فيها وإن استخدم نفس الكلمات، لأن أعضاء النطق لا تقوم بوظائفها دائما بنفس الصورة. وإن كان اللغوي يكتفي عادة بتلك الصفات العامة التي تميز الجماعة اللغوية ويشترك فيها جميع أفرادها، وكثيرا ما يلجأ اللغوى إلى فرد من أفراد الجماعة في التعرف على تلك الصفات العامة باعتباره ممثلا لهذه الجماعة .

الثنائية:

يستخدم بعض اللغويين المصطلح diglossia للإشارة إلي فرد أو جماعة

يستخدمان لغتين أو مستويين من لغة واحدة. ويستخدم آخرون مصطلحا آخر هو bilingualism يعنون به حينا ما يعنيه السابقون بالمصطلح diglossia ويعنون به أحيانا فردا أو جماعة تستخدم لغتين.

ويستخدم لغويون آخرون المصطلح (bilingualism ثنائية اللغة) يعنون به، أن يتمكن فرد أو جماعة من استخدام لغتين بطلاقة، ومن أمثلتها : العربي الذي يتمكن من الإنجليزية تمكنه من العربية تعلما أو دراسة، والإنجليزي أو غيره الذي ينجح في استخدام العربية كما يستخدم لغته القومية، و : الطفل الذي يعيش بين أم تتكلم لغة وأب يتكلم لغة أخرى ويتمكن من استخدام اللغتين بطلاقة ويسر، و: المصري النوبي الذي يتقن العربية، كما يتقن النوبية لغته الأم .

ويعنون بالمصطلح (digglossia ثنائية اللهجة أو المستوي) ظاهرة موجودة بين جماعة لغوية تستخدم لغتها وفقا لمستويين : اللغة العالية أو المعيارية، وتستخدم في المصالح الحكومية وفي أجهزة الإعلام وفي التعليم وفي أداء الشعائر الدينية، وهي في الغالب مكتوبة : اللغة الهابطة أو الدارجة، وتستخدم في قضاء مطالب الحياة اليومية في البيت وفي السوق ..إلخ، وهي منطوقة فحسب. وفي بعض الظروف أو المواقف يظهر مستوى ثالث وسيط بين المستوي العالي والهابط.

والعالم العربي اليوم من المجتمعات الثنائية، فالعربية الفصحى يقف بإزائها العامية منسوبة إلى قطر بعينه (المصرية أو السورية .. إلخ).

وتؤكد البحوث التي حددت مستويات العربية المعاصرة في مصر أنها خمسة هي : فصحى التراث وفصحى العصر (وهما ترجعان إلى المستوى العالي) وعامية المثقفين، وعامية المتنورين وعامية الأميين (وهى ترجع إلى المستوى الهابط) .

ومن الملاحظ أن تحديد المستويين قائم على أساس الظروف التي يستخدم فيها كل مستوى، فالمستوى العالي يستخدم في مجالات معينة أغلبها يتصل

بالأعمال المكتوبة، كتب الأدب، المؤلفات العلمية .. إلخ، ويستخدم كذلك في التعليم وفي أجهزة الدولة الرسمية أما المستوي الهابط فيستخدم في مجالات الحياة اليومية العادية : كالحديث العادي في البيت أو في السوق ... إلخ ويترتب علي هذا الفهم أن الفرد الواحد قد ينجح في استخدام المستويين بكفاءة. ولنفترض الآن أن خطيبا يريد أن يلقي خطبة في المسجد، سوف يستخدم بالطبع المستوي العالي (الفصيح) أما إذا أراد أن يذهب إلي السوق ليشتري غرضا من الأغراض فسوف يستخدم المستوي الهابط (العامية) .

ولدى الفرد – ثنائي اللغة bilingual أو ثنائي المستوى diglossic قدرة كبيرة علي الانتقال من لغة إلى لغة أو من مستوى إلى آخر. والمبدأ العام في ذلك أنه من المحتمل أن يظهر في كلامه خصائص ناتجة عن تأثير لغة في لغة أو لهجة في لهجة، وعلى أية حال، فإن هذا الشخص لن يسمح في الغالب بالتداخل اللغوى أن يحدث عمدا، لأن صاحب اللغة يحاول دائما أن يلتزم بمقياس محدد.

وكثيرا ما نسمع النوبي المصري يقول للمذكر أنت طيبة (بصفة المؤنث واليوناني المصري حين يقول : واحد راجل وواحد كتاب ... إلخ .

وتأثير الفصحى في العامية أو العكس تأثير ملحوظ ومدرك لا يحتاج إلى بيان في هذا المقام.

اللهجات الجغرافية واللهجات الاجتماعية:

توصف اللهجة بأنها جغرافية إذا استخدمها جماعة من الناس يقيمون في منطقة جغرافية محددة، فلهجة الدقهلية مثلا محددة (فرضا) بحدود جغرافية تفصلها عن اللهجات الأخرى المجاورة .

وليس معنى هذا أن حدود اللهجة لغويا هي حدود محافظة الدقهلية الجغرافية، فقد أشرنا قبلا أن الظواهر اللهجية من التعقيد والتنوع بحيث لا يمكن فصل كل لهجة عن الأخرى فصلا واضحا في منطقة من المناطق، وهذه

المنطقة شبيهة بالمنطقة التي بين لونين من ألوان الطيف فلا يمكن أن نتبين إلى أي اللونين تنتسب هذه المنطقة ومع هذا فالتقسيم الجغرافي الذي قد يراعي عند التقسيم الإداري له أهميته بل هو العامل الأعظم تأثيرا، وذلك لأن اللهجات الجغرافية غالبا ما تنشأ في ظل ظروف جغرافية محددة (وجود جبال أو صحاري أو غابات أو أنهار).

وهناك أيضا اللهجات الاجتماعية التي تستخدمها جماعة خاصة أو طبقة معينة في إطار الجماعة اللغوية المعينة. فسوف نجد في إطار هذه اللهجة المحددة جغرافيا لهجات اجتماعية، قد تكون مثلا لهجة للعمال الذي يعملون في مصانع المدينة المجاورة، أو لهجة للمتعلمين الذين أتموا تعليمهم بالمدينة، أو لهجة أسرة العمدة ذات الثراء العريض والنفوذ الكبير .. إلخ، مثل هذه اللهجة توصف بأنها لهجة اجتماعية أو طبقية .

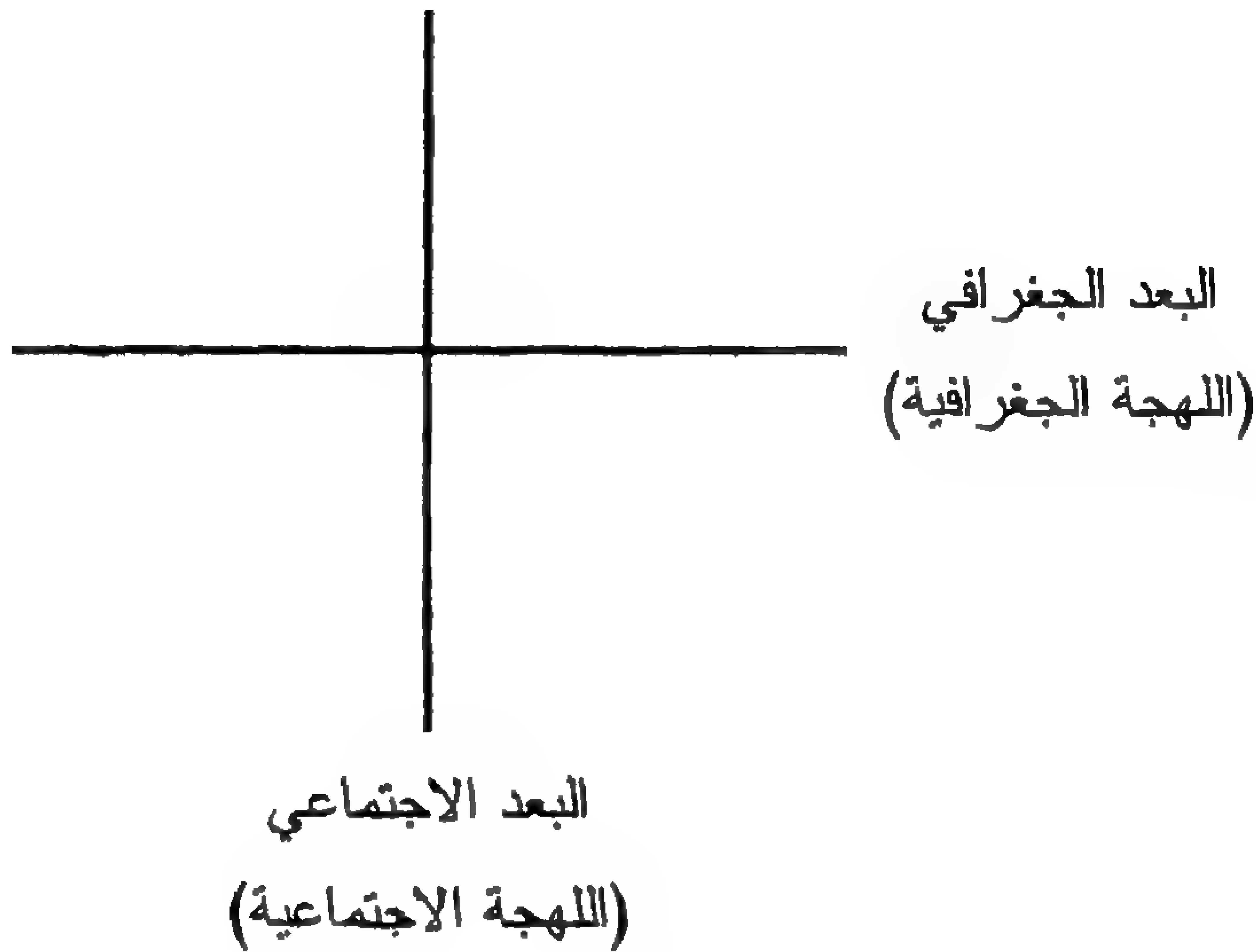
وعلماء اللهجات حين يتحدثون عن لهجات اجتماعية يشيرون إلى عوامل غير جغرافية، وبسبب هذه العوامل قد نجد في لغة المتكلم ظواهر لغوية مشتركة مع ناس آخرين من طبقته الاجتماعية في منطقة جغرافية مختلفة أكثر مما يكون بينه وبين طبقة اجتماعية أخرى في نفس المنطقة .

ولنضرب مثلا لذلك قد يكون المتكلم طبيبا من قرية ما، قد نجد بين لغته ولغة الأطباء الآخرين الذين يقيمون في مناطق مختلفة وجوه شبه أكثر مما هو موجود بين لغته ولغة أحد العمال من قريته ذاتها .

والعوامل التي تؤثر في نشأة اللهجات الاجتماعية تتمثل فيما بين طبقات الناس وفئاتهم من فروق في الثقافة والتربية ومناحي التفكير والوجدان ومستوى المعيشة وحياة الأسرة والبيئة الاجتماعية والتقاليد والعادات وما تزاوله كل طبقة من أعمال وتضطلع به من وظائف .

ومن العوامل ذات التأثير جنس المتكلم رجلا أم امرأة وعمره فثمة لهجة للنساء وأخرى للرجال، وثمة لهجة للشباب وأخرى للشيوخ .. إلخ.

وليس معني التقسيم السابق هو تميز اللهجة الجغرافية أو المحلية عن اللهجة الاجتماعية أو الطبقية - فهذا التقسيم ليس حاسما فالتنوع اللهجي جغرافيا أو اجتماعيا يمتزج بعضه ببعض، فالفرد الواحد ينتسب إلي لهجته المحلية باعتباره فردا مقيما في حدود جغرافية معينة، وهو نفسه ينتسب إلى لهجته الاجتماعية باعتباره فردا فى هيئة اجتماعية معينة .



وعلى هذا يمكن تقسيم مصر أو أي قطر آخر تقسيما أفقيا (أى تقسيما لهجيا جغرافيا) ثم نصنف كل واحدة من هذه اللهجات تقسيما رأسيا (أى تقسيما لهجيا اجتماعيا).

وقد بينا آنفا أنه من العسير وضع حد يفصل لهجة محلية عن لهجة محلية أخرى، ومن العسير أيضا أن نحدد بدقة حدا يفصل لهجة اجتماعية عن لهجة اجتماعية أخرى. بيد أن هذه الصعوبة يجب إلا تلجئنا إلى القول بأن فكرة وضع حدود جغرافية أو طبقية فكرة غير مفيدة أو غير صحيحة، ذلك أن اللهجة (محلية أو طبقية) لها وجود اجتماعي ونفسي ولها أيضا وجود لغوي، فأفراد الجماعة اللغوية لديهم إحساس بانتمائهم الإقليمي وبانتمائهم الطبقي، ولديهم

أيضا إحساسهم بشخصيتهم المتميزة ، بل لديهم – وهذا هو الأهم إحساسهم بانتمائهم إلى لهجة معينة تميزهم عن غيرهم من أصحاب اللهجات الأخرى .

والمشكلة التي تعترضنا في محاولة وضع أسس للهجات الاجتماعية أن الفرد الواحد قد ينتمي إلي أكثر من لهجة اجتماعية واحدة، أو بعبارة أخرى يستطيع الفرد أن ينتقل من لهجة اجتماعية إلي لهجة اجتماعية أخرى تبعا للموقف المحدد .

فأستاذ الجامعة – قد يكون منتميا مثلا إلى لهجة المثقفين أو إلى لهجة الجامعيين من المثقفين. ومع ذلك، إذا نزل إلى السوق ليشترى شيئا فلن يستخدم لهجته الاجتماعية المتميزة، وإذا ما عاد إلى قريته مثلا سوف يحاول ما استطاع أن يتحدث كما يتحدثون، وكما كان يتحدث هو حين كان أحد أفراد هذه القرية. ولعلنا جميعا نذكر شيخ القرية حين يغادر قريته إلي المدينة فيحاول أن يتكلم بلهجتهم فيصيب أحيانا ويخطئ أحيانا.

ويظهر تأثير الطبقية أقوي ما يكون في لغات الشعوب ذات التقاليد والأعراف التي تحافظ علي مظاهر الخلاف بين الطبقات، ففي اليابانية مثلا توجد ألفاظ مختلفة لا باعتبار الإفراد والجمع فحسب، بل باعتبار مكانة المخاطب الاجتماعية، فضمير المتكلم المفرد المذكر ليس كلمة واحدة بل عدة كلمات حسب المكانة الاجتماعية للمخاطب وفي لغات (بورما) يختلف تصريف الفعل باختلاف مركز من تخاطبه ويستعمل سكان (جاوه) لغة عادية فيما بينهم ولغة خاصة بخطاب الأمراء، ولغة لخطاب الحكام وذوي الجاه، ولغة تستعمل فحسب في قصور الملوك، ولغة تستعمل للحديث عن الملوك والأمراء .

اللهجة والأسلوب:

لقد تبين لنا أن اللهجة جغرافية أو اجتماعية تحددها شخصية المتكلم : المنطقة التي يقطنها أو الطبقة التي يشغلها في المجتمع. ولهذا تختلف اللهجات باختلاف المناطق الجغرافية وباختلاف الطبقات الاجتماعية. إن اللهجة أو

اللهجات التي يكتسبها الفرد أو يستخدمها دليل على هويته في المجتمع .

وثمة تنوعات أخرى في اللغة مستقلة عن هوية الفرد في المجتمع، وإنما تحددها أمور أخرى : الموضوع الذي يتحدث فيه، أو الشخص الذي يتحدث إليه أو الوسيلة اللغوية التي استخدمها في الاتصال. إن هذه التنوعات هي ما يطلق عليها : الأسلوب. وإذا كنا قد انتهينا إلي أن اللهجة تتحدد بصفات لها علاقة بالمتكلم فقد يجوز لنا هنا أن نقول : **إن الأسلوب يتحدد بصفات لها علاقة باستخدام اللغة .**

ونحن - كما يقول (هدسن) - في حاجة ماسة إلى هذا التفريق بين التنوعات اللهجية والأسلوبية، لأن الشخص الواحد قد يستخدم أشكالا لغوية مختلفة جدا ليعبر عن نفس المعنى تقريبا في مناسبات أو ظروف مختلفة .

قد يستهل شخص ما خطابا قائلا: سيدي أحيطكم علما بأن ....، وقد يستهل خطابا آخر بقوله: أخي العزيز أخبرك بأن ....، وقد يقول شيئا آخر غير هذا وذاك.

وقد يقول شخص ما لشخص آخر : لو سمحت هات الكتاب .

وقد يقول : الكتاب من فضلك .

وقد يقول : هات الكتاب .

وقد يقال شيء آخر يختلف عما سبق، مما يؤكد أن التنوع الأسلوبي ربما لا يكون له حد .

ومن الواضح أن التنوع الأسلوبي راجع إلى الحدث الكلامي نفسه لا إلي المتكلم الذي أنتج الحدث .

وقد وضع اللغوى (هاليداي) ثلاثة أبعاد يعتقد أنها تحدد الحدث اللغوي تحديدا دقيقا هي: (Field) والنمط (Mode) والحال (Tenor) .

يتصل المجال بموضوع الحدث اللغوي وبهدف الاتصال، وبعبارة أخرى

ماذا يقال ؟ ولماذا ؟ قد يكون الموضوع مثلا عن رحلة صيد يزمع المتكلم القيام بها وقد يكون غرضه من الحديث أن يغري السامع بالاشتراك فيها .

وقد يكون عن دور اللهو ويهدف المتحدث إلي تحذير السامع من ارتيادها.

ويشير النمط إلي الوسيلة التي يتم بها الاتصال، هذه الوسيلة قد تكون الكتابة أو الحديث بمختلف أشكالها : رسالة مسجلة علي شريط، إعلان علي شاشة التليفزيون .. إلخ، وبعبارة أخرى : كيف يتم الاتصال .

أما الحال Tenor فيعتمد علي العلاقة بين المشتركين في الحديث اللغوي. قد يكون المتحدث صديقا للسامع، وقد يكون رجل دين يلقي خطبة أمام المصلين، وقد يكون قاضيا يسأل سجينا، وقد يكون عاشقا يبث غرامة إلى محبوبته ... إلخ وبعبارة أخرى إلى من يوجه الحدث اللغوى وكيف يراه المتكلم.

ولعل نظرة إلي أسلوب النداء في العامية المصرية تؤكد ما سبق أن قرره اللغويون من تنوع الأساليب وتعدد صورها نذكر منها مثلا :

يا سيدى ، يا حبيبي ، يا خويا ، يا واد ، يا باشمهندس ، يا دكتور ، يا ريس ، يا عم، يا عمى ، يا أبو أحمد ، ياحاج ، يا كابتن ، يا ست .. إلخ .

ومثل ذلك أيضا " التحيات " صباح الخير ، صباح الفل ، صباح الإشطة ، السلام عليكم ، سعيدة ، العواف ، مع السلامة .. إلخ .

ونطلب من القارئ الآن أن يتأمل الأساليب السابقة ثم يسأل إلي من تقال وما الغرض منها، وسوف يتبين له أن المتكلم حين يستخدم كل أسلوب منها يختار من بين مفردات لغته وتراكيبها ما يراه مناسبا لموضوع الكلام ملائما للمخاطب، ويختار كذلك الوسيلة التي تحقق هدفه، وصدق من قال : إن الأسلوب اختيار .

وقد حدد العالم (مارتن جوز) الأساليب التي يمكن للفرد أن يستعملها علي النحو الآتي:

الأسلوب الجامد : وهو الذي يستعمل فيه كلام رسمي جدا، لا يراعي فيه أي اعتبار لوجود السامع، لأنه لن يستطيع أن يؤثر فيما يقال : كأسلوب الخطب الرسمية بالإضافة إلي معظم ما يكتب منثورا .

الأسلوب الرسمي : وهو أسلوب لا يشارك فيه السامع أيضا كالخطب المعدة سلفا إعدادا جيدا، والمحاضرات التي تلقي علي الطلاب والأحاديث الموجهة عبر الإذاعة والتليفزيون. ويدل هذا الأسلوب على المسافة الاجتماعية البعيدة بين المتكلم والسامع ومن أمثلته كذلك ما يكون من حديث بين الموظف ورئيسه وبين الطالب وعميد الكلية .. إلخ .

الأسلوب الاستشاري : وفيه كثير من خصائص الأسلوب الرسمي، ولكنه يتطلب اشتراك واستجابة المستمع، ولا يخطط له المتكلم بعناية بالغة، كما يتجنب فيه استخدام العبارات المقننة ومن أمثلته: ما يكون من حديث بين رئيس الدولة والوزراء والمستشارين، وبين رئيس هيئة أو مصلحة ورؤساء الأقسام، وبين عميد الكلية، وأعضاء هيئة التدريس ..إلخ.

الأسلوب العادى: وهو الأسلوب الذي يستعمله الأصدقاء فيما بينهم أو الذي يتخذه جماعة من الناس تناقش موضوعا مألوفا لديهم، ويفترض هذا الأسلوب قدرا كبيرا من المفاهيم والمعلومات المشتركة بين المتحدثين، ويغلب أن يكون بالعامية وتكثر فيه الجمل الناقصة وأشباه الجمل ... إلخ.

أسلوب الألفة الشديدة : وهو أقل الأساليب رسمية ويتألف عادة من أشباه جمل ومفردات وإيماءات ويتم بالعامية، ويبدو أن وظيفة هذا الأسلوب هي التعبير عن الأحاسيس والعواطف أكثر من نقله للأفكار، ومن أمثلته: ما يدور بين الأصدقاء والأقارب ورفقاء العمل من أحاديث.

ويشكك بعض الباحثين في الطرق التي يقترحها العلماء لتصنيف الأساليب وفقا للأبعاد التى سبق الحديث عنها .

لقد لاحظ الباحثون مثلا أن العلاقات بين المتكلم والمخاطب تتضمن كثيرا

من الأبعاد: منها علي سبيل المثال :

بعد النفوذ أو السلطة التي يباشرها المتكلم على المخاطب أو العكس فقد يكون أحدهما أعلى نفوذا أو مساويا له أو أدنى منه.

وبعد التماسك الاجتماعي : فقد يكون أحدهما قريبا للآخر (والقرابة درجات)، وقد يكون صديقا له أو زميلا في دراسته أو عمل .. إلخ.

بعد السن : فيكون أحدهما أسن من الآخر أو مقاربا له .

بعد الجنس: فيكون أحدهما رجلا أو امرأة .

وهكذا تختلف الأبعاد التي تحدد نوع العلاقة ودرجتها مما يجعل التنوع الأسلوبي تنوعا لا حد له .

ولاحظوا أيضا أن تحديد الأساليب وفقا للموضوعات أو للأغراض عمل غير محكم، إذ يرون أن اللغوي الذي يحاول أن يحدد ما يمكن أن يسمي الأسلوب الديني أو الأسلوب القضائي أو الأسلوب الطبي .. إلخ، أو ما يسمي الأسلوب الجامد أو الرسمي أو الاستشاري ...إلخ، إنما يحاول محاولة تحكمية من تحديد اللهجات الاجتماعية تحديدا دقيقا.

ويفسر أحد اللغويين ذلك بقوله : إن أنماط الأساليب ليس لها عادة حقيقية اجتماعية نفسية، فالناس ليسوا مدركين تماما لتنوع الأساليب وليس لديهم مثلا أسماء لكل نوع منها، مثل ما هو متوفر لديها من أسماء اللهجات المحلية .

وعلي الرغم مما قيل فدراسة الأساليب تحظى هذه الأيام باهتمام بالغ، والباحثون في هذا المجال في أول الطريق .

ومن الواضح أن المتكلم يستطيع أن ينتقل من أسلوب إلى أسلوب آخر، وبراعة المتكلم في الانتقال ودقته في مطابقة الأساليب لمقتضيات الأحوال لها تأثير بالغ في حياته ومستقبله .

فقد يوفق الشخص في اختيار الأساليب المناسبة للحديث مع شخص له

أهميته فيفوز برضاه وتفتح لـه أبواب السعادة، وقد يخطئ آخر الطريق فليقي السخط وتنغلق دونه الأبواب .

والناس يدركون هذا، ولعلنا لاحظنا أن بعض الذين يطمحون إلي الانتقال من طبقة إلي طبقة يحاولون ما استطاعوا إلي ذلك سبيلا أن يصطنعوا لهجتها ويتحدثوا بأساليبها .

ومثل ذلك ما يحاوله البعض من اصطناع أساليب الطبقة الدنيا تقربا أو تطرفا أو لقضاء حاجة من الحاجات أو لغير هذا وذلك .

ونلخص الآن أهم النتائج التي انتهينا إليها :

١- تتحدد اللهجة وفقا لمعايير تراعي المتكلم، ويحددها المنطقة التي يقطنها، والطبقة التي يشغلها في المجتمع .

٢- يتحدد الأسلوب وفقا لخصائص تتصل بالاستعمال اللغوي : موضوع الكلام وهدفه، وحال المخاطب وطبيعة علاقته بالمتكلم، والوسيلة التي يستخدمها في الاتصال .

٣- يستطيع المتكلم أن ينتقل من أسلوب إلى أسلوب، وبراعته في استخدام الأساليب وفقا لمقتضيات الأحوال لها أهمية بالغة في حياته .

٤- تتنوع الأساليب تنوعا بالغا وفقا للأبعاد التي حددها الباحثون، ولعل هذا ما يغرى الباحثين في ارتياد هذا المجال الدراسي الخصيب .

بقي في الموضوع إشارة موجزة إلي جهود علماء العربية في هذا المجال .

المقام عند علماء البلاغة:

لعلماء البلاغة العربية شأن كبير في دراسة المقام أو الحال، وما ينبغي أن يقال في كل مقام، بل إنهم عرفوا البلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال يعنون بذلك أن يجيء الكلام مطابقا للمقام أو الحال التي يكون عليها المخاطب. مثال ذلك أن نقول لمن ينكر حضور الأستاذ لإلقاء محاضرته: إن المحاضر

قادم، فكون المخاطب منكرا: حال أو مقام، ومجيء الكلام مؤكّدا: مطابق لحاله، وهذه هي البلاغة .

وقد أدركوا تفاوت المقامات وقالوا في ذلك كلاما طيبا يقول السكاكي : لا يخفي عليك أن مقامات الكلام متفاوتة فمقام التشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء علي الاستخبار أو الإنكار ومقام البناء علي السؤال يغاير البناء علي الإنكار، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي ولكل من ذلك مقتضى غير الآخر .

ومن هذا النص نتبين أن علماء البلاغة قد أدركوا أن الكلام يتفاوت بتفاوت الأغراض وأحوال المخاطبين .

وقد وضعوا لذلك حدودا استخلصوها من مأثور الكلام العربي وما ذكروه يشهد بدقة الحس ورفاهة الذوق .

فالسكاكي مثلا عند حديثه عن الإسناد الخبري يقرر أن الإسناد يختلف باختلاف أحوال السامع فإذا كان خالي الذهن لم يؤكد له، وإذا كان متحيرا أكد له بمؤكد واحد، وإذا كان منكرا أكد بمؤكدين أو أكثر .

وعند حديثه عن الأمر يقرر أنه يجيء في الأصل علي سبيل الاستعلاء بيد أنه يأتي لأغراض أخرى لمراعاة أحوال المخاطبين .

فإذا كان من الأعلى للأدنى يكون أمرا على الأصل أو تهديدا أو زجرا أو وعيدا بحسب القرائن، وإن كان من المساوي يكون التماسا أو سؤالا أو إباحة بحسب القرائن، وإن كان من الأدنى للأعلى يكون رجاء أو دعاء أو تضرعا بحسب القرائن .



ملخص لمفردات الوحدة

اللغة واللهجة:

الجماعة اللغوية ومعايير تعريفها:

١- المعيار اللغوي.

٢- الوحدة السياسية.

٣- التفاهم المشترك.

٤- الشعور بالانتماء.

- اللغة الفصحى أو المعيارية Standard Language .
- الفصحى واللهجات.
- لهجة الفرد.
- الثنائية (اللغوية واللهجية).
- اللهجات الجغرافية والاجتماعية.
- اللهجة والأسلوب.

١- أبعاد التنوع الأسلوبي عند (هاليداى): المجال، والنمط، والحال.

٢- أنواع الأساليب عند (مارتن جوز)

المقام عند علماء البلاغة العرب.

أسئلة على الوحدة الثالثة

أسئلة محلولة:

ضع علامة (√) أو (×) بين القوسين فيما يأتي:

١. تعريف اللغة أو اللهجة يتوقف على تعريف الجماعة اللغوية (√)

٢. وجود لغة أو لغات غير اللغة الرسمية يغري بظهور حركات انفصالية تنادي بالإستقلال عن الدولة (√)

٣. اللغة الأمازيغية بالجزائر هي اللغة الرسمية للبلاد (×)

٤. بين السويدية والنرويجية تشابه يسمح بالتفاهم بين سكانها (√)

٥. الفصحى أو المعيارية مستوى لغوى مساو لمستوى لهجات الخطاب (×)

٦. اللغة المشتركة هي اللغة التي يمكن لسامعها أن يتبين المنطقة التى ينتمى إليها المتكلم (×)

٧. اللغة الفصحى أو المعيارية تحظى بمنزلة خاصة في مجتمعها (√)

٨. وجود نظام هجائى ثابت للغة الفصحى يدعم مكانتها ويحافظ على أنظمتها المختلفة (√)

٩. لا يتسلح أفراد الجماعة اللغوية فى قبول الفروق التى لا يبنى عليها فروق فى المعنى (×)

١٠. يتحدث أفراد الجماعة بطرق متشابهة لا متماثلة (√)

١١. ليس لدى أفراد اللهجة المعينة إحساس بانتمائهم إلى لهجتهم (×)

١٢. قد يستخدم الشخص الواحد أشكالاً لغوية مختلفة ليعبر بها عن نفس المعنى فى ظروف مختلفة (√)

١٣. مفهوم النمط عند (هاليداى) يتصل بوسيلة الاتصال (✓)

١٤. لا تأثير للجنس أو السن فى اختيار الأسلوب (×)

١٥. البلاغة عند علماء العربية مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته (✓)



القسم الثانى

الوحدة الأولى

علم اللغة وفقه اللغة

الهدف:

تهدف هذه الوحدة إلى:

- تحديد مفهوم علم اللغة.
- تحديد المنهج الذي تسير عليه الدراسة في اطار هذا العلم.
- بيان الموضوع الذي يعنى هذا العلم بدراسته.
- بيان الهدف الذي يسعى علم اللغة إلى تحقيقه.
- إبراز الفرق بين مصطلح علم اللغة عند المحدثين من جانب ومصطلحات : علم اللغة - العربية - لغة - متن اللغة - فقه اللغة عند العلماء العرب قديما وحديثا من جانب آخر .
- تحديد الفرق بين مصطلح Linguistics من جانب ومصطلح Philology عند العلماء الغربيين قديما وحديثا من جانب آخر.

الوحدة الأولى
علم اللغة وفقه اللغة

مفهوم علم اللغة ومنهجه :

اصطلح علماء اللغة المحدثون على تسمية العلم الذى يدرس اللغة دراسة علمية بـ (Linguistics) أى علم اللغة The science of language، فهو علم بمعنى أنه يتخذ المنهج العلمى طريقة وأسلوباً يعالج به مسائل اللغة ويحدد ديفيد كريستال مقومات المنهج العلمى ويحصرها فى ثلاثة ملامح :

أ - الوضوح explicitness .

ب - الانتظام والثبات systematicness .

جـ -الموضوعية objectivity .

فالتزام الدراسات اللغوية الحديثة بهذه الأسس التى ينبغى أن تتسم بها أية دراسة علمية جادة، سواء من حيث وضوح الأفكار والأسس والمصطلحات التى تبنى عليها الدراسة أو النظامية التى تقتضى تسلسل الخطى بحيث تسلم كل خطوة من خطوات الدرس إلى التى تليها ، أو الموضوعية التى تعنى التجرد عند التحليل، والتزام الحيدة فى التناول مما يسلم إلى نتائج قريبة من الواقع مهدت لها معطيات البحث ومسلماته - هذا (الالتزام) هو الطابع العلمى الذى ميز الدراسة اللغوية فى إطار علم اللغة الحديث منها عند القدماء ويحدد جون لا ينزر هذا الفرق بقوله إن "الألسنية تجريبية وليست حدسيّة كما تتصف بالموضوعية".

وفى آخر عبارة كتبها سوسير فى كتاب (محاضرات فى علم اللغة العام) حدد هذا العالم بوضوح موضوع هذا العلم قائلاً "موضوع علم اللغة الصحيح والوحيد The true and unique object هو اللغة المدروسة فى ذاتها ومن أجل ذاتها in and for itself " .

فهذا العلم الذى يدرس اللغة دراسة علمية من حيث المنهج ، وتنصب الدراسة على اللغة معتبرة في ذاتها من حيث الموضوع ، ومن أجل ذاتها من حيث الغاية ، هو ما يسميه العلماء بـ "علم اللغة".

وعلم اللغة بهذا المفهوم علم حديث النشأة لم تتحدد ملامحه بدقة إلا فى بداية القرن العشرين ، وتنتمى جل مباحثه الأساسية إلى هذا القرن بالتحديد، وما سبقه في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لا يعدو أن يكون مخاضاً يؤذن بمولد هذا العلم على يد سوسير وحوارييه.

وهذا العلم لا يدرس لغة معينة ، وإنما يدرس اللغة بوصفها ظاهرة إنسانية عامة ، والبحث فى اللغة بهذا المفهوم الواسع يهدف إلى جلاء أكثر ، وفهم أدق لطبيعة هذه الظاهرة ، من ثم فإن علم اللغة يركز على اللغة ذاتها ، فيبدأ بفهم أنظمتها المختلفة ، وتحليل بنيتها الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية ، ودلالة مفرداتها وتراكيبها ، كما يسعى هذا العلم إلى التعرف على كيفية أداء هذه الوحدات لعملها ، وكيف يتعلق بعضها ببعض فى نظام كبير يؤدى وظيفته على أكمل وجه فى المجتمع المعين ، ثم يسعى بعد ذلك لمعرفة علاقة هذا النظام بهذا المجتمع ، مما يقتضى معالجة قضية حياة اللغة ، وما يعتريها من تطور فى مجتمعها ، وما يطرأ عليها من غنى وفقر وسعه وضيق ، وعظمة وضعة ، ونمو وانقراض، وأسباب ذلك كله ، وما ينتج عنه من آثار خلال الرحلة الطويلة للغة سواء فى توحد اللهجات فى لغة واحدة مشتركة ، أو انقسام اللغة إلى لهجات عدة، كما يدرس التنوعات المختلفة والمستويات المتعددة داخل اللغة وأسبابها ووظائفها ، وعلم اللغة حين يدرس اللغة فى ذاتها فهذا يعنى أنه لا يميز فى دراسته بين وظيفة من وظائف اللغة وأخرى ، ولا بين مستوى من مستوياتها وآخر ، بل يعنى بذلك كله، ولا يعنيه فى حقيقة الأمر إلا التحديد العلمى الدقيق للمستوى المدروس ، تحليلا ووصفاً ، سواء أكان فصيحاً أم عاميا ، لغة أم لهجة، منطوقا أم مكتوباً ، قديماً أم حديثاً ، راقياً أم مبتذلاً ، كما أنه حين يدرس اللغة لذاتها فهذا يعنى أنه لا يسعى إلى تحديد قواعد أو قوانين يلزم بها أحداً ولا يقنن

ما ينبغي أن يقال كما كان يهدف الدرس اللغوى فى الماضى ، فعلم اللغة الحديث مجرد علم يركز على وصف ما هو كائن بالفعل ، وإذا كانت الدراسة قد ركزت على اللغة ذاتها فالهدف من الدراسة هو الفهم الصحيح للغة ، وإذا كان هدف العالم الذى يدرس حياة النحل أن يتعرف حقيقة هذه الحياة ، فالحقيقة العلمية وحدها هى الهدف ، والأمر كذلك بالنسبة للدراسة العلمية للغة إنما الهدف منها هو الوصول لحقيقة اللغة ، أما الغايات الأخرى سواء منها المتصل بتعليم اللغة أو حل مشكلات الترجمة أو معالجة أمراض الكلام أو الاستعانة بها فى فهم الظواهر النفسية أو الاجتماعية أو الأدبية أو الجغرافية.. إلخ . فتلك غايات أخرى يسعى إليها علماؤها استفادة من نتائج علم اللغة الذى أصبح بهذا المنهج الدقيق أحد العلوم الدقيقة ، وربما كان أدق العلوم الإنسانية على الإطلاق الأمر الذى دعا المنظر الأنثربولوچى الشهير ليفى شتراوس إلى أن يقول : "إن علم اللغة (من بين العلوم الإنسانية) هو "العلم الوحيد" الذى يستحق - فى واقع الأمر - اسم العلم ، لأنه نجح فى صياغة منهج إيجابى ، ونجح فى معرفة طبيعة الحقائق التى يخضعها للتحليل" .

وقد طور التحويليون هدف الدراسة العلمية للغة ، حيث ينصب الهدف على بناء نظرية استدلالية deductive theory تنطبق على كل اللغات، من خلال سعى الدراسة لتحديد الخصائص العامة للغة البشرية ، فليس الهدف هو الدراسة فى حد ذاتها كما سعى الوصفيون ، بل الدراسة لإثبات وجود ملامح كلية مشتركة بين جميع اللغات ، وتحديد ملامح هذا النحو العالمى المشترك بينها بحيث تتمكن فى النهاية من تطبيق هذه النظرية على جميع اللغات ما نعرفها وما لا نعرفها ، إنّ على علم اللغة عند تشومسكي "أن يكون عاما وشاملاً ومحدداً للخصائص الأساسية للغة الإنسانية" .

أما القاسم المشترك بين الوصفيين والتحويليين على سواء فهو الاتفاق على الطبيعة العلمية لدراسة اللغة . وإن اعتمدت عند الوصفيين على الآلية التجريبية، على حين تتكئ عند التحويليين على منهج الاستدلال العقلى الذى يستند إلى

الرياضيات من جانب كما يحاول الاستفادة من معطيات عدد من العلوم الآخرى كالمنطق والحاسب الآلى ، وعلم النفس وغيرها.

مصطلحات الدرس اللغوى قديما :

عندْ العرب:

إن المتأمل فى التراث اللغوى العربى سيجد عددا من المصطلحات التى تشير إلى صنف من الدراسات اللغوية أو أصناف منها ، ومن بين هذه المصطلحات تجد:

علم اللغة - اللغة - العربية - متن اللغة - فقة اللغة

أما علم اللغة : وهو عندهم علم يعنى بمشكلات الثروة اللفظية ، وهو قسيم لعلم النحو ، وعلم البيان ، وعلم الأدب وابن خلدون يشير إلى مجال علم اللغة بالمصنفات التى تعنى بقضاياه ، ومنها العين للخليل ، والصحاح للجوهرى وأساس البلاغة للزمخشرى ، وفقه اللغة للثعالبى ، والألفاظ لابن السكيت ، والفصيح لثعلب ، فهو علم إذن يعنى بجمع الثروة اللفظية ، على نحو ما يجرى فى المعاجم والرسائل والكتيبات اللغوية التى تعالج مشكلات هذه الثروة ، كالقلب والإبدال والاشتقاق ، والترادف والمشترك والأضداد وغيرها.

أما مصطلحا ، لغة ، ومتن اللغة : فإنهما مصطلحان يشيران إلى ما يشير إليه مصطلح علم اللغة ، فعلى حين يعد الخليل، والنضر بن شميل، والأصمعى من اللغويين - نجد ابن أبى اسحق، ويونس، وسيبويه من النحاة ، وهذا التصنيف عموماً هو على سبيل التغليب فحسب؛ لأن الخليل وابن جنى وابن سيده هم من اللغويين ؛ وهم أيضاً من النحاة ، وتصنيفهم بوصفهم لغويين هو من قبيل التغليب، وكل ذلك يعنى أن نتاج هؤلاء هو من قبيل اللغة أو متن اللغة ، أى ما يشير إليه مصطلح علم اللغة نفسه .

أما العربية ، وعلم العربية : فهما مصطلحان يقصد بهما علم النحو . فهذا الزبيدى في الطبقات يقول : "أول من أصل النحو ، وأعمل فكره فيه أبو الأسود

الدؤلي (ت ٦٨)، ونصر بن عاصم (ت ٩٨)، وعبد الرحمن بن هرمز (ت ١١٧)، فوضعوا للنحو أبوابا ، وأصلوا له أصولاً ، فذكروا عامل الرفع والنصب والخفض والجزم، ووصفوا باب الفاعل والمفعول والتعجب والمضاف".

وعن صنيع أبى الأسود نفسه قيل : "إنه أول من أسس العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع قياسها " فما قام به أبو الأسود هو نحو أو عربية".

وابن فارس يقول "وكذلك الحاجة إلى علم العربية فإن الإعراب هو الفارق بين المعانى ، ألا ترى أن القائل إذا قال "ما أحسن زيد" لم يفرق بين التعجب والاستفهام والذم إلا بالإعراب" فعلم العربية هو نفسه علم النحو أو العربية.

فقه اللغة : أما مصطلح فقه اللغة فيشير إلى نوعين من البحوث عند القدماء أولهما : يشمل ما يسمي "متن اللغة" وهو البحث فى الثروة اللفظية على نحو ما يجرى فى المعجمات وما إليها ، بالإضافة إلى بحوث تتعلق بالمفردات ومشكلاتها العامة ، أى لا من حيث معانيها فقط ، بل من حيث ما تتصف به من سمات فرعية كالأصالة أو عدمها وكالترادف والاشتراك اللفظي والمجاز والحقيقة والاشتقاق (غير الصرفي) وما إلى ذلك من كل ما له صلة بها، بوصفها مفردات لا صيغًا صرفية أو وحدات فى تركيب الجملة ، ومعنى هذا أن فقه اللغة هنا يكاد يكون قريبا جدا من المصطلحات الثلاثة الأولى ، أعنى، اللغة، متن اللغة علم اللغة.

النوع الثاني : يطلق فقه اللغة على تلك الدراسات العامة التى تعد مقدمة للعلوم أو ممهدة لها .. كالكلام على اللهجات ، فكرة الصواب والخطأ فى اللغة ، وظيفة اللغة ، أصل اللغة ونشأتها ، التعليل ، القياس ... إلخ، ومن أمثلة مؤلفاتهم بهذا الفهم (بشقيه) :

الخصائص لابن جنى ، والصاحبى لابن فارس ، وفقه اللغة للثعالبى، والمزهر للسيوطى ، وشفاء العليل للخفاجي ... إلخ.

ولا شك أن النوع الثانى من قضايا فقه اللغة - عند العرب القدماء - يدخل فيما يسميه المحدثون (علم اللغة) وإن كان المحدثون يختلفون عن القدماء فى إخراجهم كثيراً من قضايا فقه اللغة ، بعد أن رأوا أنها تجافى روح العلمية التى ينبغى أن يتصف بها علم اللغة ، كالبحث في أصل اللغة ونشأتها مثلاً ، كما يختلف علم اللغة أيضا عن فقه اللغة في جانبين جوهريين ، الأول : منهج البحث وأهدافه، فعلم اللغة يتسم كما قلنا بالعلمية التجريبية على حين لا تتسم الدراسات اللغوية قديمًا بهذه الصفة ، وعلى حين يهدف علم اللغة إلى وصف اللغة كما نجد بحوث فقه اللغة والبحوث اللغوية عموما ، تهدف إلى وضع ضوابط عامة ، وقواعد كلية مطلقة وملزمة لما ينبغي أن يقال بصرف النظر عما يقال بالفعل ، ويُعد أى خروج على ذلك خطأ صراحًا.

أما الأمر الثانى الذى يميز علم اللغة من فقه اللغة قديما فهو النظرة إلى طبيعة اللغة ، فعند علماء اللغة كل ما يقال هو مادة علمية صالحة للدراسة والوصف ، على حين أن فقه اللغة يرى أن اللغة فقط هى ما قاله الأعراب الأقحاح ، وما استعمله أهل الجاهلية ، وفصحاء العرب من الشعراء والكتاب فى وقت بعينه أما ما عدا ذلك فهو لغو أو لحن لا يستحق الالتفات إليه.

أما العلماء العرب المحدثون : فقد اختلفوا فى استخدام هـذين المصطلحين فعلى حين نجد عدداً منهم يستخدم مصطلح فقه اللغة، قاصرين إياه على البحوث اللغوية القديمة على النحو الذى سبق بيانه ، ويستعملون مصطلح "علم اللغة" ويقصدون به الدراسة اللغوية العلمية للغة كما حددها المحدثون بـ (linguistics) .

نجد فريقا آخر يستعمل مصطلح فقه اللغة ويقصد به النوعين معاً أقصد ما يشمل مفهوم فقه اللغة قديماً ، ومفهوم علم اللغة حديثًا .

والرأى عندى أن بحوث: اللغة - متن اللغة - علم اللغة - فقه اللغة قديما يمكن أن نطلق عليها "فقه اللغة" لتميزها من حيث الموضوعات والمنهج ، وغايات البحث . أو علم اللغة العربية كما فعل د .حجازى وهو طيب ، وأفضل ما يناسب هذه البحوث عندى مصطلح علم اللسان العربي .

كما يحسن أن نطلق مصطلح "علم اللغة"، على ما يقابل المصطلح الحديث "linguistics" التزاما بمنهج هذا العلم الذى يقتضى الوضوح والنظامية.

ومن أهم ما يقتضيه ذلك تحديد مصطلحات العلم نفسه ، أما الخلط فيؤدى إلى إدخال قضايا وأساليب معالجة ، وأهداف دراسة تختلف إلى حد ما عن موضوع علم اللغة ومنهجه وغاياته على الرغم من التقارب فى الأسماء والتشابه فى القضايا المثارة.

مصطلح فقه اللغة وعلم اللغة عند الغربيين :

يميز الغربيون بين مصطلح فقه اللغة philology ، ومصطلح علم اللغة linguistics، وقد ألقينا الضوء على المصطلح الأخير فى بداية هذا الفصل ، أما عن مصطلح فقه اللغة : philology فيقصد به قديما نوع من الدراسة الواسعة تشمل دراسة النصوص القديمة وتحقيقها والتعليق عليها ، كما تشمل ما يتصل بها من حيث لغتها ، فضلا عن دراسات تشمل الثقافة ، والتاريخ والتقاليد والنتاج الأدبى للغات موضوع الدراسة ، وقد شاع هذا المفهوم الواسع قديماً وامتد طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ليشير إلى نوعين من البحوث :

الأول : الدراسات المقارنة للغات.

والثاني : تحقيق النصوص وشرحها.

وقد ضاق هذا المفهوم كثيرا فى الغرب بعد أن أصبح يشير إلى ما يطلق عليه حديثا : علم اللغة المقارن Comparative Linguistics ، وهو فرع من علم اللغة يدرس أوجه الاتفاق والاختلاف ، وجوانب التأثير والتأثر بين اللغات التى تنتمى لأرومة واحدة ، ولهذه الدراسة غايات أخرى تختلف عن غايات علم اللغة ، وإن كانت بمفهومها الحديث جزءاً من علم اللغة ، إذ تلقى الضوء على تاريخ اللغة ، وتفسر بعض الظواهر اللغوية المشتركة بين اللغات ، كما تلقى الضوء على حضارة الشعب الذى يستخدم اللغة وتطور لغته ، على حين تنصب غايات علم اللغة على دراسة اللغة فى ذاتها ولذاتها كما سبق القول.

ملخص الوحدة الأولى



تناولت هذه الوحدة بالتحديد مفهوم علم اللغة ومنهجه وموضوعه وهدفه بوصفه (الدراسة العلمية للغة في ذاتها ولذاتها)، وبان لنا أن العلم الذي يدرس اللغة - أية لغة - دراسة علمية من حيث المنهج ، وتنصب الدراسة على اللغة معتبرة في ذاتها، وبكل أشكالها وتنوعاتها من حيث الموضوع، ومن أجل ذاتها من حيث الغاية - هو ما يسميه العلماء بعلم اللغة Linguistics .

واستعرضنا فى هذه الوحدة عددا من المصطلحات العربية القديمة التي تعنى بدراسة اللغة مثل: علم اللغة - اللغة - متن اللغة - العربية - فقه اللغة، وعرضت الوحدة لمفهوم هذه المصطلحات عند القدماء ، وبان من هذا التناول أن هناك فروقا جوهرية من حيث المنهج، ومن حيث الموضوع، وغايات البحث، بين مفهوم هذه المصطلحات عند القدماء ومفهوم علم اللغة الحديث، رغم بعض التقارب في الموضوعات، وبعض النتائج.

وأخيرا تناولت الوحدة بالمقارنة مفهوم مصطلح Linguistics من جانب ومصطلح Philology عند العلماء الغربيين قديما وبان أن ثمة اختلافا بينهما في الموضوع والمنهج، وإن تطور مصطلح فيلولوجي وأصبح يشير إلى نوع خاص من الدراسة اللغوية المقارنة ، بوصفها فرعا من علم اللغة.

؟ أسئلة على الوحدة الأولى

المجموعة الأولى:

س١: علم اللغة هو الدراسة العلمية للغة ، اشرح أسس الدراسة العلمية كما حددها ديفيد كريستال.

ج١ - تقوم الدراسة العلمية على الأسس التالية:

أ – الوضوح: بمعنى أن تكون المفاهيم والأفكار والأسس والمصطلحات التى تقوم عليها الدراسة محددة وواضحة.

ب – النظامية : بمعنى أن تكون هناك خطة للبحث تقوم على خطوات متتابعة نسلم كل خطوة إلى التى تليها بشكل منظم.

ج – الموضوعية : بمعنى التزام الحيدة عند التحليل، والتجرد عند التناول وعند اختبار صحة الفروض.

س٢: ما الموضوع الأساسي لعلم اللغة كما تفهم ذلك من تعريف سوسير له؟

ج٢ - موضوع علم اللغة الأساسي هو دراسة اللغة معتبرة في ذاتها ، واللغة هنا مقصود بها أية لغة ، فأية لغة يمكن أن تخضع للدراسة العلمية في إطار علم اللغة، وهو لا يفرق هنا بين لغة وأخرى، ولا بين مستوى من مستويات اللغة وغيره، فكل نظام لغوى يصلح أن يكون موضوعا للبحث اللغوي العلمى.

س٣: ما الهدف الذي تسعى إليه الدراسة العلمية في إطار علم اللغة؟

ج٣ - إن هدف الدراسة العلمية للغة في إطار علم اللغة هو الوصول إلى الحقيقة العلمية في فهم طبيعة اللغة أو وظيفتها أو تحديد عناصر كل نظام من أنظمتها، أو علاقتها بمجتمعها، أو تحديد تنوعاتها وخواص كل منها،

وتفسير أسباب هذا التنوع والقوانين التي تحكمه.

س٤: ما الفرق بين موضوع علم اللغة الحديث من جانب وموضوع علم اللغة في التراث اللغوي العربي القديم من جانب ثان؟

س٥- ما الفرق بين علم اللغة الحديث من جانب وفقه اللغة عند العلماء العرب قديما؟

س٦: ما الفرق بين علم اللغة الحديث من جانب وفقه اللغة عند الأوربيين من جانب آخر؟

المجموعة الثانية: ضع علامة √ أمام الخيار الصحيح فقط:

١- الأساس العلمي الذي بمقتضاه لا يحق للباحث اللغوي أن يتبنى أحكاما مسبقة:

أ- الوضوح. ب- النظامية.

ج- الموضوعية. د- الصدق.

٢ – دراسة اللغة في ذاتها تعطي للباحث حق دراسة:

أ- الفصحى فقط. ب - العامية فقط.

ج- الفصحى والعامية فقط. د - كل التنوعات اللغوية.

٣- العلم الذي يعنى بتحقيق النصوص وشرحها ومقارنة اللغات هو:

أ- متن اللغة. ب- علم اللغة الحديث.

ج- فقه اللغة عند العرب. د- فقه اللغة عند الغربيين.

٤- ليس من اختصاص علم اللغة:

أ- وصف أنظمة اللغة. ب- وضع قواعد للخطأ والصواب.

ج- دراسة اللهجات الخاصة. د- دراسة اللغة العامية.

٥ – المنهج الذي لا يتبناه علم اللغة الحديث هو:

أ- التاريخي. ب- المعياري.

ج- الوصفي. د- التقابلي.

المجموعة الثالثة: ضع علامة (√) أمام الإجابة الصحيحة وعلامة (×) أمام الخطأ:

١ – علم اللغة يعنى بدراسة اللغة الفصحى فقط. X

٢- فقه اللغة عند العرب قديما يهتم بدراسة كل التنوعات اللغوية X

٣- ليس من مهام علم اللغة أن يحدد ما ينبغي أن يقال √

٤- كل الموضوعات التي درست في إطار علم اللغة يدرسها فقه اللغة. X

٥- مصطلح فقه اللغة عند العرب يقابل ما يسميه الغربيون Philology. √

٦ – لا يعد تطوير تدريس اللغة هدفا من أهداف علم اللغة . X

٧ – قصر الدراسة على الفصحى يخالف المنهج الذي يتبناه علم اللغة الحديث. √

٨- كانت Philology في القرن ١٩ عشر تعني بمقارنة اللغات لا بوصفها. √

٩ – بعض اللغويين العرب المحدثون أطلقوا على فقه اللغة قديما(اللسانيات). √

١٠- علم اللغة الحديث يختلف عن علم اللغة عند العرب فى المنهج. √



الوحدة الثانية

علوم اللغة ومنهج البحث فيها

الهدف من هذه الوحدة :

- جعل الطالب ملما بعلوم اللغة الأساسية ، تلك العلوم التي تعنى بدراسة أنظمة اللغة المختلفة :الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية والدلالية.
- تحديد المناهج العلمية المختلفة التي يمكن أن نعالج بها الظاهرة اللغوية.

الوحدة الثانية
علوم اللغة ومنهج البحث فيها

(أ) علوم اللغة :

سبق أن ذكرنا أن اللغة منظومة تتكون من عدة أنظمة هى : النظام الصوتى، النظام الصرفى ، النظام النحوى ، والنظام الدلالي.

ومن استعراضنا لاتجاهات الدارسين ، ومنهج كل منهم فى فهم هذه النظم ودراستها نجد أن العلماء اختلفوا كثيرا فى بعض المفاهيم الأساسية مثلما رأينا دى سوسير وهو يفرق بين اللغة والكلام ، أو تشومسكي وهو يفرق بين القدرة والأداء ، ومنهم من لا يؤمن بوجود جانبين للحدث اللغوى أحدهما مجرد موجود بالقوة هو اللغة ، والثانى مادى موجود بالفعل هو الكلام ، هذه الثنائية مرفوضة عند بعض الاتجاهات اللغوية كما يظهر عند فيرث وأتباعه. وهذا الاختلاف ترتب عليه اختلاف آخر فى تحديد مستويات البحث فى علم اللغة. فعلى حين قسم القدماء هذه المستويات ثلاثة فقط هي :

١ - علم وظائف الأصوات Phonology.

٢ - علم الصرف Morphology.

٣ - علم النحو Syntax.

نجد عالما مثل جراى Gray يقسمها أربعة. وبلومفيلد Bloomfield يقسمها قسمين ، على حين يرى أولمان Steven أن هذه الفروع أو المستويات خمسة . أما أنصار مدرسة فيرث فيقسمون فروع علم اللغة أو مستوياته ستة ، ومن هؤلاء أستاذى الدكتور كمال بشر .

ولا داعى أن نخوض فى هذا الخلاف ، ولكن يكفينا أن نتخير اتجاها واحدا

فقط نراه صالحا لإعطاء فكرة عن مستويات البحث في علم اللغة ، وهو الاتجاه الشائع المقبول لدى قطاع عريض من الدارسين والباحثين في علم اللغة.

ومستويات البحث فى علم اللغة بناء على ما ارتضيناه من هذه الاتجاهات هي:

١ - علم الأصوات العام Phonetics: ووظيفة هذا الفرع هو دراسة طبيعة أصوات اللغة ، وصفاتها المختلفة ، فيدرس جهاز النطق ومخارج الأصوات المختلفة وصفاتها من حيث الجهر والهمس ، والانفجار والاحتكاك ، والترقيق والتفخيم وغير ذلك.

٢ - علم الأصوات الوظيفى ويختص بدراسة الوظيفة التى تؤديها الأصوات فى اللغة ، وما تقوم به من التفريق بين معانى الكلمات ، وطريقة تناسقها فى أنماط خاصة بكل لغة ، وتتسع دائرته لتشمل المقاطع والنبر والتنغيم ... إلخ ومن الواضح إن هذين المستويين يتناولان معا النظام الصوتى للغة.

٣- علم الصرف Morphology: ووظيفته البحث فى تركيب الكلمات محددا الجذور ، والسوابق واللواحق والأحشاء ، وتصريفات الكلمة كالبحث فى المشتقات المختلفة والجموع والنسب والتصغير ، وتصنيف الصيغ بالنظر إلى الأفعال وتقسيمها إلى مجرد ومزيد ولازم ومتعد ، وهكذا ، وتقسيم الاسم إلى جامد ومشتق ، مذكر ومؤنث ، إلى غير ذلك من كل ما يتصل بالصيغ بوصفها صيغا مفردة.

٤ - علم النحو Syntax: ووظيفته البحث فى التراكيب وتنظيم الكلمات داخل الجملة، فيختار الوحدات الصالحة فى الجملة المعينة ، ويحدد موقعها الصحيح داخل هذه الجملة ، ويراعى علاقة كل وحدة بغيرها من الوحدات داخل الجملة ، كما أنه ينظر فى وظيفة هذه الوحدات ، والعلامة الصحيحة التى تشير إلى هذه الوظيفة.

وعلم الصرف وعلم النحو عند أكثر العلماء يكونـان معا مـا يسمى بقواعد اللغة Grammar ، والحقيقة أن العلمين متلازمان ومتكاملان وكلاهما لا ينفصل عن الآخر ، وضمهما معا فيه وعى بالعلاقة الحميمة بينهما.

٥ - علم المعجم Lexicology: ووظيفته البحث فى مفردات اللغة فى لغة واحدة أو فى عدة لغات ، وينظر إليها من حيث اشتقاقها ، وأبنيتها ، ودلالتها المعنوية والإعرابية ، والتعابير الاصطلاحية ، والمترادفات وتعدد المعنى.

٦ - علم المعنى Semantics: ووظيفته البحث فى المعنى الاجتماعى للكلمة المفردة ، والتركيب على سواء. وهذا المعنى الاجتماعي هو معنى اللفظ أو التركيب فى الموقف المعين ، فهو إذن يحدد معنى واحدا فقط للكلمة أو التركيب من بين المعانى المختلفة التى تصلح لها الكلمة أو يصلح لها التركيب. ويحدد هذا المعنى الاجتماعى الموقف أو ظروف الكلام أو مقامه الذى قيل فيه. وهو يختلف عن المعنى الصوتى والصرفى والنحوي والمعجمى، هذه المعانى التى تتعاون معا لإبراز ما يسمى بمعنى المقال ، فإذا أضيف المعنى الاجتماعى أو معنى المقام الذى يحدده علم المعنى تكون لدينا ما يسمى بالمعنى اللغوي .

(ب) مناهج البحث فى اللغة :

من استعراضنا لطريقة تناول العلماء للغة قديما وحديثا ودراستهم لها ، نستطيع أن نتبين أن ثمة عددا من المناهج المختلفة اعتمدوها في محاولتهم لفهم اللغة ودراستها وتحليلها ، ومن أهم هذه المناهج مايلى:

أولاً - المنهج المعيارى Prescriptive or Normative method :

عندما نستعرض تاريخ علم اللغة نجد أن الإغريق والرومان عندما حاولوا أن يدرسوا اللغة التزموا طريقة معينة ، وانطلقوا من مفاهيم خاصة. هذه المفاهيم وتلك الطريقة هى ماعرف بين الدارسين بالمنهج المعياري. ويقوم هذا المنهج

على عدة ركائز حيث ينظر المعياريون إلى اللغة على أنها ظاهرة جامدة وهذا يعنى إنكارهم للتطور اللغوي ، وإيمانهم بثبات اللغة ، ومن ثم فإن أى تغيير يصيب اللغة هو فى رأيهم فساد وخطأ يجب التصدى له.

يرى المعياريون أنه من الضرورى أن توضع قواعد صارمة للغة تمثل ما يجب أن يقال ، بصرف النظر عما يقال بالفعل ، هذه القواعد لا يجوز الخروج عليها ، وأى خروج هو خطأ صراح.

يتخذ المعياريون من أنفسهم حكاما يملكون الحق فى إصدار الحكم على ما يقال ، فما خالف معاييرهم وقواعدهم فهو خطأ ، وما وافقها فهو صواب. ويرون من واجبهم فرض هذا الصواب على الناس ، والتصدي لمن يخرج على قواعدهم بكل السبل.

وقد رأينا كيف ساد هذا المنهج عند الإغريق والرومان وانتقل منهم إلى العرب ، وبخاصة المتأخرون من النحاة. وظل هذا المنهج له اليد الطولى والمكانة العلية حتي مطلع العصر الحديث عندما بدأت هذه المكانة تتراجع أمام المناهج الأخري. على الرغم من احتفاظه ببعض المعاقل فى المدارس والجامعات فى كل أنحاء العالم حتى الآن.

ثانيا - المنهج الوصفى Descriptive :

ونعرف من تاريخ علم اللغة أن الأوربيين اكتشفوا اللغة السنسكريتية على يد السير وليم جونز فى القرن الثامن عشر ، ووقفوا على الطريقة التى يغلب عليها الطابع الوصفى لا المعيارى عند بانيني وعلى الرغم من هذه الطريقة ، فالفضل لدى سوسير فى بداية القرن العشرين إذ هو صاحب الفضل فى بيانها وتحديد مقوماتها عندما كشف عن ضرورة التفريق بين الدراسة التاريخية التى سادت القرن التاسع عشر ، والدراسة الوصفية للغة ، وأكد على أهمية الدراسة الوصفية وقيمتها. وأشار إلى أن الدراسة التاريخية يمكن أن تعتمد على الدراسة الوصفية، ولا يجوز العكس ، فالدراسة الوصفية هى دراسة تقوم على وصف الواقع

اللغوي المنطوق بالفعل وصفا علميا موضوعيا يركز على مستوى لغوى معين فى مكان محدد وفترة محددة ، وعلى ذلك فأهم سمات المنهج الوصفى تتضح فيما يلي :

- يركز أنصار هذا المنهج على دراسة اللغة المنطوقة بالفعل ويرونها أصدق من اللغة المكتوبة ، وأكثر تمثيلا للغة. دون أن يعنى هذا أن اللغة المكتوبة لا تصلح للوصف ، فكلاهما يصلح لذلك غير أن المنطوق هو الأصل ، وهو أحفل بالعناصر التى تمثل اللغة ، وأغنى بالمقومات التى تعين على الوصف الدقيق ، ويمكننا عمومًا عن طريق النطق الضمنى أن نحوّل اللغة المكتوبة إلى مستوى صالح للدراسة الوصفية.
- يحددون فترة زمنية معينة للدراسة لا يخرجون عنها ، ويحسن أن تكون قصيرة ، حتى تكون الظواهر متجانسة ، وطول المدة لا يخدم الدراسة الوصفية ، لتعرض الظواهر للتغيير ، ويجعلها بحكم طول الفترة متعددة الأشكال وربما متناقضة داخل الوصف.
- يحددون بيئة معينة أو مكانا محددا لدراسة لغته حتى لا تختلط اللغات أو لهجات اللغة الواحدة بعضها ببعض.
- يحددون مستوى لغويًا بعينه لهذه الدراسة فصحى مثلا أو عامية مثقفين أو عامية أميين ، وأى خلط فى المستويات عند الوصف يؤدى إلى الخطأ فى الأحكام.
- بعد أن يختاروا مستوى لغويا معينا ، فى مكان معين ، فى فترة محددة يقومون بوصف هذا المستوى كما ينطق بالفعل ، ولا يعنيهم فى شىء أن يكون هذا الكلام صحيحا من وجهة النظر المعيارية أم خطأ. لأنهم يعنون بما يقال ويعتدون به ، ولا يبحثون عما يجب أن يقال ، ولا يشغلون أنفسهم به.
- ليس من مهمتهم وضع قواعد يفرضونها على أحد ، بل واجبهم ينحصر فى تقديم وصف علمي دقيق لما هو موجود فقط.

ثالثا - المنهج التاريخى Diachronic Method or Historical :

- ينطلق المنهج التاريخى من حقيقة أن اللغة ظاهرة تتطور وتتغير من عصر إلي عصر ، وأن هذا التطور يلحق كل مستوياتها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية ، واللغة إذن فى نظر أنصار هذا المذهب ظاهرة ديناميكية متطورة ، وليست ثابتة جامدة ، كما رآها أنصار المنهج المعياري.

- يركز المنهج التاريخى على رصد التغييرات التى تصيب الظواهر على كل المستويات المختلفة للغة ، فيحاول رصد الحركة العامة لهذا التغيير ، وأشكاله وضوابطه.

- فى المنهج التاريخى يجب تحديد إطار مكانى ، أو بيئة لغوية معينة لرصد التغيير اللغوى فيها. ومستوى لغوى بعينه فى لغة هذه البيئة.

- على الباحث في ضوء هذا المنهج أن يتتبع التغييرات التى أصابت اللغة فى مراحل زمنية مختلفة ، قد تمتد إلى مئات السنين ، ولا يقتصر على فترة واحدة كالمنهج الوصفي. كأن يتتبع كلمة معينة وينظر : ماذا كانت تعنى فى العصر الجاهلى ؟ ثم يتتبعها فى عصر صدر الإسلام ، وهل تغير معناها أم لا ؟ ثم ينتقل بها إلى العصر الأموى ، والعصر العباسى ، حتى العصر الحديث مسجلا كل ما طرأ على معناها من تغيير عبر هذه العصور.

- يعتمد المنهج التاريخي فى معظمه على اللغة المكتوبة نظرًا لفقدان المادة المنطوقة على مر الزمن ، فلم تتح فرصة تسجيل اللغة المنطوقة وحفظها إلا فى العصر الحديث.

- المنهج التاريخى يمكن أن يعتمد على المنهج الوصفى ، بأن توصف اللغة فى كل فترة محددة على حدة ، ثم يتم تتبع التغيير فى هذه الفترات كما يسجله الوصف السابق ، ولايجوز العكس أى لا يمكن أن تعتمد الدراسة الوصفية على الدراسة التاريخية.

رابعا - المنهج المقارن .Comparative M :

- ينطلق المنهج المقارن من حقيقة أن هناك قرابات بين اللغات ، وأن اللغات التى تربطها صلة قرابة ، لابد أن يكون بينها أوجه اتفاق ، وأوجه اختلاف.

- يركز المنهج المقارن على دراسة الظواهر الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية المشتركة بين اللغات التى تنتمى إلى أرومة واحدة ، أى التى ترجع إلى أصل لغوى واحد.

- يقتضى المنهج المقارن تتبع الظواهر المشتركة فى لغتين أو أكثر من عائلة واحدة ، وهذا يعنى أنها شكل من أشكال الدراسة التاريخية ، غير أنها تركز على المقارنة بين لغتين أو أكثر وليس رصد التغيير فى لغة واحدة.

- كما أن الدراسة التاريخية يمكن أن تقوم على أساس وصفى أولا ، فإن الدراسة المقارنة هى الأخرى يمكنها أن تستند إلى الأساس نفسه.

خامسا - المنهج التقابلى Contrastive method :

بدأ الإنسان يتطلع إلى أكبر استفادة ممكنة من ثقافة أخيه الإنسان وحضارته فى كل مكان ، وكان عليه أن يبحث عن وسائل الاتصال المباشرة به ، فوجد أن تعلم اللغات الأجنبية أهم وسيلة مباشرة لذلك. وانطلقت الجامعات فى كل أنحاء العالم تلبية لهذه الحاجة - وبخاصة فى أمريكا - تقوم ببحوثها العلمية فى إطار علم اللغة التطبيقي Applied Linguistics لمعرفة الوسائل التى تعين على تعلم اللغات الأجنبية. فظهر المنهج التقابلى بوصفه أسلوب بحث يسهل هذه المهمة ويعين عليها.

وينطلق المنهج التقابلى من حقيقة معينة هى : أن معرفة نقاط الاختلاف بين اللغات تساعد على تيسير مهمة من يريد تعلم لغة أجنبية ، فلو أننى كنت أريد أن أتعلم الألمانية مثلا ، فإن معرفة القائمين على تعليم هذه اللغة بجوانب الاختلاف بين نظام لغتى العربية واللغة التى يعلمونني إياها "الألمانية" هذه المعرفة

تساعدهم على تحقيق أفضل نتائج ممكنة لاكسابى الألمانية.

تقوم أية دراسة تقابلية على عدة أسس من أهمها:

- تحديد لغتين تنتميان إلى فصيلتين لغويتين مختلفتين كالعربية والألمانية أو اليابانية والفرنسية ، أو الصينية والإنجليزية ولا تعتبر تقابلية إذا كانت بين لغتين من فصيلة واحدة كالعربية والعبرية ، أو الإنجليزية والألمانية ، وإنما تعتبر مثل هذه الدراسة دراسة مقارنة لا تقابلية.
- يجب تحديد مستوى بعينه في اللغتين المدروستين كالفصحى فيهما أو العامية فيهما مثلا.
- ترتكز الدراسة التقابلية على جوانب الاختلاف بصفة أساسية في اللغتين موضوع الدرس.
- تقوم الدراسة التقابلية أولا بدراسة وصفية للظواهر في كل لغة على حدة ، ثم تقوم بعد ذلك بدراسة تقابلية ، تقارن فيها اللغتين لمعرفة أوجه الاختلاف بينهما ، فهي دراسة تبدأ وصفية ثم تنتهي تقابلية.

مما سبق يتبين لنا أن الفرق الجوهري بين الدراسة المقارنة والتقابلية أن الأولى بين لغتين من فصيلة واحدة كالعربية والسريانية ، أما الثانية فتكون بين لغتين من فصيلتين مختلفتين كالعربية والايطالية مثلا . وإذا كانت الدراسة المقارنة تركز أساسًا على أوجه الاتفاق ، فإن التقابلية تركز على أوجه الاختلاف.

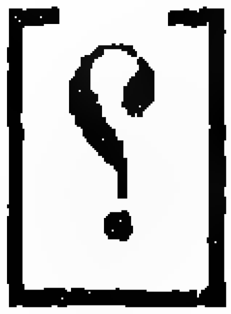


ملخص الوحدة الثانية

بان من تناول هذه الوحدة أن فروع علم اللغة تختلف من اتجاه لغوي إلى اتجاه لغوي آخر ، وبينا أن سبب الاختلاف راجع لاختلاف المفاهيم اللغوية بين الدارسين في فهم طبيعة اللغة ووظيفتها.

وتأسيسا على ما سبق قسمت فروع علم اللغة تارة قسمين، وتارة ثلاثة ، وتارة أكثر، وقد ارتضينا أن تكون هذه الأقسام ستة ، هي: علم الأصوات العام، وعلم الأصوات الوظيفي، وعلم الصرف، وعلم النحو، وعلم المعجم وعلم الدلالة.

كما تناولت هذه الوحدة المناهج العلمية المختلفة التي تدرس الظاهرة ، فعرضنا للمنهج المعياري ، والوصفي ، والتاريخي ، والمقارن ، والتقابلي، وتناولنا كلا منها من حيث الأسس التي يقوم عليها المنهج المعين ، والأهداف التي يسعى لتحقيقها، والفروق التي تميز كلا منها من غيره .



أسئلة عن الوحدة الثانية

المجموعة الأولى:

س١- لماذا اختلفت علوم اللغة من حيث عددها ؟

ج- اختلف عدد فروع علم اللغة ؛ نظرا لاختلاف نظرة الدارسين للظاهرة اللغوية ، من حيث طبيعتها ومن حيث وظيفتها، فهناك من رأى أن اللغة ظاهرة اجتماعية، وآخرون رأوا أنها قدرة فطرية ، وبعضهم قصر وظيفة اللغة على نقل الأفكار والمشاعر والرغبات ، ومنهم من حصرها في تحقيق عملية الاتصال ، وآخرون رأوا وظائف أخري ، وبعضهم رأى أن للغة جانبين أحدهما مجرد والثاني مادي ، وغيرهم رفض هذا الفصل بين الجانبين ، وقد ترتب على ذلك اختلافات كثيرة، منها الاختلاف في تقسيم فروع علم اللغة.

س٢- ما الفرق بين علم الأصوات العام ، وعلم الأصوات الوظيفي ؟

ج – ثمة فروق كثيرة ، من أهمها أن علم الأصوات العام يدرس طبيعة أصوات اللغة، وصفاتها النطقية، من حيث المخرج ، وطريقة مرور الهواء أثناء نطق الصوت ، ووضع الأوتار الصوتية أثناءه، وكما يحدد خواص الوحدات التركيبية ، يحدد كذلك خواص الوحدات فوق التركيبية. أما علم الأصوات الوظيفي فيعنى بدراسة الوظيفة التي يؤديها الصوت ، بوصفها عنصرا يقوم بالتفريق بين معاني الكلمات .

س٣ – لماذا يضم أكثر العلماء الصرف والنحو معا ويجعلونهما علما واحدا هو القواعد؟

ج ٣ – لأن عناصر الجملة بوصفها وحدة النظام النحوي مؤسسة علي عناصر النظام الصرفي ومبانيه أو المورفيمات ، وليس للنظام النحوي مبان

خاصة به ، وما عناصر النظام النحوي إلا المباني التي يقدمها له الصرف؛ ونظرا لهذا التلازم بينهما، جعلما أكثر الدارسين علما واحدا هو (علم القواعد).

س ٤ – كان فهم المعياريين لطبيعة اللغة مؤثرا في تحديد الأسس التي يقوم عليها المنهج المعياري ، وضح ذلك.

س٥ – لو أردنا أن نعرف أوجه الاتفاق وأوجه الاختلاف بين العربية واليابانية، ما المنهج الذي يُعينني على تحقيق هذه الغاية؟

س٦ – اذكر فرقين بين المنهج الوصفي والمنهج التاريخي في دراسة اللغة.

س٧ – هل يجوز أن تقوم الدراسة التاريخية على أساس وصفي ؟ نعم

المجموعة الثانية: ضع علامة (√) أمام الخيار الصحيح فقط:

س١- المنهج الذي يرصد أوجه الاتفاق بين لغتين من فصيلة واحدة هو:

ا – التقابلي. ب- الوصفي .

ج – المقارن. ج – المعياري.

س٢- العلم الذي يحدد صيغة الكلمة بوصفها مؤنثة أو مذكرة هو علم :

ا –الأصوات العام. ب- الصرف.

ج – النحو. د – المعجم .

س٣ – المنهج العلمي الذي يهدف إلى الوصول لحقيقة الظاهرة في الواقع فقط :

ا – التاريخي. ب - الوصفي.

ج – المعياري. د – المقارن.

س٤ – من أهداف المنهج المعياري:

أ – وصف الظاهرة كما هي في الواقع.

ب- وضع قواعد للخطأ والصواب.

ج – رصد تطور الظاهرة عبر الزمن.

د – تحديد أوجه الاختلاف في لغتين.

س ٥- من بين ما يعنى به علم الدلالة دراسة:

ا – أقسام الكلم. ب- الإضافة.

ج – الترادف. د – الجهر والهمس.

المجموعة الثالثة: ضع علامة (√) أمام الإجابة الصحيحة وعلامة (×) أمام الخطأ:

١ – دراسة مخارج الأصوات يقوم بها علم وظائف الأصوات.

٢ – صناعة القواميس تدخل في اختصاص علم المعجم.

٣- الدلالة الوظيفية يحددها المقام .

٤ – أصحاب المنهج الوصفي يرون أن اللغة ظاهرة اجتماعية متغيرة.

٥ – يجوز أن تقوم الدراسة المقارنة على أساس وصفي.

٦ – من شروط الدراسة التقابلية أن تكون بين لغتين من عائلة واحدة.

٧ – تتفق الدراسة التاريخية والمقارنة في أسس المنهج دون الأهداف.

٨ – تختلف الدراسة المعيارية والوصفية في أسس المنهج ، وتتفق في الأهداف.

٩ – من أهداف المنهج المعياري وضع ضوابط تحدد ما ينبغي أن يقال.

١٠- من شروط المنهج الوصفي تحديد المستوى المراد دراسته.



الوحدة الثالثة

علاقة علم اللغة بالعلوم الأخرى

الأهداف:

ترمي هذه الوحدة إلى تحقيق هدفين محددين:

الأول : أن يستكمل الدارس معرفته بعدد من العلوم التي تعنى بدراسة اللغة ، وهي ليست فروعا لعلم اللغة ، بل تعد علوما لغوية مساعدة ، كعلم اللغة الاجتماعى ، وعلم اللغة النفسي ، وعلم اللغة الجغرافي وعلم الأسلوب.

الثاني : أن العلوم اللغوية الأساسية ، أو فروع علم اللغة النظري التي عرضنا لها في الوحدة السابقة يقابلها علوم لغوية تطبيقية ، يتم فيها الاستفادة من النظرية اللغوية في مجالات متعددة كتعليم اللغة ، أو صناعة المعاجم ، أو معالجة أمراضِ الكلام وغيرها، وكما أحاط الدارس بالعلوم اللغوي النظرية ، فمن واجب هذه الوحدة أن تحيطه علما بهذه المجالات التطبيقية .

الوحدة الثالثة

علاقة علم اللغة بالعلوم الأخرى

مدخل:

اللغة ـ كما سبق القول فى المقدمة ـ ظاهرة معقدة ، وهى من أجل ذلك تدخل فى مجال اختصاص علماء كثيرين. فهى بوصفها ظاهرة اجتماعية تشغل علماء الاجتماع ، واللغة وثيقة مهمة تفسر طبيعة الإنسان الأول ، ومظاهر حياته ، وهى من أجل ذلك تشغل حيزا كبيرا من اهتمام علماء الأجناس البشرية (الأنثربولوجيا) وعلماء الوراثة ، واللغة كما سبق القول أيضا أصوات ، وهى مادة تدخل فى صميم علم الفيزياء ، ولفهم عملية النطق وعيوبه لابد من تدخل علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) لمعرفة وظيفة الرئتين والحنجرة واللسان والفم والأنف والأسنان والشفتين، ويتدخل علم التشريح (الأنتومى) Anatomy لوصف كل جزء من هذا الجهاز وعلاقته بغيره من الأعضاء. ويبقى المخ وما يدور فيه من عمليات أثناء إصدار الكلام وتلقيه وتحديده لما يراد ـ الشغل الشاغل لعلماء النفس وعلماء اللسانيات العصبية وسواهم ، أما الفروق والإيحاءات الخفية وغير الخفية التى تميز طريقة المتحدث الفرد من غيره فيركز عليها علماء الأسلوب ، ولا يخفى أن فهم حياة اللغة عبر العصور يقتضي تسجيلا يعنى به علماء التاريخ ، وتحديد البيئات المختلفة للغة وتوزيع لهجاتها من وظائف علم الجغرافيا. وهذا يعنى أن اللغة بوصفها ظاهرة لا تشغل اللغويين فحسب، فليسوا وحدهم بقادرين على دراستها وفهمها الفهم الصحيح ، وما لم تتعاون علوم كثيرة تدخل اللغة فى مجالاتها بشكل مباشر أو غير مباشر ، كعلم الاجتماع والانثروبولوجيا والفيزياء، وعلم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) والتشريح، وعلم النفس، وعلم الأسلوب، وعلم التاريخ والجغرافيا وغيرها ما لم يحدث هذا فسوف تظل معرفتنا باللغة محدودة جدًا.

وسوف نلقي فى عدة الصفحات التالية الضوء على علاقة علم اللغة ببعض هذه العلوم بوصفها شريحة فقط تمثل تلك الصلة الحميمة بين علم اللغة والعلوم الأخرى التى تدرس اللغة وتعنى بقضاياها.

أما هذه العلوم التى سنلقى عليها بعض الضوء فهي:

(أ) علم اللغة الاجتماعي.

(ب) علم اللغة النفسي.

(جـ) علم اللغة الجغرافي.

(د) علم الأسـلوب.

(هـ) علم اللغة التطبيقي.

(أ) علم اللغة الاجتماعى Sociolinguistics :

عند دراستنا - فى القسم الأول - لخصائص اللغة تبين أنها ظاهرة اجتماعية تتأثر بالمجتمع وتؤثر فيه شأنها شأن بقية الظواهر الاجتماعية الأخرى ، فهى تتأثر فى نموها وانقراضها ، وضوحها وغموضها ، انحطاطها ورقيها ، توحدها وانقسامها ، بالمجتمع الذى ينتجها ، فكل هذه النواحى البالغة الأثر فى اللغة إنما هى صدى لحضارة الأمة ونظمها وتقاليدها ، وعقائدها ، واتجاهاتها العقلية ، ودرجة ثقافتها ونظرتها للحياة وما إلى ذلك من عوامل تؤثر بطريقة مباشرة فى اللغة.

فالأمم فى أطوار حياتها الأولى تتسم حياتها بالبدائية والتخلف ومن ثم فهى تعبر بعفوية تصل إلى حد الحوشية ، والبساطة إلى درجة الجلافة ، فإذا أصابت حظًا من الرقى تهذب أسلوبها ورقت ألفاظها فـ "إن البدوى الذى لم يلهمه شيطانه فى مدحه للأمير أحسن من قوله:

أنت كالكلب فى حفاظك للعهـ د وكالتيس فـى قـراع الخطـوب

قد استطاعت قريحته بعد أن هذبتها حضارة بغداد أن يجود بمثل قوله:

عيـــون المها بين الرصـــافة والجسر

جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

وتعكس اللغة كذلك عقائد الأمة وتقاليدها ، وعلاقات أفرادها بعضهم ببعض. ففى بعض المجتمعات ينظر المجتمع إلى علاقات القربى نظرة خاصة ، فيسوى بين أخ الأب وأخ الأم ومن هنا يطلق عليهما لفظا واحدا هو uncle فى الإنجليزية و oncle فى الفرنسية ، وكذلك أخت الأب وأخت الأم لهما لفظ واحد هو aunt فى الإنجليزية و tante فى الفرنسية وقس على ذلك أبناءهما. على حين نجد أن هناك مجتمعات تنظر إلى هذه العلاقة نظرة مختلفة ، وترى أن درجة القرابة بين إخوة الأب وأبنائهم ليست كإخوة الأم وأبنائهم. فالأولى عصبة، وهم لذلك أقوى صلة. ومن هنا نجدهم يميزون بين ذلك ويتخذون ألفاظا مستقلة لكل معنى منها ، فأخ الأب عم وأخ الأم خال ، أما أخت الأب فعمة وأخت الأم خالة... وهكذا.

واللغة كذلك مرآة لأخلاق الأمة ، ونظرتها للقيم ، فعلى حين لا ترى بعض الشعوب غضاضة فى التعبير المكشوف عن العورات والأمور المستهجنة نجد أمما أخرى تستحيى من ذلك ، وتلتمس الحيلة للتعبير بأسلوب وقور محتشم ، كالتعبير عن بعض الأعضاء بالسوءتين أو القبل والدبر ، وعن العملية الجنسية باللمس والوطء ، والجماع والمعاشرة ، والرفث والتماس... وهكذا.

وظروف المجتمع من حيث الاستقرار والاضطراب ، السلم والحرب تنضح على اللغة بجلاء ، فنتيجة للصراع قد ينقسم المجتمع وتنقسم اللغة إلى لهجات أو العكس، وقد يحدث غزو عسكرى يتبعه غزو لغوى فتشيع ألفاظ جديد ، وتنقرض ألفاظ أخرى. انظر مثلا اللغة العربية بعد الفتوحات الإسلامية ومدى تأثرها بالفارسية واليونانية والقبطية ، وانظر حالها فى العصر الحديث بعد احتكاكها بالغرب ومدى تأثرها بالإنجليزية والتركية والفرنسية والإيطالية... وهكذا.

ومن منطلق الإحساس بأثر الظواهر الاجتماعية على اللغة خصص العلماء

فرعا لغويا مستقلا سموه علم اللغة الاجتماعى Sociolinguistics كى يدرس "الطرق التى تتفاعل بها اللغة مع المجتمع ، إنه يدرس الطريقة التى بها تتغير البنية اللغوية استجابة لوظائفها الاجتماعية المختلفة والتعريف بماهية هذه الوظائف" كما يدرس "اللهجات الاجتماعية والازدواج اللغوى والتأثير المتبادل بين اللغة والمجتمع" .

ومن منظور آخر خصص علماء الاجتماع فرعا آخر من فروع علم الاجتماع سموه علم الاجتماع اللغوى Sociology of language وظيفته دراسة اللغة بوصفها وثيقة مهمة للغاية لتفسير الظواهر الاجتماعية كما تصورها اللغة. (الفرق بين علم اللغة الاجتماعي وعلم الاجتماع اللغوي)

فالعلماء فى علم اللغة الاجتماعى ، يدرسون اللغة أساسا ، ويلتمسون من فهم الظواهر الاجتماعية العون على فهم اللغة فهما صحيحا ، أما العلماء فى إطار علم الاجتماع اللغوى ، فهم يدرسون المجتمع والظواهر الاجتماعية ، وينشدون من اللغة أن تكون وثيقة توضح ما كان عليه المجتمع، وعلى ذلك فالعلاقة جد وثيقة بينهما ، وإن اختلفت المقاصد مما جعل أكثر العلماء يطلقون على دراسة اللغة من منظور اجتماعى ، أو دراسة المجتمع من منطلق لغوى مصطلحا واحدا، وأصبح مصطلح Sociolinguistics يعنى هذين اللونين من الدراسة معا.

(ب) علم النفس اللغوى Psycholinguistics :

ركز علماء اللغة جهدهم على اللغة ذلك النظام الصوتى الذى يصدر عن المتحدث الفرد فى الموقف المعين. وكان الواحد يسجل شريطا من الكلام ويدخل إلى معمله لدراسة هذه المادة اللغوية ، فيقوم بتحليلها ووصفها ، فهذا هو الحيز الذى يمكن دراسته من اللغة ، ولكن عالم اللغة كانت تواجهه مشكلات لا حل لها إلا فى ذهن المتكلم نفسه ، ماذا يريد بالضبط ؟ ما المعنى الذى يقصده وما الدوافع لذلك. وكان الحل هو مجرد فروض عقلية وكلام نظرى عما يدور فى

ذهن المتكلم ، وكان يقف حسيرا لا يجد الجواب الشافى عن كيفية اكتساب الطفل للغته ، وكيف يختزن الإنسان ألفاظ لغته ، وهل يتم ترتيبها فى الذهن بطريقة معينة ، وكيف يتم استحضارها. هل حينما يفكر فى الكلام يركب لفظة ثم يقف ويركب لفظة أخرى ، ولكن هذه الوقفات سريعة أم أنه يستحضر الكلام دفعة أو وحدة واحدة.

استبعد كثير من علماء اللغة البحث في ما يدور فى ذهن المتكلم قبل الكلام وأثناءه وبعده من عمليات ، وما يدور فى ذهن السامع كذلك من عمليات مماثلة قبل تلقى الرسالة الصوتية ، وأثناء تلقيها وعند الرد عليها، على الرغم من أن معرفة هذه الأمور تجعلنا أكثر فهما لما يقال.

وانكب عدد من العلماء يدرسون هذا الجانب فى إطار علم مستقل يسمى علم اللغة النفسي أو علم النفس اللغوي ، وأخضعوا النشاط العقلى أثناء عملية الكلام للدرس العلمى التجريبى ، وأصبحت أحكام العلماء فى هذه الناحية ليست مجرد فروض عقلية تخمينية ، بل هى فروض علمية قابلة للقياس العلمى الدقيق، ومازالت محاولات العلماء فى هذا الفرع الجديد تحاول أن تقدم مزيدا من الفهم لطبيعة اللغة ، وعلاقتها بالنفس البشرية ، وتميط اللثام عن كيفية اكتساب اللغة ، وكيفية إصدار الكلام والعمليات التى تحدث عند الكلام ، وبدأ العلماء يوظفون هــذه المعرفة فى مناهج تعليم اللغات الأجنبية ، والبحث فى العوامل النفسية المؤثرة فى هذا التعلم ، كما يدرسون عيوب النطق وأسبابه وكيفية علاجه إلى غير ذلك من غايات تربوية.

وهكذا أصبحت اللغة أداة مهمة لعلماء النفس لفهم النفس البشرية كما أن الدراسة النفسية أصبحت تقدم للغويين مزيدا من المعرفة عن جوانب مهمة متصلة باللغة لم تكن معروفة لهم من خلال الحدث اللغوى المادى وحده.

ج -علم اللغة الجغرافي Geolinguistics :

هذا واحد من أهم العلوم اللغوية المساعدة ، ومن اسمه يظهر موقعه

بوصفه دراسة بينية ، تقع بين علم اللغة وبين الجغرافيا ، وموضوع هذا العلم من الأهمية بمكان إذا عرفنا أن ثورة الاتصال ، والسماوات المفتوحة قد قربت المسافات ، وأذابت الحواجز بين البشر ، وتحقيق التواصل والتفاهم غاية لا يمكن تجاهلها بحال ، لأن هذا الأمر يرتبط به تحقيق المصالح السياسية والاقتصادية والثقافية والعلمية وغيرها ، بل يرتبط بالسلم والأمن الدوليين ، فها هي الأخبار تنقل لنا كيف أن جهل الأمريكان بالعربية ، وبخاصة لهجات الخطاب في العراق وما تنطوي عليه من دلالات اجتماعية ودينية وثقافية قد أسهم مع عوامل أخري – يعد العامل اللغوي من أهمها – في وقوعهم في مستنقع لم تستطع آلتهم العسكرية الجبارة أن تنقذهم من وحله.

مما سبق يتبين لنا أن معرفتنا اليوم بتوزيع اللغات على خريطة العالم ، وتحديد أنواع المتكلمين بها ، وحصر أعدادهم ، ورصد خواص هذه اللغات ، وما يتفرع عنها من لهجات ، وعددها ، ودور كل منها السياسي أو الثقافي أو الحضاري وغير ذلك من أمور هي الشغل الشاغل للباحثين في علم اللغة الجغرافي، وهي كما يظهر أمور لا يستغني اليوم عن معرفتها أي مثقف، ولا من له مصلحة ، سواء رجل الإعلام ، أو رجل الاقتصاد ، أو السياسي ، أو الدبلوماسي ، أو رجال التعليم والتخطيط اللغوي ، أو العسكرى، ... إلخ.

ولا شك أننا نحن العرب اليوم أحوج ما نكون إلى تلك الخريطة اللغوية التي تقفنا على شعوب نتعامل معها ونحن نجهل كثيرا منها ثقافة وطباعا وسلوكا ، وحضارة ، وأن العالم أيضا يجهلنا كذلك ، ومعرفتنا كذلك بلهجاتنا وتوزيعها والفروق بينها لمهم للغاية لكي نفهم بعضنا بعضا ، بعد أن عشنا في وهم أننا أمة واحدة لغتنا واحدة ، على حين أننا في حال من الاختلاف اللغوي والفكري والثقافي والسياسي، صرنا به أمثولة للتفكك والتشرذم والضياع. وما أحوجنا إلى من يلم شعثنا، ويرأب صدعنا ، ويعيد لنا وحدتنا ، ويصون حقنا في البقاء بين العالمين.

(د) علم الأسلوب Stylistic :

الأسلوب هو الطريقة ، يقال: أسلوبى فى الحياة ، أسلوبى فى معالجة القضية، وأسلوبى فى التعبير عن نفسى أى طريقتى فى هذه الأشياء جميعا ، وكثيرا ما كنا نسمع حين يتحدثون عن أسلوب كاتب أو أديب ، أن الأسلوب هو الرجل أو هو الطريقة التى يعبر بها عن نفسه هذا كله فهم قديم واضح فى أذهاننا ولكن متى كانت دراسة الأسلوب علما ؟ وما التوصيف الدقيق للأسلوب ، وما التحديد العلمى لطبيعة هذا اللون من الدراسة وصلته بعلم اللغة ؟

يعد شارلى بلى Charles Bally ١٨٦٥-١٩٤٧، وهو تلميذ دى سوسير ، يعد رائد هذا اللون من الدراسة ، وهذا يعنى أن علم الأسلوب بوصفه دراسة علمية للأسلوب نبتت فى أحضان علم اللغة ، وقد قام على رعاية هذه النبتة أجيال متعاقبة من علماء اللغة ابتداء من بلى وحتى التوليديين المعاصرين.

وكان علم اللغة منذ أسسه فرديناندى سوسير ينزع إلى الاستقلال من جانب، والاتصاف بالعلمية بكل ما تعنيه هذه الصفة من دقة وموضوعية من جانب آخر، جعلت هذا العلم - كما سبق القول - أقرب العلوم الإنسانية إلى العلوم التجريبية.

وهذا المسلك العلمى لدراسة اللغة قد جعل علماء اللغة ينظرون إلى بعض الدراسات البلاغية والنقدية على أنها دراسات تتسم بالانطباعية الذاتية ، ويغلب عليها التقييم الذى يعتمد على الإحساس الفردى ، وهى بهذا لا تتسم بالموضوعية ولا تتصف بالعلمية شأن بحوثهم فى اللغة. فالناقد إذا أعجبه أسلوب كاتب قال إنه فخم جزل ، وعباراته رصينة قوية ، وإذا لم يعجبه أسلوب آخر قال إنه ركيك مفكك ، وألفاظه سوقية متداولة. ونظروا إلى مثل هذه الأحكام على أنها تتصف بالذاتية ، وعدم الدقة ، وهو ما يجب أن تتخلص منه أية دراسة علمية جادة.

ومنذ أن شغل علماء اللغة المحدثون أنفسهم بدراسة اللغة وهم إنما يركزون على اللغة المنطوقة بكل تنوعاتها ، وهدفهم هو وصف اللغة ، وبيان مكوناتها وخصائصها، وكيف تؤدى وحداتها وظيفتها. أما دراسة اللغة الخاصة التى

يستخدمها الشعراء والكتاب ، وما يمتاز به أسلوب شاعر أو كاتب ما عن شاعر أو كاتب آخر ، فكانوا يعتبرون البحث فى نواحى التفوق والانمياز مما لا يمكن دراسته دراسة علمية موضوعية.

وبعد أن نضج علم اللغة ، واتضحت مقولاته ، ونجح فى تطوير أساليبه ووسائله فى دراسة اللغة ، بدأ يخضع الأسلوب الأدبى للدراسة العلمية المنهجية على اعتبار أن مادته الأساسية إنما هى اللغة ، وظهر فى الأفق علم الأسلوب بوصفه علما يدرس الأسلوب الأدبى باعتباره خرقا لأسلوب الكلام العادى وانحرافا عنه ، تأسيسا على المقولات المنهجية لعلم اللغة أو على حد تعبير ميشيل اريفاى Michel Arive "إن الأسلوبية وصف النص الأدبى حسب مناهج علم اللغة" وازداد اقتناع العلماء بأن النص الأدبى لا يمكن سبر أغواره دون تحليل العلاقات اللغوية التى ينطوى عليها.

وتعددت اتجاهات العلماء فى دراستهم للأسلوب. فهناك اتجاه يدرس لغة النص الأدبى فى ضوء السياق الذى وردت فيه ، ودراسة الأسلوب هنا تقرر "أن كل كلمة إنما هى جزء فى جملة وأن كل جملة هى جزء فى فقرة ، وأن كل فقرة هى جزء فى موضوع ، وعلى الباحث أن يدرس وظيفة كل هذه الأجزاء فى سياق العمل الفني".

وثمة اتجاه آخر وهو من أشهر اتجاهات البحث فى علم الأسلوب هو الإحصاء الأسلوبى ، وينطلق هذا الاتجاه لدراسة الظواهر اللغوية الفريدة ، فإذا كان الأسلوب انحرافا عن المألوف فالإحصاء عليه أن يحدد شكل هذا الانحراف، وإذا كان الأسلوب هو "محصلة مجموعة من الاختيارات المقصودة بين عناصر اللغة القابلة للتبادل" فإن على علم الإحصاء الأسلوبى أن يحدد هذه الاختيارات الخاصة بصاحب الأسلوب. فقد نجد الكاتب يؤثر بعض الأدوات ويكثر استخدامها ، أو يشيع عنده استخدام زمن معين من أزمنة الفعل أو صيغة بعينها من بين عدة صيغ لاسم مشتق. ومن بين الوسائل العلمية الدقيقة التى تعين العلماء

على تحديد نسبة نص معين إلى قائله - القيام بتحديد البصمة الأسلوبية للكاتب ، وهو إجراء إحصائى لغوى دقيق.

أما عن مستويات التحليل داخل هذه الاتجاهات فهى تشمل ما يلى:

(أ) الأصوات : فيمكن وصف البنية الصوتية للأسلوب وتحديد بعض الملامح عن طريق ظواهر صوتية معينة كالوقف والنبر والمقطع والتنغيم. أو شيوع سلاسل صوتية أو عناقيد صوتية أو مقاطع معينة أو إيقاع عروضى معين... إلخ.

(ب) الكلمات: فيتم دراسة تركيب الكلمات، والمصاحبات اللغوية collocations الخاصة بالكاتب والصيغ الاشتقاقية التى يؤثرها ... إلخ.

(جـ) الجمل : فيدرسها من حيث الطول والقصر ، ومن حيث مدى شيوع نوع معين من الجمل - الاسمية مثلا أو الفعلية ، وترتيب وحدات الجملة عنده من حيث تقديم بعض العناصر أو تأخير بعض ، ومدى شيوع بعض الأدوات ... إلخ.

والحقيقة أن علم الأسلوب فى ضوء هذا التناول قد أصبح حلقة وصل بين علوم البلاغة والنقد الأدبى من جانب ، وعلم اللغة من جانب آخر ، وقد شبه دونالد فريمان D. Freeman ما قدمه علم اللغة المعاصر للنقد الأدبى بما قدمته الرياضيات إلى علم الفيزياء النظري.

وعلى الرغم من تلك الخدمة الجليلة التى قدمها علم اللغة للدراسات الأدبية عامة والأسلوبية بوجه خاص ، فإن فك الشفرة اللغوية للأسلوب لا يعنى حل المشكلة وإلا أصبح علم الأسلوب بهذا الشكل بديلا للنقد الأدبي. ولكن الأمر ليس بهذا التبسيط إذ إن هناك جوانب ما بعد التوصيف اللغوى للأسلوب مثل الحبكة والخيال والشخصيات والأحاسيس ، وهناك ظاهرة الأبنية البلاغية التى تفوق التركيب الواحد ومنها الأبنية العليا الشاملة فى النصوص الأدبية.

فليس علم الأسلوب بهذا الشكل فرعا من علم اللغة ، وليس النقد الأدبى هو الأسلوبية ، ولكن علم الأسلوب يتكئ على مبادئ علم اللغة ، ويحتاج إضافة نقدية، "ففى النقد إذن بعض ما فى الأسلوب وزيادة ، وفى الأسلوبية ما فى النقد إلا بعضه" وبعض هذا البعض وزيادة هو ولا شك ما أسهم به علم اللغة فى هذا الفرع العلمى الجديد.

(هـ) علم اللغة التطبيقي :

حدد دى سوسير مجال علم اللغة وهدفه بقوله إن : "موضوع علم اللغة الوحيد والصحيح هو اللغة معتبرة فى ذاتها ، ومن أجل ذاتها". ومعنى هذا "أنه يدرسها من حيث هى لغة ، يدرسها كما هى ، يدرسها كما تظهر .. فليس له أن يقتصر فى بحثه على جوانب من اللغة مستحسنا إياها ، ويُنَحِّى جوانب أخرى استهجانا لها ، أو استخفافا بها ... كما أنه يدرسها لغرض الدراسة نفسها .. فليس من موضوع دراسته أن يحقق غايات تربوية مثلا أو أية أغراض عملية أخرى".

وعلى ذلك فعلم اللغة يدرس اللغة من أجل الدراسة فقط ، لمزيد من الفهم لحقيقتها والتعرف عليها. وهذه النظرة لعلم اللغة أتاحت الفرصة لأن يحقق العلماء خلال القرن العشرين قفزات هائلة فى فهم حقيقة اللغة. ومن هذه الإنجازات :

١ - أنهم تمكنوا من التعرف على الطبيعة الاجتماعية للغة ، وهو ما يعنى أنها ظاهرة ديناميكية متطورة.

٢ - أنهم أفلحوا فى تقديم وصف علمى دقيق لأبنية عدد كبير من اللغات ، وصححوا كثيرا من المفاهيم الخاطئة عن الأبنية الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية لهذه اللغات اعتمادا على مناهج فى البحث أكثر سلامة ، ووسائل فى التجريب أكثر دقة. ورؤية فى الدرس والتناول أكثر تفتحا وموضوعية.

٣ - التفت اللغويون المحدثون إلى مظهر اللغة الأساسي وهو الكلام المنطوق ، ومن هنا ركزوا عليه باعتبار اللغة فى المقام الأول أصواتا ، فقاموا بوصف هذا المنطوق ، وكان وصفهم لذلك فيه صدق الواقع المستخدم بالفعل ، ولم يقم على افتراض الأقدمين القائم على المكتوب الذى لا يمثل واقع اللغة.

٤ - استفاد علماء اللغة من نتائج البحث العلمى فى فروع المعرفة الأخرى ، مما جعل الدراسة اللغوية مجالا تتسم بحوثه بالخصوبة ، ومقولاته بالعلمية ، ونتائجه بالدقة ، ومن بين ثمرات ذلك ما أفلح فيه العلماء في مجال علم اللغة النفسى من التعرف على اكتساب الإنسان للغة خلال أطوار حياته المختلفة.

وحين تنجح النظريات ، ويثبت للعلماء صحتها ، تبدأ فى الغالب مرحلة من التفكير فى الاستفادة من هذه النظريات. وهذا ما حدث بالفعل ، فقد فكر عدد من العلماء فى الاستفادة من نتائج البحوث فى مجال علم اللغة عند القيام بعملية تعليم اللغة على أسس سليمة ، وانطلق العلماء يحاولون ذلك فى إطار جديد أطلقوا عليه اسم علم اللغة التطبيقى Applied Linguistics وعندئذ شاع لدى العلماء إطلاق مصطلح علم اللغة النظرى Theoretical Linguistics على ذلك اللون من الدراسة الذى يدرس اللغة "فى ذاتها ومن أجل ذاتها" على حين اختص علم اللغة التطبيقي بـ "تطبيق نتائج المنهج اللغوى وأساليبه الفنية فى التحليل والبحث فى ميدان غير لغوي".

وعلى حين نجد عددا من العلماء يقصرون مجال علم اللغة التطبيقى على دائرة تعليم اللغات ، نجد آخرين يوسعون هذا المفهوم ليشمل كل المجالات التى يمكن أن يستفيد فيها العلماء من نظريات علم اللغة ، وهذا ما يميل إليه أكثر الدارسين الآن.

وسوف نكتفى هنا بإلقاء بعض الضوء على مدى الاستفادة التى قدمها علم اللغة النظرى لعلماء التربية فى مجال تعليم اللغة. ويشمل ذلك تعليم اللغة القومية، وتعليم اللغات الأجنبية.

أولاً - علم اللغة وتعليم اللغات القومية:

إن ما قدمه علم اللغة لعلماء التربية فى مجال تعليم اللغات القومية ليس كثيرا حتى الآن ، ولعل العقبة الأولى التى وقفت فى هذه السبيل أن الطفل يبدأ فى اكتساب اللغة فى مرحلة مبكرة جدا من حياته حيث "تظهر الكلمة الأولى فى المتوسط فى الشهر العاشر تقريبًا" وأن معجم المفردات عند الطفل يتزايد ببطء إلى أن يصل فى منتصف السنة الثانية إلى عشرين كلمة. ونشهد حينئذ توسعا فجائيا فى المفردات التى تتجاوز مائة كلمة فى الشهر العشرين من عمره تقريبًا ، وتصل فى السنتين إلى ثلاثمائة كلمة ، وتقترب من الألف فى الثلاث سنوات ولا يقف الأمر عند اكتساب الكلمات فحسب، بل يبدأ الطفل فى تركيب جمل بسيطة تعرف بالجملة الكلمة sentence word ثم ينطق بالجمل الأكثر تعقيدا ، وما أن يبلغ السادسة حتى يكون قد تمكن من فهم لغة البيئة المحيطة به واستخدامها بسهولة ويسر ، وهذا يمثل مشكلة أمام المعلم عند تعليم مثل هذا الطفل ، على حين تكون الفرصة أوسع إذا أريد تعليمه لغة أخرى.

ومع ذلك فقد أسهم علم اللغة فى تقديم كثير من الأفكار ، والأسس المنهجية التى حاول التربويون الاستفادة منها؛ من ذلك مثلا:

١ - أنه قدم لمعلم اللغة وصفا علميا سليما لأصوات اللغة ، يمكن أن يستفيد منه فى تدريب طلابه على النطق السليم للغة . وعلى فهم ما يقال من خلال إدراكه لقيمة عدد من الظواهر الصوتية المهمة كالنبر والتنغيم ، الوقف والإمالة ... إلخ.

٢ - أنه أعطى معلم اللغة تصورا لأنظمة اللغة الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية وعلاقة هذه الأنظمة بعضها ببعض ، وهو ما يمكن أن يساعد المعلم على أن يقدم اللغة بشكل منظم ومتماسك ، بعد أن يوظف وحدات اللغة توظيفا سليما.

٣ - قدمت الدراسات اللغوية الإحصائية معلومات قيمة يمكن أن يفيد منها رجال

التربية فى اختيار المادة التعليمية. فقد تبين من هذه الدراسات ما يلي :

- تكون الـ ١٥ كلمة الأكثر استعمالا فى اللغة ٢٥ ٪ من كلمات النص كله.
- تكون الـ ٦٦ كلمة الأكثر استعمالا فى اللغة ٥٠ ٪ من كلمات النص كله.
- تكون الـ ١٠٠ كلمة الأكثر استعمالا فى اللغة ٦٠ ٪ من كلمات النص كله.
- تكون الـ ٣٢٠ كلمة الأكثر استعمالا فى اللغة ٧٢ ٪ من كلمات النص كله.
- تكون الـ ٤٠٠٠ كلمة الأكثر استعمالا فى اللغة ٩٧,٥ ٪ من كلمات النص كله.

وهذه الإحصائيات تقدم – ولا شك – ما يعين على اختيار المفردات الصالحة عند وضع البرنامج التعليمى للمرحلة المعينة ، مما لفت الأنظار إلى ضرورة أن تكون لكل مرحلة سنية معجمها الخاص ، مثل معجم المرحلة الابتدائية ، ومعجم المرحلة الإعدادية ... إلخ.

٤ - قدم علم اللغة لمعلم اللغة القومية تصورا جديدا عن اللغة وعلاقتها بالمجتمع، مما يعينه على ربط اللغة بالمجتمع ووصلها بنظائرها من الظواهر الاجتماعية الأخرى كالعادات والتقاليد والأعراف ، ويعين على فهم النص فى ضوء العصر الذى قيل فيه ، والبيئة التى صدر عنها ، وهو بهذا يتمكن من التحليل اللغوى والأدبى للنص المدروس من خلال وعيه بالحقيقة الاجتماعية للغة.

٥ - أعطي علم اللغة فكرة عن طبيعة اللغة المعقدة ، والتى تحتاج عند اكتسابها إلى أسلوب خاص يتدرج المعلم فيه مع طلابه عند تقديم المادة اللغوية فيقوم بناء على فهمه لهذه الخاصية بما يلي :

(أ) اختيار الأسهل من الكلمات ، ومن التراكيب اللغوية ، ثم التدرج بعد ذلك إلى الصعب فالأصعب. فيبدأ بالمفردات المحسوسة قبل المجردة، والتراكيب البسيطة قبل التراكيب المعقدة.

(ب) الانتقال من العام إلى الخاص بحيث يفهم الطالب الكليات والأوليات قبل القضايا الفرعية ، والظواهر الشاذة ، والأمور المتفق عليها قبل الأمور المختلف حولها.

(جـ) التركيز على الشائع. فيجب عند تقديم الأمثلة أن تكون من مفردات شائعة أو من المفردات الأساسية التى أثبتت الإحصائيات أنها أكثر شيوعا واطرادا، وترك المفردات الشاذة والغريبة والمهجورة.

٦ - وأخيرا، فإن علم اللغة من خلال كشفه عن خصائص اللغة بوصفها ظاهرة مكتسبة قد بين للتربويين ضرورة النظر للغة على أنها ظاهرة تأتي بالدربة وكثرة المران ، وعلى ذلك ينبغى أن يقوم معلم اللغة بتدريب الطلاب على تنمية مهاراتهم اللغوية كالنطق ، والاستماع ، والفهم ، والكتابة.

ثانيًا - علم اللغة وتعليم اللغات الأجنبية :

فى عالم أصبح كالقرية الإليكترونية لا يملك الإنسان المعاصر أن يعيش منعزلا عن الآخرين فيه ، وحسبك أن تدير مؤشر المذياع لتسمع برامج ثقافية وترفيهية وإخبارية متنوعة ، وبعدة لغات مختلفة ، وبقدر إتقانك لهذه اللغات تكون استفادتك ، ويكون علمك ويكون قدرك فى عالم لا وزن فيه إلا لمن يعرف أكثر. تلك حقيقة أدركها الناس فى كل مكان ، وهبوا يتعلمون اللغات الأجنبية ، وبخاصة تلك التى لها سوق نافقة فى دنيا العلم والتكنولوجيا والثقافة كالإنجليزية والفرنسية ، وكما حث علماء التربية خطاهم سعيا وراء ما قدمه اللغويون من نظريات للاستفادة بها فى تعليم اللغة القومية للناشئة من أبناء الوطن- كما ظهر فى الصفحات القليلة الماضية- نجدهم يلتمسون العون نفسه عند محاولة تعليم اللغات الأجنبية لغير الناطقين بها ، وقد تبلورت عدة طرق أو أساليب لهذا اللون

من التعليم لكل منها سماته وخصائصه ، ومنطلقه المنهجى الذى يميزه من سواه من الطرق الأخرى ، كما أن كل أسلوب له أنصاره وحواريوه الذين يرون فى أسلوبهم المنهج الصحيح لتعليم اللغة. وسنحاول بشىء من الإيجاز أن نعرف بهذه الطرق .

١ - طريقة القواعد والترجمة Crammer - Translation Method :

تلك هى الطريقة التقليدية القديمة التى كانت شائعة فى تعليم اللغات الأجنبية، وأهم ما يميز هذه الطريقة ما يلى:

(أ) أنها تعتمد أساسا على اللغة المكتوبة ، حيث إنها تمثل النموذج اللغوى الصحيح فى نظر القدماء.

(ب) تحاول هذه الطريقة أن تجعل المتعلم يحيط بقواعد اللغة الأجنبية عن طريق الاستظهار والحفظ ، ومن خلال نماذج ثابتة تمثل الصحة اللغوية.

(جـ) تعمد هذه الطريقة إلى تدريب الطلاب على قراءة نصوص مكتوبة بتلك اللغة وترجمتها إلى اللغة القومية.

وعلى هذا فغاية هذه الطريقة هى الإلمام بقواعد اللغة المراد تعلمها ، وإتقان الترجمة منها إلى اللغة القومية ، ومن الواضح أنها طريقة تنطلق من المنهج المعيارى الذى سبق شرحه من قبل ، ويبدو أن الحاجة إلى كوادر قومية لترجمة العلوم والآداب من اللغات الأجنبية إلى اللغة القومية هى التى دفعت إلى هذا النمط من التعليم. فضلا عن سيطرة أنصار المنهج المعيارى على العملية التعليمية فى هذا الوقت.

٢ - الطريقة المباشرة Direct Method :

ظهرت الطريقة المباشرة فى بداية القرن العشرين ، ومن ملامح هذه الطريقة:

(أ) أن اللغة الأجنبية يمكن اكتسابها وتعلمها بالطريقة نفسها التى يتعلم بها الإنسان لغته القومية أى عن طريق التلقى المباشر.

(ب) يرى أنصار هذه الطريقة أن الدارس يجب أن يتعرض لجرعة هائلة من الكلام بطريقة عفوية ، ودون تنظيم أو تبويب للمادة اللغوية ، وسوف يلتقط بنفسه بكثرة التلقى والاستماع ما يعينه على اكتساب اللغة المراد تعلمها.

٣ - الطريقة الانتقائية Selective Method :

(أ) تركز هذه الطريقة على شريحة معينة من المادة اللغوية ، بوصفها أهم من غيرها ، وأجدر بالعناية ، هذه الشريحة هى مفردات بعينها ، وجمل وأساليب محددة تم اختيارها بدقة وعناية فى ضوء دراسات إحصائية دقيقة لنسبة شيوع هذه الكلمات أو الجمل أو الأساليب فى اللغة المعينة ، بعد أن تبين على سبيل المثال أن الكلمات الألف الأكثر استعمالا فى اللغة تشتمل على ٨٥ ٪ من الكلمات التى تقابلنا فى النصوص المختلفة ، وعلى هذا فإن معرفتنا بالكلمات الألف الأكثر شيوعا فى لغة ما ، يجعل بمقدورنا أن نفهم ٨٥ ٪ من كلمات هذه اللغة حين نقرؤها فى نصوص مكتوبة بهذه اللغة ، وهذه الحقيقة لا تعنى أننا نفهم ٨٥ ٪ من مضمون النص ، وإنما تنخفض هذه النسبة إلى حوالى ٥٠ ٪ فقط . ولكن الحقيقة السابقة - وغيرها بالطبع دفعت عديدا من العلماء إلى التركيز على الكلمات الأساسية فى اللغة المراد تعلمها أو الكلمات الأكثر شيوعا ، وقد قام عدد كبير من العلماء بدراسات إحصائية لتحقيق هذه الغاية ، ومن بين هذه المحاولات ما قام به مايكل وست M. West عن أكثر ألفى كلمة إنجليزية شيوعا. وقد انتشرت هذه الأعمال واعتبرها المهتمون أساسا لتأليف كتب تعليم اللغات الأجنبية وبخاصة الإنجليزية.

(ب) ركز أنصار هذا الاتجاه على تنمية مهارة القراء والنطق بصفة أساسية، وإن لم يهملوا المهارات الأخرى تماما .

٤ ـ الطريقة السمعية الشفوية Audio - Lingual Approach :

تعد الطريقة السمعية الشفوية واحدة من أحدث طرق تعليم اللغات الأجنبية ، وقد نالت هذه الطريقة من الذيوع والانتشار فى كل أنحاء العالم ما لم تنله بقية الطرق الأخرى، ولا شك أن النتائج التى تحققت من تطبيق هذه النظرية فى تعليم اللغات الأجنبية هى التى منحتها هذه المكانة ، على الرغم من أنها لا تخلو من بعض العيوب. ولا بد أن نسلم أن كل طريقة لا بد أن تشتمل على جوانب طيبة وأخرى سيئة.

ويقوم هذا الاتجاه على بعض الأسس النظرية التى أرساها أنصار النظرية الوصفية الشكلية والتى سبق أن تحدثنا عنها من قبل ، ومن بين هذه الأسس :

(أ) أن المظهر الصوتى للغة ، أى الكلام المنطوق هو المظهر الأساس والأولي.

(ب) اللغة مجموعة من العادات المكتسبة شأنها شأن أى سلوك آخر مكتسب.

(جـ) اللغة هى لغة الحياة اليومية daily language وليس التى يوصى النحاة باستعمالها.

(د) اللغات ليست سواء فى نظامها وتركيبها ، بل ثمة اختلافات كثيرة بينها، وهذه الاختلافات لابد من الوقوف عليها لأن ذلك مفيد فى عملية تعليم اللغات الأجنبية .

وقد انطلق علماء التربية من هذه الأسس النظرية يلبون الحاجة الماسة لتذليل عقبة تعليم اللغات الأجنبية ، وبدأ التطبيق العملى على النحو التالى:

١ - ركز العلماء على تنمية مهارتى الاستماع والنطق ما دامت اللغة عندهم هى اللغة المنطوقة ، وأصبح الحوار dialogue مادة أساسية فى تعليم اللغات الأجنبية.

٢ - استفادت هذه الطريقة من ظروف العصر أفضل استفادة ، حين استعانت بالوسائل العلمية التي سخرت تكنولوجيا العصر من معامل لغات أو مختبرات لغوية Language laboratories تساعد الدارسين على تنمية مهارتي الاستماع والنطق ، كما استفادوا من بعض الوسائل الأخرى ، كالكتب المبرمجة والبرامج المسجلة على شرائط كاسيت في الترويج للغرض نفسه.

٣ - اعتمد أنصار هذا الاتجاه على نتائج الدراسات التقابلية في التعرف على أوجه الخلاف بين اللغات ، استنادًا إلى أن ذلك يساعد على تعليم اللغات الأجنبية كما سبق القول ، ثم جهزت البرامج التعليمية بنتائج هذه الدراسات.

وعلى الرغم من أن الطريقة السمعية الشفوية انتشرت في كل انحاء العالم ، وحققت نجاحات لا بأس بها ، وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، فإن أنصار المدرسة التحويلية يحاولون جاهدين أن يؤسسوا لنظرية أخرى باتت تسيطر على التفكير اللغوي في كل أنحاء العالم الآن ، ويُعتقد أن ما أتى به تشومسكي وأنصاره من تصورات عن اللغة سوف يكون له أثر كبير في المجالات التطبيقية في المستقبل القريب.

ثالثًا- علم اللغة وأمراض الكلام :

سبق أن عرضنا في الفصل الأول من هذا الكتاب لمفهوم اللغة عند أنصار الاتجاه البنيوي بوصفها نظامًا عرفيًا من الرموز الصوتية ، ورأينا عند أنصار الاتجاه التحويلي أن الذي يمكن الإنسان من هذا النظام هو قدرة فطرية تسمح للإنسان بالتنظيم والتنسيق والربط بين عدد محدود جدًا من الفونيمات لإنتاج عدد غير متناهٍ من الجمل الصحيحة التي يقرها ويفهمها أبناء الجماعة اللغوية ، وبذلك يتعاون المعطى الاجتماعي متمثلاً في البيئة التي تجعل الرمز اللغوي ينخرط في نظام دقيق لينتج لنا معنى مفهومًا ، يتعاون مع المعطى الفطري الذي هو القدرة الفطرية أو القدرة اللغوية لصنع اللغة بوصفها نظامًا محكمًا معقدًا. هو

كما يقول ثورندايك "أعظم ما ابتكر الإنسان وأبدع" ، ولأن اللغة نظام معقد يرتبط بكل ما يحيط بالإنسان وبالإنسان ذاته فكره وأعضائه وثقافته وبيئته فقد شغلت كل العلماء تقريبًا.

ورأينا أن اللغة هى موضوع علم اللغة الأساس ، وفى إطاره فهمنا كما سبق القول فى الباب الأول النظرية اللسانية فى فهم اللغة ووظيفتها وعلاقتها بالمجتمع، وأنظمتها المختلفة ، وفى ضوء هذا الفهم المتقدم يستفاد الآن فى مجال أمراض الكلام واضطرابات النطق ، ويستأنس برأى اللغويين فى فهم أسرار النظام اللغوى من جانب، وكيفية أداء اللغة لوظيفتها بشكل طبيعى من جانب ثان فى التعرف على الشكل الصحيح للغة ، ليقاس إلى ذلك الأشكال غير السوية ، وهنا تتعاون جملة من العلوم كالتشريح وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم التربية فضلاً عن علم اللغة فى التصدى لموضوع مهم كموضوعنا الذى نعرض له وسوف نلقى الضوء عليه من خلال تناول الموضوعات التالية :

١ - النمو اللغوى الطبيعى.

٢ - اضطرابات النطق.

٣ - الأمراض الكلامية.

وهذا عرض مركز لما يعنينا من هذه القضايا :

أولاً - النمو اللغوى الطبيعي :

إن قضية النمو اللغوى الطبيعى قضية تعنينا نحن الدارسين للغة ، وهى مدخل أساسى لفهم الموضوع الذى نعرض له.

وفى إطار تناولنا لقضية النمو اللغوى نعرض لما يلي :

١ - العوامل المؤثرة فى اكتساب اللغة.

٢ - مراحل الاكتساب اللغوي.

١ - عوامل الاكتساب اللغوى:

تتحكم فى عملية الاكتساب اللغوى مجموعة من العوامل يجملها العلماء فى ثلاثة:

العامل الأول : العوامل الحسية : فلا بد من توافر مجموعة الحواس والأعضاء القادرة على اكتساب اللغة كحاسة السمع ، وجهاز نطقى سليم ، وجهاز عصبى مركزي. وسيتبين كيف أن أى عطب أو تلف أو فقدان لأى من هذه الأجزاء يؤثر سلباً على النمو اللغوى بل يعوقه بقدر التلف أو الفاقد.

العامل الثانى : العوامل التربوية والأسرية والاجتماعية. فالإنسان يتلقى اللغة بنظامها العرفى من مجتمعه، ويتحكم فى الاكتساب أسلوب التعلم، وهنا سنجد أن تدريب الطفل على الكلام، ونشوءه فى أسرة متعلمة مثقفة يكون له دخل فى طبيعة النمو، ويختلف ذلك بطبيعة الحال عن نشأة الطفل فى أسرة أمية ، كما أن ظروف الأسرة ووجود الأم فى المرحلة الأولى للتعلم يكون مهما فى سير النمو اللغوى سيرًا طبيعيًا، وغياب الأم فى هذه المرحلة (بالطلاق أو الانفصال أو السفر أو الوفاة)، يكون ذا أثر بالغ فى إعاقة هذا النمو كما سيأتي. كما أن الاستقرار الأسرى واندماج الطفل فى وسط اجتماعى سوى ينمى المدارك والقدرات المختلفة، ومنها القدرة اللغوية، ويختلف هذا عن نشأة الطفل منعزلاً منطويًا كطفل الملاجئ أو الأطفال المشردين ، حيث أثبتت الإحصاءات فروقًا لغوية واضحة فى مظاهر النمو اللغوى فى الحالتين.

العامل الثالث : العوامل النفسية والعقلية: حيث يقوم الاستقرار والتشجيع من جانب واكتمال المدارك الذهنية والقدرات العقلية كالذكاء وسلامة مراكز الربط والتنظيم والفهم الموجودة فى المخ من جانب ثان - يقوم ذلك بدور مهم ويؤثر فى النمو الصحيح للغة خلافًا لجو القلق والخوف والاضطراب أو وجود تخلف عقلى أو عيب يعطل القدرة الذهنية على اكتساب المعرفة ومنها المعرفة اللغوية.

٢- مراحل الاكتساب اللغوى:

يقسم العلماء مراحل الاكتساب اللغوى إلى مرحلتين أساسيتين ، أولاهما : المرحلة قبل اللغوية وتشمل:

٢-١ **مرحلة الصراخ :** فالصرخة الأولى عند الميلاد هى أول بادرة تؤكد قدرة الجنين على التصويت، والجنين وهو فى بطن أمه يصبح لديه أجهزة للتصويت قادرة على العمل ابتداء من الشهر الخامس للحمل، ولا شك أن الصراخ يمثل فى الشهور الأولى من حياة الطفل - أحد أهم وسائله فى التعبير عن حاجاته وأحاسيسه ، ولكنه على الرغم من ذلك لا ينتمى إلى النظام اللغوى ، وإنما هو رمز إشارى يعينه على التعبير فحسب، شأنه شأن تحريك القدمين ، أو هز الذراعين لإفهام الأم ، أو من حوله بالحاجة للرضاعة أو التعبير عن الألم .. إلخ.

٢-٢ ثم مرحلة المناغاة وهى أيضًا تابعة للمرحلة ما قبل اللغوية، وهى مرحلة الثرثرة أو الثغثغة ، ويلاحظ فى هذه المرحلة أن الأصوات التى يصدرها الطفل تبدأ بما يشبه صوت (ل ، ل ، ل ،) وتبدأ الأصوات عند الطفل بأحرف الحلق(ء ، هـ، ع ، ح ، غ ، خ) ثم أحرف الشفاه (م ، ب) ثم أحرف طرف اللسان (ز ، ث ، ت) ثم أحرف وسط اللسان (ص ، ض) ويكثر الطفل فى البداية من أحرف العلة بالمقارنة بالساكنة فتكون النسبة فى عمر ٦ شهور ٢ : ١ ونهاية السنة الأولى تنعكس فتصبح ١ : ٣.

٢-٣ ثم مرحلة تقليد الأصوات ، وفيها يحاكى حركات المحيطين به ويحاكى نغمة صوتهم ، لكنه لا ينطق كلمات ، وقد تنتهى هذه المرحلة بنطق صوت مثل (ما) أو (با) أى الصوت المقطع.

المرحلة الثانية : المرحلة اللغوية : وفيها يبدأ الطفل بنطق كلمات من مقطع ذى معنى، وليس ثمة سن واحدة محددة تبدأ عندها هذه المرحلة بحيث تنطبق على جميع الأطفال ، بل يختلف ذلك من طفل إلى آخر فقد تبدأ مبكرة عند الأذكياء جدًا

فى سن ٩ شهور والطبيعى حوالى سنة ، وفى المتوسط فى سن ٥١ شهرًا وقد تتأخر الكلمة الأولى إلى الشهر ٣٨ عند ضعاف العقول، وهذا جدول يشير إلى نتيجة دراسة تسجل النمو اللغوى عند الأطفال.

العمر بالسنوات والشهور	عدد الأطفال	عدد المفردات
ثمانية أشهر	١٣	صفر
عشرة أشهر	١٧	١
حتي سنة واحدة	٥٢	٣
سنة وثلاثة أشهر	١٩	١٩
سنة وستة أشهر	١٤	٢٢
سنة وتسعة أشهر	١٤	١١٨
حتي سنتين	٢٥	٢٧٢
سنتان وستة أشهر	١٤	٤٤٦
ثلاث سنوات	٢٠	٤٩٦
ثلاث سنوات ونصف	٢٦	١٢٢٢
أربع سنوات	٢٦	١٥٤٠
أربع سنوات ونصف	٣٢	١٨٧٠
خمس سنوات	٢٠	٢٠٧٢
خمس سنوات ونصف	٢٧	٢٢٨٩
ست سنوات	٩	٣٠٠٠ - ٣٥٦٢

ويلاحظ على الاستخدام اللغوى فى هذه المرحلة ، أن الطفل يبدأ بأسماء

الأشياء والأفراد مثل بابا - ماما ، باب ، عين ، وفى ذلك يبدأ بالحسيات قبل المجردات وأخيرًا الصفات ، وفى الثلاثين شهرًا يبدأ فى استخدام الأفعال وفى أواخر السنة الثالثة يبدأ فى استخدام الضمائر (أنا ، أنت ، هو ، هى) وآخر وحدات الكلام عنده هى الحروف، وفى دراسة لنمو أقسام الكلام تبين ما يلي :

أقسام الكلام	السنة الثانية	السنة الثالثة	السنة السادسة
الأسماء	٦٢	١١٠	١٨٠
الأفعال	١٨	٣٣,٥	٤٣٠
الضمائر	٦,٥	١٣,٥	١٣,٥
الظروف	٧	١٤	١٥
أحرف الجر	٢,٥	٦	٨,٥

ويبدأ الطفل بنطق الجمل ، وأصغر جملة عنده تكون من كلمة وهى الجملة الكلمة، وتكون فى حوالى ١٨ شهرًا، ثم تزداد تدريجيًا على النحو التالي :

عمر الطفل بالسنوات	عدد الكلمات في الجملة
٢,٥ سنة	٣
٣,٥ سنة	٤
٦,٥ سنة	٥

وهنا تتأثر لغة الطفل فى كل الأطوار السابقة بالعوامل الذاتية كالحالة النفسية للطفل والقدرة العقلية ، والظروف البيئية المحيطة به.

ثالثًا - اضطرابات النطق :

الرصد السابق هو عرض سريع جدًا لظاهرة النمو اللغوى فى شكلها

الطبيعى ، غير أن عملية النمو عند الإنسان قد تتعرض لمعوقات أو انتكاسات تعوقها أو توقفها تمامًا ، فكما أن الطفل قد يتعرض لمرض فتضعف عنده حاسة السمع أو البصر ، أو ربما تصل إلى الصمم أو العمى ، وقد يتعرض لحادث فتبتر ساقه أو تشل ذراعه ، فكذلك الشأن مع ظاهرة النمو اللغوى ، فهو جانب من الجوانب لدى الإنسان الذى قد يتأثر بالمرض أو العجز لخلل يصيب أحد العناصر التى لها صلة بالنمو اللغوى ، ولعل أهم العوامل التى تؤدى إلى اضطرابات النطق أو تعطل الوظيفة اللغوية جزئيًا أو كليًا فيظهر المرض الكلامى ، وتتمثل هذه العوامل فيما يلي : عوامل اضطرابات النطق ١ -

١ - عوامل عضوية : تتمثل فى إصابة أحد أعضاء النطق والكلام مثل :

* شلل أعضاء النطق بما يعوقها عن أداء وظيفتها.
* إصابة الأعصاب الدماغية أو القشرة المخية وعجزها عن نقل واستقبال الرسالة اللغوية.
* إصابة أعضاء النطق بالأمراض والالتهابات الحادة كالحنجرة والحلق واللوزتين والأنف والأذن ، أو إصابة الشفاه - كما فى حالة الشفة الشرماء - أو إصابة سقف الحنك ، أو تورم اللسان ، أو إصابته بما يؤدى إلى قصور فى أداء أربطته العضلية.
* ضعف الحواس وبخاصة السمع.
* الضعف العقلى الخلقي أو الناتج عن أمراض كإصابة الطفل بالالتهاب السحائى المؤثر على منطقة بروكا ، وتورم بعض الخلايا العصبية.
* تشوه انتظام الأسنان ، وعدم تناسق الفكين وانطباقهما انطباقًا تامًا.
* وجود خلل فى الغدد يؤثر فى إنتاج الهرمونات ، بالقدر الذى يؤثر فى الأعصاب والمراكز العصبية.
* إصابة الإنسان بأمراض الصدر والرئتين والدرن والسعال مما قد يؤثر فى عملية توافق التنفس مع عملية النطق .

٢ - الأسباب الاجتماعية والتربوية:

* إن حرمان الطفل من الحنان الأسرى يؤدى إلى خلل ظاهر فى عملية النمو اللغوى ، فقد لوحظ أن طفل الملجأ المحروم من عطف أسرته ورعايتها وبخاصة الأم - يتأخر لغويًا بحوالى ستة أشهر عن الطفل العادى (مع تثبيت باقى العوامل المؤثرة فى اللغة)، وقد لوحظ أن الطفل عندما يعود من مدرسته الداخلية إلى أسرته وأمه تنشط لغته وتتحسن.

* طفل العائلة إذا انفصل عن أمه لسبب ما (سفر - طلاق - انفصال - وفاة) يفقد موهبته فى النطق.

* لغة التوأم تتأخر عن لغة الطفل العادي بحوالى ٥ أشهر ، لاختلاف بيئة التوأم، من خصوصية العلاقة ، وما بينهما من التعاطف والتقارب الذى يعوق الانطلاق ، والتوأم يهيئ لأخيه من الإرضاءات الاجتماعية والانفعالية المختلفة بما يجعل الدوافع المهيئة لتعلم اللغة والكلام محدودة إلى حد ما. وقد لوحظ أن طول الجملة عند التوأم فى عمر ٤,٥ سنة فى المتوسط ٣,٥ كلمة أو أكثر قليلاً ، على حين تبلغ عند الطفل العادى فى مثل سنه ٤,٥ كلمة فى المتوسط.

* يلاحظ أن طفل الأسرة المثقفة والغنية بتراثها تساعد على نمو مفردات الطفل ولغته (ومداركه بوجه عام) بصورة أفضل من طفل البيئة الفقيرة ، والأسرة المثقفة تمكن طفلها من فهم عدد أكبر من الكلمات وممارسة أفعال أقل ، وعلى العكس نجد طفل الأسرة الفقيرة والبيئات العمالية يفهم كلمات أقل وتزيد أفعاله وحركاته.

٣ - الأسباب النفسية والوجدانية :

قد يكون اضطراب الكلام راجعًا إلى اعتبارات نفسية خالصة ، وفى هذه الحالة تكون جميع أعضاء النطق والكلام سليمة تمامًا ولكن الظروف المحيطة بإنتاج الكلام تعوق إنتاجه ومن بين ذلك:

* تعرض الطفل لصدمة وجدانية حادة قد تؤدى إلى فقدان الكلام الهستيري.
* كذلك إصابة الإنسان بالاكتئاب أو ضعف الثقة بالنفس ، والعجز عن تأكيد الذات ، والحرمان العاطفى للطفل أو الخوف الشديد من الوالدين ، أو خوف الوالدين الزائد على الطفل وتدليله ، والكبت والقلق والانطواء.
* حالات الانتقال المفاجئ من بيئة لأخرى ، أو التعرض على غير العادة للحديث مع من هم أكبر أو بعض الشخصيات المهمة أو مع الجنس الآخر ، أو التحدث على غير المألوف أمام جماعة ، أو دخول المدرسة لأول مرة ، واستبدال مربية بأخرى. وقد يرتبط الاضطراب بالموقف المعين فحسب ، فإذا تغير الموقف عاد الكلام طبيعيًا .

٤ - العوامل المركبة :

قد يجتمع عاملان أو أكثر من العوامل السابقة فيكون ذلك سببا فى الاضطراب اللغوى ، كأن يكون هناك عيب فى بعض أعضاء النطق فى الأنف أو الشفة مثلاً ، وحدث أن سخر من صاحب العيب زميل أو أحد أفراد الأسرة ، فأحدث ذلك هزة نفسية نتج عنها تهتهة أو لعثمة أو حبسة كلامية. فتكون العوامل العضوية والنفسية معًا مؤدية للمرض الكلامي.

ولكن ما الأعراض التى نتبين منها وجود خلل فى النمو اللغوى أو تأخر فى الكلام؟ ثمة مظاهر كثيرة لذلك منها :

* أن الطفل العادى فى النصف الثانى من السنة الأولى وبداية الثانية يعبر عن الرفض بتغطية رأسه أو عينيه أو يدير رأسه تمامًا أو يخفى وجهه خلف الملابس ، على حين أن الطفل المحروم أسريا مثلاً يكون رفضه بتدوير رأسه حول العمود الفقرى بما يعنى (لا) كما يصاحب ذلك بعض الحركات السلبية وأحيانا صراخ وتمتمات غير مفهومة.
* ظهور عيوب فى النطق واضحة مثل التأتأة ، واللُّثغة (تحويل الراء لاما ، والسين ثاءً ، والتمتمة ، وثقل اللسان (اللفف) ، وغموض الكلام وإدغامه،

واللعثمة ، وعمى الكلام (تعذر فهم ما يسمع من كلام).

* ضآلة المحصول اللغوى : فعدد المفردات عند الطفل متأخر النمو تقل عن الطفل العادى فى مثل سنه وجنسه ما بين ٤٠٠ إلى ٦٠٠ كلمة.

والطفل المتأخر الذى يبلغ من العمر ٤ سنوات يتراوح محصوله بين ٧٠٠ إلى ٨٠٠ كلمة ، على حين أن محصول نظيره العادى حوالى (١٥٤٠).

* يكثر الطفل المتأخر من إصدار الأصوات عديمة الدلالة والاعتماد فى التفاهم على الحركات والإشارات.

* الاكتفاء فى الإجابة بنعم أو لا أو بكلمة واحدة أو بجملة صغيرة من فعل وفاعل فقط.

* الصمت أو التوقف عن الحديث ، والسلبية وعدم المشاركة فى الحديث الجماعي.

* يصاحب ذلك اضطرابات سلوكية ونفسية غالبًا كالانطواء أو العدوانية أو السلبية ... إلخ.

أهم أشكال اضطرابات النطق :

ومما يعرض له العلماء أيضًا الأشكال التى يظهر منها وجود اضطرابات كلامية Articulation disorders ، ومن هذه الأشكال:

١ - **اضطرابات إبدالية Substitution** : وتكون بإبدال حرف بحرف آخر لا لزوم له ، كأن يستبدل الطفل حرف (س) بحرف (شين) ، أو حرف (ر) بحرف (ل) .

وقد يكون ذلك بسبب تبديل الأسنان عند الطفل أو التهابات فى الأنف أو غير ذلك من أسباب عضوية ، وربما رجعت لعوامل نفسية كالخوف والقلق والانفعال.

٢ - **اضطرابات تحريفية Disordier**: وتكون بإصدار صوت خاطئ والصوت الجديد لا يبتعد كثيرًا عن الصوت الحقيقى ، مثل نطق فنلة فملة أو سسته

سدسة ، ويكثر ذلك فى حالة ازدواجية اللغة ، وطغيان لهجة على أخرى مثل فيلا تنطق فلا أو فديو ، فديون.

٣ - **اضطرابات حذف omission أو إضافة addition:** وتظهر فى شكل حذف بعض أحرف الكلمة مثل بحر تنطق بح ، عربية بيَّه. أو إضافة حروف تفسد معنى الكلمة مثل عيشه يقصد عيش. أو يجمع بينهما فيحذف ويضيف معًا فيصعب فهم المراد.

٤ - **اضطرابات ضغط** : وتكون بالضغط على بعض الحروف لكى ينطق نطقًا صحيحًا كالضغط على الرّاء أو اللام مثل : كرّه أى كرة.

ثالثًا : أهم الأمراض الكلامية :

نستعرض هنا نموذجين اثنين لبعض الأمراض الكلامية التى يعرض لها العلماء:

١ – (الرُّتة) التهتهة Stuttering :

التهتهة مرض كلامى يظهر فى شكل اضطرابات فى النطق بتكرار أو ترديد لا إرادى لصوت أو مقطع فى كلمة مع عدم القدرة على تجاوز المكرور إلى الذي يليه. وبهذا تكون التهتهة من اضطرابات التلفظ مثل :

ب ، ب ، ب ، بلد ، عـ ، عـ ، عـ ، عندي . ومن الملاحظ أنها تكثر عند الذكور قياسًا على الإنـــاث وتبلغ نسبة الإصابة فى الذكور إلى الإناث ٤ : ١.

* ويلاحظ عند الإصابة بالتهتهة وجود تغييرات ملحوظة على المريض كزيادة معدل النبض إلى حوالى ١٣٠ نبضة / دقيقة قياسًا على المعدل الطبيعى ٧٥ نبضة / دقيقة. كما ترتفع نسبة الفوسفات فى دم المريض حوالى أربعة أمثال النسبة الطبيعية فى بعض الأحيان.

* قد تتحول التهتهة إلى حُبسة كلامية (عقلة فى اللسان) قد تطول وقد تقصر.

* وتكثر هذه الحالة فى مرحلة الاكتساب اللغوى ومرحلة دخول المدارس

وتسمى(تهتهة النمو) أو التهتهة الفسيولوجية ، وترجع لعدم النضج الكامل لأعضاء الكلام ، وأربعة أخماس الحالات من هذا النوع لا تستمر ، على حين يبقى الخمس الباقى ويثبت وهذا هو الشكل المرضي.

* على أن الأسباب التى تختفى وراء هذه الظاهرة تكمن فيما يلي :

- ٢٥ ٪ من الحالات ترجع لعوامل وراثية قبل الولادة أو بعدها على شكل استعدادات للإصابة وقد تزيد النسبة فى بعض الدراسات إلى ٣٤ ٪.
- للجنس دخل فى ذلك فنسبة المتهتهين الذكور أربعة أضعاف نسبة الإناث المتهتهات ، وقد ثبت أن الإناث لهن مقاومة كبيرة ضد العوامل الوراثية.
- على أن من أهم أسباب التهتهة ما يكمن فى العامل النيورولوجى (العصبي) كأن يجبر الطفل الأعسر على أن يستخدم يده اليمنى فى الكتابة. مما يخلق بؤرة عصبية جديدة تثير باستمرار موجات عصبية كهربائية تؤدى إلى اضطراب وظيفى فى المنطقة الخاصة بالنطق فتظهر فى شكل تهتهة .
- ولعل العوامل النفسية والانفعالية تكون أهم أسباب هذه الظاهرة ، فالقسوة فى معاملة الطفل والإيحاء له بالشذوذ فى السلوك أو النطق أو الحرمان العاطفى، والخوف والقلق والصراع النفسى مع وجود الاستعدادات العضوية أو الوراثية للإصابة بالأمراض والاضطرابات لعل ذلك يكون هو العامل الأساس لظهور هذا الاضطراب. وبهذا تكون التهتهة عرض بسيكوسوماتى (نفسى - جسمى معًا).
- نسبة من المتهتهين من مزدوجى اللغة الذين لا يركزون على لغة واحدة فى مرحلة الاكتساب اللغوى مما يؤدى إلى النقص اللغوى ، وظهور الاضطرابات الكلامية وتبلغ نسبة هؤلاء فى بعض الدراسات ١٤ ٪ من المتهتهين.
- كما لوحظ أن ثمة تأخرًا ملحوظًا فى الاكتساب اللغوى عند المتهتهين قياسًا إلى العاديين كما يظهر من الجدول التالي :

زمن نطق الجملة الأولى	عدد المتهتهين	عدد العاديين
أقل من ١٨ شهرًا	١١	٢٣
من ١٨-٢٣	٣٢	٣٩
من ٢٤-٢٩	٢٣	١٣
من ٣٠-٣٢	٥٠	١٠
من ٣٦ فأكثر	٧٠	١٠

ومن الجدول يتبين أن نسبة المتهتهين الذين تأخروا فى نطق الجملة الأولى أعلى من نسبة العاديين فى نطقها.

٢ - الأفازيا (الحُبسة الكلامية Aphasis) :

كلمة أفازيا كلمة يونانية مكونة من (A) بمعنى عدم ، و Phasis أى كلام speech وقد ترجمت إلى العربية بمعنى احتباس الكلام.

والأفازيا هى تعطل فى الوظيفة الكلامية من حيث قدرة الفرد على الإدراك الصوتى ، والتعبير بالرموز سمعًا أو بصرًا أو كتابة أو نطقًا أو غير ذلك حتى ولو كانت الحواس وعضلات الفم سليمة ... ولهذا عدها بعضهم شكلاً منَ أشكال فقدان الذاكرة Amenesia وبخاصة فى حالة عدم القدرة على تذكر أسماء بعض المرئيات أو إيجادها.

أما تصنيفات العلماء لأشكال الأفازيا فأهمها ما يلي :

أولاً - تصنيف هنرى (هـد) ويعتمد على الوظيفة اللغوية وتتمثل فى الأشكال التالية:

١- أفازيا لفظية : ويكون المريض عاجزًا عن إحضار الكلمات قولاً وكتابة.

٢ - أفازيا اسمية : ويكون المريض عاجزًا عن فهم أسماء الأشياء أو معنى الكلمات.

٣ - أفازيا نحوية : ويكون المريض عاجزًا عن تركيب الجملة مع مراعاة القواعد.

٤ - أفازيا معنوية: ويكون المريض عاجزًا عن فهم الكلام المركب ، مع فهم المفردات منفصلة.

ثانيًا - تصنيف موناكوف:

١ - أفازيا التعبير : وتتصل بالناحية الحركية لا الحسية ، ومن أهم أشكالها (الخرس) وهو عدم القدرة على التعبير لفظًا بدون شلل فى اللسان أو أعضاء النطق مع القدرة على فهم الكلمات.

٢ - أفازيا الاستقبال : وتتصل بالناحية الحسية لا الحركية ، ومن أشكالها : الصمم اللفظى : وهو تعذر فهم الكلام المسموع دون إصابة جهاز السمع ، ومن أشكالها كذلك العمى اللفظى : وهو تعذر فهم الكلام المكتوب دون أن يرجع ذلك إلى إصابة البصر.

٣ - أفازيا ناتجة عن فقدان الذاكرة ، ومعها ينسى المريض أسماء الأشياء التى يتعامل معها فى الحياة اليومية دون أن يفقد القدرة على الفهم أو التعبير .

وأخيرًا فإن وعينا بمخارج الأصوات أو بالصيّغ الصرفية الصحيحة أو ترتيب الجملة وفق نظام اللغة أو مدلول المفردات أو الجمل فى ضوء فهمنا للنظرية اللسانية فى علم اللغة - هو الذى يقدم لنا العون - نحن المهتمين باللغة - فى إدراك هذه الاضطرابات أكثر من غيرنا ، كما تسهم النظرية اللسانية فى هذا الإطار فى تقديم يد العون لعلماء النفس والتشريح ووظائف الأعضاء فى فهم حقيقة النظام اللغوى حتى يتسنى لهم تحديد نوع الخروج عليه وطبيعته ومحاولة تفسيره ، ومدرس اللغة أحوج الناس وهو يتصدى لتدريس اللغة إلى أن يكون على وعى بطبيعة عمله بوصفه معلم لغة ومدرباً عليه أن يصلح العيوب النطقية، والتعرف على الوسائل التى تمكنه من تقديم النماذج اللغوية للقراءة ، وتدريب

جهاز النطق وتنشيط مراكز التنظيم والربط اللغوى للمساعدة على فهم ما يقرأ ، والتدريب على توظيف اللغة وتنمية ملكة التدريب على استحضار المفردات وتحويلها من حالة خمود فى الذهن إلى حالة النشاط بأن تكون فى بؤرة الاستعمال ، وكما سبق القول فإن جزءًا من اضطرابات النطق يرجع فيها إلى الأسرة وإلى معلم اللغة فى تنمية الثروة اللفظية وتنشيط الملكة اللغوية وتقويم بعض الاضطرابات دور كبير ومهم ، وهناك جزء آخر يخص الطبيب والنفسانى إذا كانت الحالة ذات صلة بجوانب عضوية أو نفسية ، وما أكثر الحالات التى تحتاج إلى تعاون الجميع إذا كان مرد الاضطراب إلى عوامل متنوعة كما سبق القول.

رابعًا - صناعة المعجم:

أحد أهم المجالات التي يعنى بها علم اللغة التطبيقى هو مجال صناعة المعجمات بأنواعها المختلفة. وسوف يتضح أن صلة هذا المجال بعلم اللغة النظرى ربما كانت أقوى نظريًا وعمليًا من صلة علم اللغة النظرى بمجالات متعددة يهتم بها المشتغلون بعلم اللغة التطبيقي. ولعل من المفيد فى هذا السياق أن نفرق تفريقًا واضحًا بين مجالين متقاربين متداخلين ، وإن كانا متمايزين.

الأول : علم المعجم Lexicology.

الثانى: صناعة المعجم Lexicography.

المجال الأول- علم المعجم Lexicology:

أما علم المعجم فهو أحد فروع علم اللغة النظرى Linguistics وبموقعه هذا فهو قسيم لعلم الأصوات ، وعلم الصرف ، وعلم النحو ، وعلم الدلالة . ويعنى علم المعجم بدراسة مفردات اللغة ومعانيها فى لغة واحدة أو فى عدة لغات وينظر إلى هذه المفردات من حيث اشتقاقها ، وأبنيتها ، ودلالاتها المعنوية والإعرابية ، والتعابير الاصطلاحية ، والمترادفات ، وتعدد المعاني .

فحين يتصدى عالم اللغة Linguists لدراسة كلمات اللغة ، ويبحث بحثًا علميًا فى خواصّ الكلمة ، وأسرار نسجها لإدراك ما يميز الكلم فى اللغة التى يدرسها من الكلم فى اللغات الاخرى ، وحين يتعرض اللغوى للتعرف على معنى أو معانى الكلمات فى اللغة فيميز الحقيقى من المجازى ، والخاص من العام ، والحسى من المجرد، والمركزى الأصلى من الثانوى العرضى ، وحين يتناول تصريف الكلمة واشتقاقاتها ، ودلالة الصيغة خارج السياق ، ومعنى التعبيرات الاصطلاحية فى اللغة idioms ، وعلاقة ألفاظ اللغة بعضها ببعض، وعلاقة معانى المفردات بعضها ببعض، وعلاقة اللفظ بالمعنى وما ينشأ عن ذلك من ظواهر كالترادف والمشترك اللفظى ، والتضاد وما يندرج تحته من علاقات كعلاقة الكل بالجزء وعكسها ، وعلاقة التضمين، وعلاقة الاشتمال أو عدم وجود علاقة كالتنافر، حين يتصدى اللغوى لهذه القضايا بالنظر الفاحص والدراسة العلمية فإن ما يقوم به حينئذٍ من صميم الدرس المعجمى النظرى فى إطار البحث اللغوى العلمى للغة.

المجال الثانى - هو صناعة المعجم Lexicography :

وهذا المجال صناعة أو فن وليس علمًا ، وهو مجال يتسم بالطابع العملى الميدانى الذى يلبى حاجات الناس فى مجال من المجالات ، وهو تبعًا لذلك محكوم بعوامل مختلفة بعضها تجارى وبعضها ذوقى يتحكم فيه رغبة الناس أكثر مما يتحكم فيه رأى العلماء ونظرياتهم. ومن هنا نجده يعنى بالنواحى التالية: "جمع المعلومات والحقائق ، واختيار المداخل وترتيبها طبقًا لنظام معين ، وكتابة المواد ، ثم نشر النتاج النهائي".

مما سبق يتبين أن عملية الجمع مهمة غير لغوية وإن اقتضت خبرة لغوية أما عملية الإخراج والنشر فلا صلة لها بالدرس اللغوى ، على حين أن اختيار المداخل وترتيبها طبقًا لنظام معين ، وكتابة المواد - تحتاج تدخلاً ومساهمة فاعلة من علماء اللغة لتقديم العون العلمى مما تم إنجازه فى النظرية اللسانية الحديثة ،

وهو بالتأكيد هائل بعد أن خطا علماء اللغة خطوات كبيرة فى فهم أسرار النظام اللغوى وعلاقة الوحدات بعضها ببعض داخل هذا النظام ووظيفتها فيه وهو ما يمكن أن يقدم لنا مثلاً ما يلى:

فى إطار اختيار المداخل وترتيبها يمكن أن يراعى ما يلى(وللعربية خاصة):

١ - أن تتقدم الأفعال ، ثم المصادر ، ثم الأسماء ، ثم الأعلام ، ثم الصفات ، ثم الحروف.

٢ - أن ترتيب الأفعال يكون بتقديم المجرد قبل المزيد ، والثلاثى ثم الرباعى ثم الخماسى ، واللازم قبل المتعدى ، والمتعدى بنفسه قبل المتعدى بحرف جر.

٣ - بالنسبة للأسماء والصفات ترتب بدءًا بالمجرد منها ثم المزيد.

٤ - أما الحروف فترتب ترتيبًا ألفبائيًا بحسب الحرف الأول ثم الثانى ثم الثالث.

٥ - الفصل بين معانى الكلمة الواحدة الناشئة عن اختلاف ما يجوز معها من كلمات كالفصل بين معانى الفعل الواحد الناشئة عن اختلاف الصفات الانتقائية لما يعبر عن فاعله ، وذلك بإعطاء الفعل رقمًا مختلفا مع كل معنى جديد ، وتحديد موقعه بشرطة طويلة متلوة بفاعله ، وينطبق الأمر ذاته على ما يشبه الأفعال فى هذه الخاصة من الصفات مثال ذلك :

جَلب (ف ز)

١ - ــــــ القوم : اختلطت أصواتهم .

٢ - ــــــ الدم : يبس.

٣ - ــــــ الرجل : توعد بشر أو جمع الجمع.

٤ - ــــــ الجرح : برأ .

وأما المعانى المتعددة للكلمة الواحدة التى لا تنشأ عن اختلاف ما يجوز معها من الكلمات فتذكر مع هذه الكلمة مرة واحدة بعطف بعضها على بعض بالواو مثل :

الجلاب (س) : ـــ ماء الورد ، وقرية بالرُّهى ، ونهر.

إن التصور السابق ونظائره يعتمد ابتداء على بصر بالنظرية اللسانية الحديثة ، ووعى علمى بنظام اللغة التى يخصص لها العمل المعجمى ، ومن الواضح أن صناعة المعجم تهتم بحاجة طلاب المعجم ، وتبعًا لذلك فإن المشتغل بصناعة المعجم قد يفضل لأسباب تجارية أو فنية - أن يهمل نظرية اللغة أو لا يستفيد منها كثيرًا فى مقابل أن يحقق ربحًا أكثر ناتجًا عن ارتفاع نسبة التوزيع، من ثم فهو يعنى فى المقام الأول بحجم المعجم كأن يقع فى مجلد واحد، بثمن معقول ، وقد ثبت أن المادة الموضوعة فى مجلد واحد ، بثمن معقول ، أكثر رواجًا منها لو وضعت فى مجلدين أو أكثر . كما يعنى المشتغلون بصناعة المعجم بمحاولة الارتقاء بالصناعة المعجمية بهدف تيسير مهمة الباحثين فى المعجم ، ويدخل فى صميم عملهم آنئذٍ كل الوسائل الممكنة لتحقيق هذا الهدف باستخدام أفضل وسائل الإيضاح من لوحات وصور ، كذلك محاولة الاستفادة من إمكانات الطباعة من تنويع فى اللون وحجم الخط ، وكل ما من شأنه أن يسهل مهمة شداة المعجم بوصفه قائمة مفردات ، وتقاس كفاءة هذا العمل بمدى ما وصل إليه واضع القاموس من تبسيط فى إجراءات الكشف عن المفردة وفى الإحاطة والشمول والاستقصاء لمادة اللغة وفى تدارك المعانى الأصلية والفرعية.

والفرق إذن بين عالم اللغة الذى يتصدى لنظرية المعجم فى إطار علم المعجم من جانب ، وبين المؤلف المعجمى Lexicographer فى مجال الصناعة المعجمية والذى مهمته تصنيف قاموس Dictionomy من جانب آخر، كالفرق بين عالم الرياضيات النظرى وخبير الرياضيات التطبيقية أو بين

المهندس الذى يصمم ، والمعمارى الذى ينفذ التصميم ، أو بين الطبيب الذى يشخص من قراءته لصورة الأشعة ، وفنى الأشعة الذى يلتقط الصورة فحسب .

ولا شك أن الصلة قوية جدًا بين النظرية والتطبيق ، ولكن فى الواقع ظلت صناعة المعجم تعتمد على حرفيين فى هذا المجال لم يستفيدوا من نتائج النظرية اللسانية الحديثة، ويعلق فاين رايش وهو لغوى حديث على غياب الأسس النظرية من واحد من أعظم معاجم الإنجليزية وهو معجم وبستر الدولى قائلا : "إنه لمن المربك حقا أن جبلاً من التطبيقات المعجمية ، كهذا القاموس الإنجليزى الشامل لا يتمخض إلا عن حفنة تراب من النظرية اللغوية ولاشك أن الدراسة النظرية مهمة جدًا فى الصناعة المعجمية ولكن كثرة النظريات تعوق الاستفادة ، فأيها يصلح وأيها لا يصلح فليس كل ما يقال يصلح للتطبيق ، وهو ما دعا بعضهم إلى التحذير من مخاطر التركيز على النظرية وحدها قائل : "النظرية حسام لم يعش به الباحثون فحسب، بل لقوا حتفهم على نصله أيضًا" فليست العبرة فى النظريات وإنما المهم هو إمكانية التطبيق. ولكن بعد أن خطا علم اللغة النظرى خطواته الثابتة فى النصف الثانى من القرن العشرين وبخاصة الاهتمام بالمستوى المعجمى فى إطار الدراسة الدلالية التوليدية - أصبح المجال مفتوحًا أمام استفادة الصناعة المعجمية من النظرية اللغوية الحديثة بعد دخول اللغويين المجال وتقديم دراسات نقدية قيمة بل ولج اللغويون أنفسهم المجال وأصبحوا يشاركون فى تحرير المعجمات بأنفسهم والمشاركة فى تشكيل لجان معجمية فى إطار الجمعيات اللغوية الحديثة ، وعقدت المؤتمرات والندوات لتقديم الحلول العلمية لمشكلات الصناعة المعجمية ، ولا أحسب أن هذا الزواج الشرعى بين علم المعجم وصناعة المعجم إلا مخصبا وستكون له آثار مهمة فى بناء المعجم على أسس علمية تخلصه من كثير من الاضطراب والخلط، ولتصبح بذلك صناعة المعجم واحدة من أهم مجالات تطبيق النظرية اللسانية الحديثة.



ملخص الوحدة الثالثة

تناولت هذه الوحدة التعريف بعدد من العلوم اللغوية المساعدة ، وركزت هنا على عدة علوم منها :

علم اللغة الاجتماعي: يعنى بدراسة الطرق التي تتفاعل بها اللغة مع المجتمع ، وكيفية تغيُّر البنية اللغوية استجابة لوظائفها الاجتماعية المختلفة.

وعلم اللغة النفسي: يختص بدراسة العوامل النفسية المؤثرة في اكتساب اللغة الأم ، وخاصة عند الأطفال ، أو تعلم اللغات الأجنبية ، كما يدرس عيوب النطق والكلام ، والعلاقة بين اللغة من جانب والنفس البشرية من حيث الاكتساب والإدراك.

علم اللغة الجغرافي: وهو يختص بتصنيف اللغات واللهجات المختلفة وحصرها وتوزيعها طبقا لموقع كل منها جغرافيا ، ومراعاة خواصها في هذا التوزيع وأهميتها بوصفها لغات حضارة ، أو لغات أديان ، أو لغات أقليات ... إلخ، وإعداد الأطالس اللغوية التي تشير إلى هذا التوزيع .

وعلم الأسلوب: يهتم بدراسة مظاهر التنوع والاختلاف في طرائق استخدام الناس للغة وتحليلها ، كما يحاول رصد الملامح اللغوية التي تختص بها لغة كاتب من الكتاب ، أو أديب من الأدباء .

كما عرضت هذه الوحدة لمفهوم **علم اللغة التطبيقي** ، بوصفه مجالا يُستفاد فيه من النظرية اللسانية في مجال عملي ، وتم استعراض بعض هذه المجالات التطبيقية مثل:

تعليم اللغة القومية : حيث استفاد المعلم من الوصف العلمي لأنظمة اللغة ، وكيفية نطقها نطقا سليما ، والتعامل مع اللغة بوصفها وحدة منظمة متماسكة ، وتعرف من اللغويات الإحصائية أنسب المفردات لتحقيق الأغراض التعليمية،

وبناء الجمل بناء يسهل عملية تعلمها، مع مراعاة الطبيعة الاجتماعية للغة.

وفي مجال تعليم اللغات الأجنبية تم التعرف على الطرق المختلفة التي اصطنعها العلماء وطوروها للنجاح في تحقيق أهدافهم ، ومنها طريقة القواعد والترجمة، والطريقة المباشرة، والطريقة الانتقائية، والطريقة السمعية الشفوية.

وفي مجال أمراض الكلام: عرضت الوحدة للنمو اللغوي الطبيعي ، واضطرابات النطق ، وظهور المرض الكلامي ، وبيان أسبابه ، وما يمكن لمعلم اللغة أن يشارك به في معالجة الاضطراب اللغوي ، أو أمراض الكلام.

وفي مجال صناعة المعجم بان لنا أن هذا الفرع من أكثر المجالات التي يلتقي فيها علم اللغة النظري بعلم اللغة التطبيقي ، سواء في فهم الفلسفة التي يقوم عليها المعجم، أو في تصميم المداخل ، وترتيب المادة تبعا لطبيعة اللغة واستنادا إلى نظامها الخاص .

أسئلة على الوحدة الثالثة

المجموعة الأولى:

س١- ما الفرق بين العلوم اللغوية الأساسية والعلوم اللغوية المساعدة ؟

ج١ - العلوم اللغوية الأساسية هي فروع لعلم اللغة النظري ، وتنصب الدراسة فيها على أنظمة اللغة الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية والدلالية، أما العلوم الأخرى التي تتناول اللغة بالدراسة فهي علوم بينية ، تقع بين علم اللغة النظري بفروعه الأساسية ، وبين مجالات معرفية أخرى ، فعلم اللغة الاجتماعي يقع بين علم اللغة وعلم الاجتماع ، وعلم اللغة النفسي يقع بين علم اللغة وعلم النفس ، وعلم اللغة الجغرافي يقع بين علم اللغة وعلم الجغرافيا، وعلم الأسلوب يقع بين علم اللغة والنقد الأدبي ، وقد تكون بعض هذه العلوم بين علم اللغة النظري وبين مجالات يتم فيها تطبيق النظرية في مجالات عملية ؛ كتعليم اللغة ، ومعالجة أمراض الكلام ، وصناعة المعجم ، والأخير مثلا مجال بيني يقع بين علم المعجم بوصفه فرعا أساسيا من فروع علم اللغة النظري ، وصناعة المعجم التي هي فن تطبيقي يستلهم الأطر المعرفية التي أسسها علم المعجم النظري.

س٢- هل علم اللغة الاجتماعي هو نفسه علم الاجتماع اللغوي ؟

ج ٢ - على الرغم من كون المصطلحين يطلقان على نوع من الدراسة البينية ، بين علم اللغة من جانب وعلم الاجتماع من جانب آخر ، إلا أن هناك فرقا بينهما ، فعلم اللغة الاجتماعي تنصب فيه الدراسة على اللغة ، ولكن تناولها يأتي من منظور اجتماعي، والباحث هنا لغوي يستعين بعلم الاجتماع، أما علم الاجتماع اللغوي فهو دراسة اجتماعية تتخذ من اللغة وثيقة لتفسير الظواهر الاجتماعية ، والباحث هنا اجتماعي يستعين بعلم

اللغة، وكلا الباحثين يحتاج للآخر، وعمل أحدهما يكمل عمل الآخر لا محالة.

س٣ - هل هناك علاقة بين علم اللغة النفسي وعلم أمراض الكلام؟

ج٣ - لا شك أن هناك علاقة حميمة بينهما ، لدرجة أن بعضهم عد علم أمراض الكلام جزءا من علم اللغة النفسي، غير أن التحقيق العلمي سيكشف عن وجود فروق جوهرية بينهما ، فأمراض الكلام واضطرابات النطق مجال خاص قد يعتمد في بعض الأحوال على علم النفس ، ولكن بحكم طبيعة موضوعه ، فقد يكون المرض أو الاضطراب راجعا لعامل نفسي ، وقد يكون راجعا لعامل عضوي ، وقد يكون راجعا لعامل تربوي اجتماعي ، وقد يكون راجعا لعامل مركب نفسي عضوي ، أو اجتماعي نفسي ، واستنادا إلى ذلك فهذا الفرع هو مجال مستقل ، وإن كان ذا علاقة بعلم النفس ، وبعدد آخر من العلوم ، منها علم اللغة.

س٤- ما الذي قدمه علم اللغة النظري للقائمين على تعليم اللغة القومية؟

س٥- ما الفرق بين علم المعجم وصناعة المعجم ؟

س٦ - ما الدور الذي يمكن أن يقوم به المعلم في معالجة اضطرابات النطق؟

س٧ - ما الجزء الذي يسهم به علم اللغة في الدراسة الأسلوبية؟

س٨ - ما الأهمية التي يمكن أن يقدمها لنا علم اللغة الجغرافي ؟

المجموعة الثانية: ضع علامة (√) أمام الخيار الصحيح فقط:

س١- من فروع علم اللغة التطبيقي:

أ – علم الصرف. ب- علم الأسلوب .

ج – صناعة المعجم. √ ج – علم اللغة الاجتماعي.

س٢- من الجوانب التي يسهم بها النقد في الدراسة الأسلوبية لنص ما؟

أ – دراسة أصواته. ب- تحليل صيغه الصرفية.

ج – تحليل أنماط الجمل فيه. د – تفسير الحبكة الفنية فيه .

س٣ – دراسة ظاهرة الاكتساب اللغوي تدخل في اختصاص علم :

أ – اللغة العام. ب – الاجتماع اللغوي.

ج – النفس اللغوي. د – اللغة المقارن.

س٤ – مما تتسم به طريقة القواعد والترجمة في تعليم اللغات الأجنبية:

أ – اعتمادها على اللغة المكتوبة. ب- تقديم الكلام بطريقة عفوية.

ج – التركيز على عينة لغوية منتقاة. د – التركيز على مهارتي القراءة والنطق.

المجموعة الثالثة: ضع علامة (√) أمام الإجابة الصحيحة وعلامة (×) أمام الخطأ:

١- علم الأسلوب دراسة بينية تقع بين علم اللغة وعلم النفس. ×

٢- يري أنصار الطريقة المباشرة أن اللغات الأجنبية تكتسب بالتلقي المباشر .

٣ - تتأخر لغة التوأم عن لغة الطفل العادي بحوالي تسعة أشهر. ×

٤ - تعد دراسة شيوع نوع معين من الجمل في الأسلوب إجراء لغويا فيه.

٥-يبدأ المرحلة اللغوية في النمو اللغوي للطفل بنطق الأفعال ثم الأسماء.... ×



الوحدة الرابعة

تاريخ الدرس اللغوى

الأهداف:

تهدف هذه الوحدة إلى رصد تطور الفكر اللغوى، وجعل الدارس على بينة بالخطوات التي قطعها هذا الفكر حتى استقر علما يتربع الآن على رأس العلوم الإنسانية من حيث الاتصاف بالدقة، والمنهجية العلمية التى تتصف بها العلوم التجريبية، كالكيمياء والفيزياء وغيرها.

الوحدة الرابعة

تاريخ الدرس اللغوى

مدخل:

إن المتأمل لكل قضايا علم اللغة الحديث ، سيجد أن أمم العالم القديم تقريبا قد عرضت لها ، وضرب بعضها بسهم وافر فى معالجة قضايا هذا العلم ومسائله ، وتكاد نتائج الدرس اللغوى فى بعض الجوانب - تلتقى عند القدماء والمحدثين ، وإذا وضعنا فى اعتبارنا ما أتيح لهم ولنا من أدوات بحث ، ووسائل معرفة لقلنا باطمئنان : إنهم توفروا على موضوع اللغة ربما أكثر مما تناولوا مسائل المأكل والمشرب ، وقد كان لارتباط اللغة بالدين عند عدد من الأمم كالهنود والعرب مثلاً أكبر الأثر فى هذا الاهتمام الزائد بقضايا اللغة. وليس من قبيل المداخل التمهيدية أن نتكلم هنا عن الدراسات اللغوية عند الهنود والإغريق والعرب مثلاً، إذا عرفنا أن ما نعرفه عن اللغة، وما نتعاطاه من قضاياها ، وما وصلنا إليه من وعى بها فنحن مدينون به لجهود علماء هذه الأمم فى الماضى ، وهو أمر يقتضى أن نكون على وعى علمى معقول بما خلفه هؤلاء وأولئك فى مجال الدرس اللغوي. لنقف على ما استفدناه من جهودهم ، وما أخفقوا فى معالجته لنعرف جوانب القوة وعناصر الضعف ، على مستوى المنهج ، وعلى مستوى النتائج التى وصلوا إليها.

الدراسات اللغوية فى مرحلة النشأة:

من المعروف أن أمما كثيرة قد خلفت تراثاً حضارياً تليداً، من بينهم المصريون القدماء ، والبابليون والآشوريون ، والصينيون ، والفينيقيون ، ولا شك أن المصريين القدماء كانوا حسب التاريخ المعروف لنا أقدم الأمم التى اخترعت الكتابة ، وأن الأبجديات المعروفة للغات فى أكثر أنحاء العالم تنحدر عن الهيروغليفية القديمة ، وقد انتقلت هذه الكتابة إلى الفينيقيين حيث طوروها ثم

انتقلت منهم إلى الإغريق وكل العالم القديم. ولا شك أن اختراع الكتابة فى العالم القديم بالنسبة للحضارة الإنسانية إنجاز يزيد فضلاً عن أكثر منجزات الإنسان المعاصر العلمية قيمة ، وهو ما دعا اللغوى الفرنسى الشهير أنطوان مييه إلى القول : " إن الذين أوجدوا الكتابة وأتقنوها كانوا من فحول اللغويين ، وهم الذين أبدعوا علم اللغة". ولا عجب أن تفرز الحضارة المصرية هذا الاختراع وهى التى علمت الدنيا فن العمارة ، وبهرت البشر بتفوقها فى علوم الطب والفلك والرياضيات ، وفنون السياسة والإدارة والحرب ، وقد تعاصر ذلك تقريبا مع اختراع إخوانهم البابليين والآشوريين للكتابة المسمارية ، وهى خطوة أخرى لتسجيل المنطوق ونقل المعرفة من السلف إلى الخلف ، أما الصينيون فقد عرفوا الخط الصينى القديم ، كما اهتموا بالتأليف فى اللغة ، ولهم معاجم مبكرة ترجع إلى القرون السابقة على الميلاد ، منها معجم فى القرن الأول ق.م. يضم ٩ آلاف إشارة . غير أننا إجمالاً لا نكاد نسجل فكراً لغوياً معروفا حتى الآن عند هذه الأمم جميعا.

البحث اللغوى عند الهنود:

ليس من شك فى أن الدرس اللغوى عند الهنود يمثل نموذجاً لتراث لغوى حقيقى ومؤثر يستحق الرصد ويستأهل التنويه. ويمكن رصد النشاط اللغوى الهندى على النحو التالى:

١ - فى معالجة الهنود لقضايا اللغة العامة تمتزج حقائق العلم بالأساطير والخرافات، فتارة تجد فكراً علمياً دقيقاً ، وتارة أخرى تجده ممزوجا ببعض الخرافات ، فقد رأوا أن اللغة قد خلقتها الآلهة لاستعمال الناس ، وفهموا حقيقة المقطع ، غير أنهم لاحظوا أن الوحدات الثلاث التى تكون المقطع تقابل آلهتهم الثلاثة الشهيرة طبقا لنظريتهم فى التثليث .

يقول باتنجالى فى الـ "ماهابهاشيا Mahabhashya" إننا ندرس النحو فربما نكون مثل الإله العظيم ، ثم أخذ يعقد مقارنات بين أجزاء الرب

وأجزاء الكلام فقال : للنحو مثل الرب أربعة قرون وثلاثة أقدام ورأسان وسبع أيد ... أما القرون الأربعة فهى أقسام الكلام الأربعة وهى : الأسماء والأفعال وحروف الإضافة والأدوات ، وأما الأقدام الثلاثة فهى أزمنة الفعل الثلاثة الماضى والحاضر والمستقبل ، وأما الرأسان فهما نوعان من الكلمات ، نوع طبعى ونوع غير طبعى وواضح مدى اختلاط الحقائق العلمية بالخرافات والأساطير.

واستهدفت الدراسات الصوتية عندهم خدمة نصوص الفيدا Vedas، وقد كان لهذا الدافع الدينى أبلغ الأثر فى هذا الإنتاج العلمى المتميز فى مجال الدراسات الصوتية ، مما دفع لغويا غربيا إلى القول : "نمت وترعرعت الدراسات الصوتية فى أحضان لغتين مقدستين : العربية والسنسكريتية "، وقد قسموا أصوات اللغة إلى حركات Vowels وأنصاف حركات .Semi vowel ، وصوامت Consonants ، كما وصفوا مخارج هذه الأصوات ، وميزوا بين الحلقى والحنكى واللسانى والأسنانى والشفوى، كما لاحظ (بانيني) أشهر نحاه الهنود - تشبع بعض الأصوات بصفة الأنفية. كما لاحظوا أثر القفل في إنتاج الأصوات الانفجارية ، والفتح فى إنتاج العلة. كما لاحظوا أثر التجويف الحنجرى فى إحداث عمليتى الهمس والجهر ، ويرى روبنز أن هذه الملاحظة تعد انتصاراً كبيرا للهنود ، إذ ذلك أقرب إلى ما سجله الدرس الحديث ، كما لاحظوا إمكانية استقلال العلل دون الصوامت ، وهو ما يفسر : لماذا حرصوا فى أبجديتهم على أن يقرنوا كل صوت صامت بصلة ، كما تميزوا بوضعهم مقاييس دقيقة لقياس كمية الصوت ، وأقل درجة لقياس الصوت تسمى Anu وهى درجة يصعب على الأذن استقبالها ، ويليها [٢ Anu] وهى تساوى نصف مورا أو ما يعادل كمية الصوت الصامت ، على حين يرى بعضهم أن الصامت يساوى مورا كاملة على حين يرى آخرون أنه ربع مورا فقط ، أما العلة فثلاث درجات [٣ Anu] وهى كطرفة العين ، أو فرقعة الأصبع وهو ما يعادل

كمية العلة القصيرة ، أما ٢ مورا فمثل نعيق الغراب ، وهو يساوى العلة الطويلة، أما درجة ٣ مورا فكتغريد الطاووس وهى درجة العلة الطويلة جداً.

كما نلاحظ أنهم تحدثوا عن قواعد الإبدال والتضعيف ، والمقطع والنبر بوصفها ظواهر صوتية مهمة. وبوجه عام فإن إنتاجهم الصوتى يستوعب موضوعات علم الأصوات النطقى والفسيولوچى والسمعي.

٢ - أما عن دراساتهم في مجال الاشتقاق فقد عدّوا هذا العلم مكملاً لعلم النحو وقد رأى (ياسكا) أشهر الاشتقاقيين الهنود:

- أن كل الكلمات يمكن أن ترد إلى أصول تسمى جذورا ، مما يساعد على التمييز بين الجذور واللواحق.
- كل الأسماء لها أصل فعلى ، وقد ميزوا بين ثلاثة أنواع من الجنس ، مذكر ومؤنث ومحايد.
- لا الجذور ولا اللواحق قابلتان للاستقلال ، ويتوصل إلى الجذور عن طريق التصريف. علماً بأن الجذور لا تقبل التقسيم.
- ضرورة مراعاة التغيرات الصوتية التى تلحق الكلمة كالحذف والزيادة والإبدال والمماثلة... إلخ ، كما يجب مراعاة المعنى عند إجراء الاشتقاق بوضع الكلمة فى سياقها.
- لاحظ أن بعض الجذور تتصرف بطريقة واحدة ، وبعضها يتصرف تصرفاً ناقصاً ، وبعضها(فى الفيدا) قد مات ، وآخر قد جد ، وتعطى الجذور دائما معنى الحدث ، ولا تحمل أى مدلول مادي.
- بعض الجذور جاءت من محاكاة أصوات الطبيعة وقد قال ماكس موللر أحد عمالقة الدراسات المقارنة عن ياسكا "ناقش ياسكا موضوعات الاشتقاق ، وأصل الكلمات - بطريقة لا أعتقد أن أحداً فى العصر

الحاضر (عصر موللر) مستعينا بكل حقائق علم اللغة المقارن - يستطيع أن يجاريه ، أو يقدر على أن يقدم بديلاً عنها بطريقة مقنعة أكثر مما فعل ياسكا" .

وتجدر الإشارة هنا إلي أن ياسكا عند الهنود يقابل أفلاطون عند الإغريق غير أن ياسكا فاق أفلاطون ، فقد أخفق الأخير فى تحديد قواعد الاشتقاق وعجز عن التمييز بين الجذور واللواحق وعدّ هذه القواعد تخمينية على حين نجح ياسكا فى ذلك.

٣ ـ أما احتفاء الهنود بالنحو فيتمثل فى وجود اثنتى عشرة مدرسة نحوية ، ومن العبارات المأثورة عنهم "إن الماء هو أقدس شىء على الأرض ، والكتب المقدسة أكثر قداسة من الماء ، ولكن النحو أكثر قداسة حتى من الكتب المقدسة".

- ومدرسة المشارقة التى أسسها إندرا Indra هى أقدم المدارس النحوية ، وقد نادى أنصارها بمبدأ تحليل الجملة إلى كلمات ، واعتبار الكلمة المفردة وحدة للمعني.

- أما مدرسة (ساكاتايانا) فهى التى نادت بنظرية الأصل الفعلى لكل الجذور ، وعنه أخذ ياسكا وبانيني.

- أما مدرسة ياسكا أبى علم الاشتقاق ، فقد قدمت التعريفات الدقيقة لأقسام الكلام الأربعة ، وهى التى أرست قواعد هذا العلم الذى هو دعامة علم النحو ، وتمثل هذه المدرسة المرحلة الوسطى بين البدايات ومرحلة النضج على يد بانينى Panini .

- أما مدرسة بانينى أشهر نحوى فى العالم القديم وصاحب كتاب(أشتا ضياى) أى ذو الثمانية أقسام فقد تمثل ما خلفه فيما يلى:

أ ـ أن عمله نموذج للوصف الذى أقيم على أساس رياضى ، وضم نحو

أربعة آلاف قاعدة نحوية وهو عمل وصفى تزامني.

ب - تحول النحو عند بانينى إلى علم مستقل لا يختلط بغيره من المعارف.

جـ - اعتمد بانينى على وصف اللغة الحية المنطوقة، وعد الكلمة وحدة قابلة للتقسيم ، وكان منهجه يعتمد على التحليل الدقيق إلى أصغر الوحدات.

د - كانت القواعد التي انتهى إليها مختصرة ، واستخدم مصطلحات فنية محددة ، وكانت معالجته منطقية ومقنعة.

هـ - رأى أن وضع مجموعة من الكلمات بعضها بجانب بعض لا يشكل جملة، فحين يقال (النار باردة) لا يعد جملة ، وحين يقال (النار ملتهبة) فتلك جملة ، لأنهم يشترطون في الجملة : التوقع - الاختصاص -التقارب (التجاور).

و - فرق نحاة الهند بين البيئات عند جمع اللغة ، ورأوا أن اللغة النقية توجد فى بعض المناطق دون بعض. (وهو ما يذكرنا بصنيع الرواة العرب في جمع اللغة).

٤ - أما فى مجال المعجم. فقد خلفوا تصنيفات مختلفة منها:

- قوائم غريب (الفيدا) تعرف بـ النيغانتو Nighantu أو المجموع المرتب.
- مجموعة من الشروح أشهرها تعرف بـ النيروكتا Nirukts منسوبة لياسكا ، ويمكن عدها معجماً من معاجم المعانى (أو الموضوعات).
- ثمة نوع آخر يسمى الكوزس Kosos أى معاجم الكلمات ،، وتمثل الفرق بين النيروكتا والكوزس فى :

أ - النيروكتا تعالج كل أنواع الكلمات ، والكوزس خاصة بالأسماء فقط.

ب ـ الكوزس معاجم منظومة ، أما النيروكتا فليست كذلك مما جعل الأولى صعبة وغير عملية.

- أما أشهر كتب الكوزس فالمعروف بـ أماراكوزس Amara Kosas منسوبة إلى (أماراسنها) وقد كتب فى القرن السادس الميلادى ، وهو أحسن مرشد للكلمات الفصيحة في السنسكريتية.

- هناك معجم للمشترك اللفظي لمؤلف يدعى سافانا في القرن السادس ، وهو مرتب بشكل عجيب ، حيث يأتى أولاً بالكلمات التى تحتاج لبيان معناها إلى بيت كامل ، ثم التى تحتاج إلى نصف بيت ثم التي تحتاج إلى ربع بيت ، وتوالت بعد ذلك معاجم فى المترادف والمشترك وجلها من المنظوم الذى يسهل حفظه.

ويلاحظ على منهج المعجميين الهنود ما يلى:

- بعضها مرتب بحسب الموضوع. (يشبه ذلك مخصص ابن سيده ، وفقه اللغة للثعالبي).

- بعضها مرتب بحسب حروف الهجاء ، إما حسب الساكن الأخير (القافية) وإما الأول وإما كليهما. (يشبه ذلك الصحاح للجوهري) والثانى (كأساس البلاغة).

- بعض المعاجم كان يرتب حسب حجم الكلمة وعدد مقاطعها.

٥ ـ أما عن الدرس الدلالى : فقد عرضوا لما يلى:

- موضوع نشأة اللغة ، واختلفوا بين كونها توقيفية أو اصطلاحية.

- موضوع العلاقة بين اللفظ والمعنى ، واختلفوا بين كونها طبيعية أو عرفية.

- تقسيم أنواع الدلالة إلى أربعة أقسام:

أ ـ قسم يدل على مدلول عام شامل مثل : رجل ـ بقرة ــ نبات.

ب ـ قسم يدل على كيفية مثل : قـوى ـ طويل ــ ذكي.

جـ ـقسم يدل على حدث مثل : طبـخ ـ زرع ــ حصد.

د ـ قسم يدل على ذات مثـل : محمد ـ أحمد ــ فاطمة.

- تناولوا موضوع العلاقة بين اللغة والفكر ، ورأوا أنه لا يمكن تصور أحدهما بدون الآخر.
- أشاروا إلى أهمية السياق في تحديد المعنى ، وحذروا من عزل الكلمة عن سياقها وهم بصدد تحديد معناها.
- عرضوا لأسباب تغير المعنى ، وصور هذا التغير المختلفة.
- كما عرضوا لمشكلات الثروة اللفظية الدلالية ، كالترادف والمشترك والتضاد ... إلخ.

البحث اللغوى عند الإغريق:

الإغريق ، أو اليونانيون القدماء ، شعب عريق ، أقام حضارة تليدة وخلف تراثاً علمياً وفكريا وأدبياً رفيعًا ، وليس من شك فى أن ما خلفه الإغريق قد أثر فى حركة العلم فى العالم من حولهم ، وبخاصة الذين حملوا راية المعرفة من بعدهم ، وبخاصة العرب والرومان ، حتى وصل مشعلها إلى أوروبا فى عصر النهضة ، وسوف ينصب حديثنا عن دور الإغريق فى مجال الدرس اللغوى الذى شب وترعرع فى أحضان الفلسفة ـ على نقاط رئيسة وموجزة ومعبرة أيضاً ، وذلك على النحو التالى:

١ ـ اتسم الدرس اللغوى عندهم بوجه عام بطابع فلسفى منطقى ، أكثر من اعتماده على الوصف (الذى ميز محاولة الهنود).

٢ ـ ركز الإغريق على القضايا اللغوية العامة : كنشأة اللغة ، العلاقة بين اللفظ والمعنى ، وأكثر ما أثاروه هو من القضايا التجريدية الميتافيزيقية ، ولم

ينصبّ اهتمامهم على بنية اللغة نفسها.

٣ - لم يضع الإغريق قواعد للغتهم إلا فى القرن الثانى قبل الميلاد ، أى فى العصر السكندرى ، وحين فعلوا ذلك لم يهتموا بغير اليونانية من اللغات ونظروا إلى لغتهم نظرتهم إلى المثال اللغوى ، وعدوا ما عدا اليونانية من اللغات نوعا من اللغو ، وكانوا يطلقون لفظ (برابرة) على الذين لا يتكلمون اليونانية ، وهى كلمة تعنى فى الأصل صراخ الطيور ، فكأن من يتكلم غير لغتهم إنما يصرخ أو يصيح كالعجماوات.

٤ - برز عند الإغريق عدة اتجاهات ومدارس هى فى طابعها العام مدارس فكرية فلسفية من بينها مدرسة الشذوذيين بزعامة كراتيس ، ومدرسة القياسيين بزعامة ارستراخوس ، والأولى ترى أن اللغة ظاهرة فطرية ، لا تخضع للقواعد والقوانين، وإلى ذلك مال أفلاطون ، والثانية ترى أن اللغة ظاهرة طبيعية ، وهى منضبطة ولها قوانينها ، وإلى ذلك مال أرسطو.

- اعتنى النحاة الإغريق بوضع قواعد معيارية Normative G. صارمة التزمت بالضوابط التالية:

أ - أنها تحدد ما ينبغى أن يقال لا ما يقال بالفعل.

ب - هذه القواعد خاصة بمستوى واحد فقط هو اللغة الفصحي.

جـ - تتجاهل هذه القواعد كل مستويات اللغة المنطوقة ، وتركز على النموذج المكتوب ، وهو فى رأيهم نموذج رفيع يجب محاكاته ، والالتزام به ، ويتمثل هذا النموذج فى أسمى صوره فى اللغة الأدبية الرفيعة كلغة الإلياذة والأوديسا.

د - هذه القواعد ثابتة لا تتغير ، لأنها فى نظرهم تمثل اللغة وهى عندهم ظاهرة ثابتة لا تتغير كذلك.

هـ - كانوا يظنون أن اللغة منطقية ، ومن ثم فإن القواعد التى وضعوها منطقية من جانب ، وعالمية يمكن تطبيقها على أية لغة من جانب آخر.

٦ - عنى النحاة السكندريون ببلورة الأفكار اللغوية عند الإغريق ، ووضع المؤلفات فى قواعد اللغة اليونانية ، وقد وضع ثراكس أول كتاب فى قواعد اللغة اليونانية ١٧٠ - ٩٠ ق.م. وعالج فى محاولته المسائل التالية:

أ - عرض لأصوات اليونانية ، وأبان بعض الظواهر الصوتية كالتفريق بين المهموس والمجهور ، والصامت والحركات.

ب - تناول أصول الكلمات، وحدد أقسامها ، مفرقاً هنا بين ثمانية أقسام هى:

الاسم - الفعل - اسم الفاعل - أداة التعريف - الضمير - حروف الجر - الظرف ، أدوات العطف.

جـ - عرض لمفهوم الجنس ، وفرق بين ما يعرف بالمذكر والمؤنث والمحايد.

د - تناول بعض المفاهيم الخاصة بعناصر الجملة : كالمسند والمسند إليه ، الفعل والفاعل والمفعول.

ويلاحظ أن كل هذه الأفكار قد أشار إليها من قبل كل من أفلاطون وأرسطو.

- أما عن الرومان وهم أحفاد الإغريق حضارة ، فلم يرصد العلماء لهم جهداً مبتكراً سواء فى نظرتهم إلى طبيعة اللغة ، أو رأيهم فى قضاياها العامة أو تحليلهم لبنيتها ، ولم يكونوا أكثر من حلقة وصل نقلت الرؤية والتناول الإغريقى لمن جاء بعدهم ، وقد ظلت أوروبا حتى مطالع عصر النهضة تقدس وجهة النظر الإغريقية فى الفكر بوجه عام ، واللغة هنا بوجه خاص، وتلتزم بهذه القواعد الصارمة التى وضعوها مما أدى إلى اتساع الهوة بين القواعد الثابتة المسجلة ، واللغة الحية المتطورة ، واستمر هذا الحال حتى بدايات القرن الخامس عشر.

الدرس اللغوي عند العرب :

مما يؤسف له أن كثيرا ممن يؤرخون لعلم اللغة- شأنهم فى جل ما يكتبون - لا يذكرون فضل العرب ، وما أسدوه من جهود فى هذه السبيل ، على الرغم من أن باع العرب فى الدرس اللغوي أو فى بعض جوانبه على الأقل ، أطول من نظيره عند كثير من الأمم قديما وربما فى الحديث أيضا ، ومع كل ذلك الجحود الظاهر والإنكار أو التجاهل الذميم لدور العرب فى هذا الشأن ، فإننا لا نعدم أن نجد من حين إلى آخر بعض المنصفين الذين يعترفون بالسبق والأستاذية ويقرون بالفضل والجميل الذى قام به العرب فى مجالات الفكر والحضارة عامة ، وفى الدرس اللغوى على وجه الخصوص.

ولسنا بمستطيعين أن نستعرض كل ما قدم علماؤنا القدامى فى مجال الدرس اللغوى ، ولكن بحسبنا الإيماءة الدالة ، واللفتة الشافة واللمحة المعبرة.

كان القرآن الكريم الدستور الشامل ، والميثاق المقدس الذى احتفى به العرب، وانكبوا يدرسون مبادئه ، ويتفهمون أحكامه انطلاقا من إحساسهم الدينى العميق بأن هذا العمل جهاد مقدس وواجب نيط بهم ، فالتمسوا من أجل تحقيق هذه الغاية كل وسيلة تعينهم على فهمه ، أو تساعدهم على تفسيره وبيانه حتى يبلغوه للناس قاطبة فى الشرق والغرب.

من أجل ذلك نشطت الدراسات المختلفة لخدمة هذا السفر الخالد ، ومن بين هذه الدراسات ، دراسة لغة القرآن ، فعكفوا على اللغة العربية ، يجمعون مادتها، ويدرسون أصواتها ومفرداتها ويصفون تراكيبها ، ويؤلفون الكتب لضبطها وروايتها ، ويضعون القواعد التى تصف هذه اللغة وصفا محكما دقيقا.

وكانوا يشعرون وهم يفعلون ذلك أنهم إنما يفعلونه ابتغاء مرضاة الله ، إنه فى نظرهم ضرب من العبادة يتقربون به إلى خالقهم ، من هنا كان الصدق فى العمل والأمانة والدقة فى أدائه ، وتمثل بعض ما صنعوا فيما يلي:

١ - قام علماء اللغة بوصف دقيق لأصوات اللغة العربية وجاء وصفهم لجهاز

النطق ، ولطبيعة الأصوات ، من حيث المخرج ، وطريقة مرور الهواء أثناء النطق بالصوت ، ومن حيث الجهر والهمس سليما ، ولا يختلف كثيرا عن وصف المحدثين رغم الوسائل والأجهزة العلمية المستخدمة الآن. ويعد وصف سيبويه وابن جنى وغيرهما لأصوات العربية عملا جديرا بالثناء والإكبار مما جعلهم ينتزعون الإعجاب من علماء اللغة المحدثين فى الغرب. يقول برجشتراسر "لم يسبق الأوروبيين فى هذا العلم إلا قومان : العرب والهنود. ويقول فيرث : لقد نشأت الدراسات الصوتية ونمت فى أحضان لغتين مقدستين العربية والسنسكريتية .

٢ - تناول العلماء العرب لغتهم بالوصف الدقيق سواء على مستوى الكلمة وعلى مستوى التركيب ، ووضعوا قواعد دقيقة لهذه اللغة ، ويعد كتاب سيبويه فى النحو العربى محاولة لا تقل عن محاولة بانينى بالنسبة للغة الهندية بحيث يمكن القول إن سيبويه هو بانينى العربية ، بل يمكن القول إن بانينى هو سيبويه الهندية، فالمحاولة التى قام بها سيبويه هى عمل وصفى دقيق فى طابعه العام ، وظهرت عدة مدارس نحوية تناولت قواعد اللغة بالدرس والتحليل ، وتعددت مطولات الصرف والنحو المنثور منها والمنظوم ، ولم تترك زيادة لمستزيد.

وقد اتسم منهجهم في جمع مادة اللغة بخواص تشهد لهم بالسبق والأصالة ، ومن أبرز ملامح هذا المنهج:

٢-١ أنهم وضعوا إطارًا مكانيًا لجمع مادة اللغة ، بأن ابتعدوا عن القبائل التى تقطن أطراف الجزيرة ، واقتصروا على عرب وسط الجزيرة، مثل تميم وأسد وربيعة وقيس ، وبعض طيئ وبعض الهذليين ؛ حرصًا على انتقاء النموذج اللغوى الفصيح.

٢-٢ حددوا إطارًا زمانيًا لهذا الجمع فيما عرف عندهم بعصر الاحتجاج اللغوى وهو شرط أساس من شروط المنهج الوصفى الحديث.

٢-٣ أنهم كانوا ينزلون إلى مضارب الأعراب للاستماع مباشرة ، والتلقى بالمشافهة ؛ حرصًا على أن تكون المادة اللغوية المدروسة صورة مطابقة للواقع المنطوق بالفعل ، وهذا من أفضل عناصر هذا المنهج، وهو شرط آخر من شروط الدراسة اللغوية عند علماء اللغة المحدثين.

٢-٤ أنهم كانوا ينتقون الفصحاء الذين يروون عنهم المادة ، من أمثال : الخثعمى ، وأبى زياد الكلابى ، وابن الأعرابى ، وأبى عمرو بن كررة ، والأصمعى وغيرهم ، تمامًا كما يفعل المحدثون فى التدقيق عند اختيار الراوية اللغوى ومساعد البحث.

وهذا لا ينسينا أن المحاولات المبكرة للخليل وتلميذه سيبويه كانت بوجه عام محاولات وصفية أصيلة ومبتكرة ، لا تقل عن محاولات الآخرين من هنود وإغريق.

٣ - تناول علماء العربية قضايا اللغة العامة كقضية نشأة اللغة وانقسموا فريقين : فريق يقول بتوقيفية اللغة ومنهم ابن فارس ، وفريق يقول باصطلاحيتها وعلى رأسهم ابن جني. ويعد فهم ابن جنى لكثير من القضايا العامة فى اللغة فهما يسبق عصره، ويكاد تعريفه للغة يطابق تعريف المحدثين، كما أدرك العلماء العرب الطبيعة الاجتماعية للغة ، ويعد فهم ابن جني وابن خلدون لطبيعة اللغة ولوظيفتها يطابق فهم المحدثين.

٤ - تناول علماء العربية كثيرا من القضايا الخاصة بالدلالة غير أنهم تناولوا هذه القضايا مبعثرة ، تارة يعالجها علماء الأصول وتارة يتناول بعضها البلاغيون ، وتارة يتناولها اللغويون ، وتارة يتناولها الفلاسفة وعلماء الكلام. غير أنهم لم يروا الخيط الدقيق الذى يربط هذه القضايا ويجمع شتاتها ، ولم يكن معاصروهم من الأمم الأخرى أسعد حظا فى إدراك ذلك ، ففى العصر الحديث فقط أدرك العلماء ذلك وبدأوا يخصصون لهذه القضايا

علما مستقلا هو علم الدلالة Semantics وإن كان علماء العربية قد تناولوا قضايا هذا العلم كمفهوم الدلالة، وقضايا الترادف والمشترك اللفظى والتضاد والغموض والانقراض ... إلخ. تناولوها بعمق ولهم فيها آراء سديدة. كما أن قضية المقام والسياق اللغوى نالت قدرا طيبا من العناية ، وبخاصة عند إمام البلاغيين عبد القاهر الجرجاني.

٥ - يأتى أخيرا دور علماء العربية فى مجال المعجم شاهدا على تفوقهم ، فقلما نجد شعبا من الشعوب يحرص على حفظ مفردات لغته ، ويؤلف عشرات المعاجم بأكثر من منهج كما فعل علماء اللغة العرب. وحسب المرء أن يمسك بالمخصص لابن سيده أو بلسان العرب لابن منظور الإفريقى المصرى ليعرف أن هؤلاء النفر من علماء العرب كانوا يقودون موكب النور فى دنيا كان غيرهم فيها يغط فى سبات عميق وقد طمس على أبصارهم ظلام الجهل الدامس. بينما كان العرب يبدعون فى خدمة لغتهم عندما واتتهم الفرصة كما أبدع سواهم قبل العصر الحديث أو يزيد.

بداية العصر الحديث حتى نهاية القرن التاسع عشر:

يعد عصر النهضة فى أوروبا والذى يبدأ مع مطالع القرن الخامس عشر الميلادى بداية مسيرة طويلة لبناء صرح الحضارة التى ننعم بها الآن وهى مسيرة فى طريق وعر حاولت الحضارات القديمة شقه ، وأتم الأوروبيون والأمريكيون تعبيده.

وبدأ ذلك بشكل جاد عندما بدأ عصر الكشوف الجغرافية وبدأت أوروبا تكتشف العالم الجديد ، بل تحاول كذلك اكتشاف العالم القديم نفسه ، وبدأ الأوروبيون أطماعهم الاستعمارية ، وكانت أسلحتهم الأمضى لذلك هى مزيد من المعرفة بالشعوب التى تريد فرض إرادتها عليها ، ورب ضارة نافعة ، فقد انكب العلماء الغربيون يدرسون لغات تلك الأمم وعاداتها وأسلوب معيشتها ، وقد كانت المفاجأة كبيرة. وتمثلت فى شيئين على مستوى الدرس اللغوي:

الأول : اكتشف الأوروبيون أن لدى الهنود دراسة وصفية دقيقة قام بها بانينى ، وهى تلتزم منهجا أسلم ، وتصل إلى نتائج أدق وتفوق ما ورثوه عن الإغريق من مناهج معيارية جامدة. وكان ذلك منطلقا منهجيا لبحوث تعتمد على الواقع اللغوي.

أما الأمر الثاني : فهو ذلك الكشف المهم الذى أكد العلاقة الوثيقة بين اللغة السنسكريتية واللغتين اليونانية واللاتينية على يد السير وليام جونز سنة ١٧٨٦م ، وإذا كان هذا الكشف أدى إلى مولد الدراسات اللغوية المقارنة وما تمخض عنها من نتائج فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فإن أثر اطلاع لغويي أوروبا على التراث النحوى والصوتى الرائع الذى خلفه العلماء الهنود كان عميقا ويميل كثير من مؤرخى الدراسات اللغوية الحديثة إلى أن أعمال النحاة السنسكريتيين هى التى أوقفت النحاة الغربيين على أقدامهم .

كان القرن التاسع عشر قد بدأ ، واجتاح أوروبا روح جديد متأثر بنظريات عدد من العلماء فى مجال البيولوچيا وغيرها من العلوم الطبيعية ، وبدأت الثورة التجريبية القائمة على مناهج بحث جديدة قلبت ما ساد من معتقدات فى كل شيء رأسا على عقب ، وتأثرت العلوم الإنسانية بهذا الاتجاه ، وكان من أعمقها أثرا نظرية دارون فى التطور والارتقاء ، والتى ذهبت إلى أن العالم الطبيعى بكل ما يحتويه من كائنات حية يتغير ويتطور وفقا لقوانين صارمة ودقيقة ، وساد اعتقاد لدى اللغويين - هو صدى لذلك - يقوم على أن اللغة ظاهرة طبيعية ، وأن ما يصيب الكائنات الحية من تغيير تخضع له اللغة.

فاللغات واللهجات ليست سوى كائنات تتوالد وتتطور وتنقسم إلى أنواع وفصائل وأجناس كما هو الحال فى عالم الأحياء.

وفتح باب الدرس المقارن على يد عدد من العلماء الألمان من أمثال فرانز بوب Popp (١٧٩١ – ١٨٦٧) ويعقوب جريم J. Grimm (١٧٨٥ –

١٨٦٣) وأوجست بوت O. Pott وانطلق الألمان يدرسون القرابة بين اللغات ، ويصنفونها إلى أسر وعائلات ، وقد نضجت هذه الدراسات وتبلورت على يد جيل لاحق من أمثال راسك ، وشليشر ، وماكس موللر وغيرهم.

وعلى الرغم من عدم صحة بعض نتائج المدرسة الألمانية فى مجال الدرس اللغوى المقارن ، فإنها اصطنعت وسائل منهجية أدق من قبل ، وكان من نتائج هذه المناهج الجديدة الدقيقة أن فرق علماء اللغة فيما بعد تفريقا واضحًا بين أمرين كانا يختلطان أشد الاختلاط ، والأول ما يعرف بـ Philology والثانى الـ : Linguisticsفاستبان أن المقصود من "Philology" " فقه اللغة" وهو دراسة الوثائق المكتوبة ولغتها ، أما Linguistics علم اللغة فهو الذى يتخذ موضوعا له ، دراسة اللغة من حيث هى لغة(دراسة اللغة فى ذاتها ومن أجل ذاتها (كما قال دى سوسير فيما بعد، سواء كانت هذه اللغة مكتوبة أو غير مكتوبة.

ويمكن القول إجمالا : إن القرن التاسع عشر يعد بحق عصر الدرس اللغوى المقارن ، وإن الألمان كانوا فرسان حلبته وإن لم تخل الساحة من علماء آخرين أسهموا فى هذه الحركة النشطة من أمثال دويت ويتنى D. Whiteny الأمريكى وهنرى سويت H. Sweet الإنجليزى وغيرهم.

علم اللغة فى القرن العشرين:

علم اللغة ــ مولده ــ وتطوره :

لا شك أن فرديناندى سوسير هو العالم الذى أرسى دعائم علم اللغة بهذه الصفة، غير أن البدء منه مباشرة يمثل تجاهلاً لظروف مهدت له ، ومفاهيم سادت فى الفترة التى تبلور فيها فكره ، وهذا يقتضى أن نشير - على الأقل هنا - إلى عالمين عاصراه ، ويمثل ثلاثتهم أهم دعائم مكنت لعلم اللغة أن يظهر على النحو الذى أبانه سوسير.

أما العالمان فهما دوايت ويتنى ، والثانى بودوان دى كورتني . أما دوايت ويتنى فهو لغوى أمريكى ١٨٢٧ - ١٨٩٤ ، كان من علماء السنسكريتية

اللامعين فى عصره، غير أن أفكاره عن اللغة وفهمه لها ، ذلك الفهم الذى أفاد منه دى سوسير مباشرة - يجعل منه ركيزة من ركائز الدرس اللغوى فى القرن ١٩ تركت أثراً حقيقياً فى علم اللغة على النحو الذى ظهر به فى القرن العشرين، **ولعل أهم أفكار ويتنى ما يلي :**

- عدّ ويتنى اللغة واقعة اجتماعية ، وعلم اللغة ليس علماً طبيعياً بل إنه تاريخي.
- نادى بضرورة دراسة اللغة بوصفها نظاماً من اختراع الإنسان وأن الرغبة فى الاتصال هى الأصل الذى يكمن فيه كل تاريخ اللغة.
- عد ويتنى الكلمات بالنسبة لفكر الإنسان كالأدوات بالنسبة ليديه. وذكر أن اللغة ليست قدرة أو ملكة أو نشاطاً مباشراً للفكر ، إنها نتاج غير مباشر لهذا الفكر إنها أداة.
- اللغة رموز ، وهى نظام كبير من البنى المعقدة جدا والمتوازنة.
- رأى أن على علم اللغة أن يصبح علماً ، غير أنه لم يصبح كذلك بعد ، إن علم اللغة الحقيقى لا يزال فى مرحلة الطفولة.
- فصل ويتنى علم اللغة عن العلوم الطبيعية وعلم النفس وفقه اللغة وقال : من المؤكد أن دراسة وسائل الاتصال لدى الحيوانات الدنيا وقيمتها مهمة جداً ، غير أن هذه الوسائل تختلف عن اللغة لدرجة لا نستطيع معها أن نسميها لغة.
- استوعب ويتنى أشكال الاتصال وأنظمته (الحركات والإيماءات والحروف المرسومة والمكتوبة ، والأصوات المنطوقة) ولكنه حدَّ اللغة بقوله عندما نتكلم عن اللغة فإننا نقصد بذلك مجموعة الأصوات المنطوقة فقط.

ونلاحظ على فكر ويتنى ملاحظتين :

الأولي : ظل ويتنى مترددا بين أن يكون تاريخيا كما نشأ وتكون ، أو وصفياً

كما كان يؤثر.

الثانية : لم يدرك ويتنى بوضوح العلاقة بين الدراسة التاريخية من جانب والوصفية من جانب آخر ، واستمر فى تفضيل الدراسة التاريخية.

أما بودوان دى كورتنى : فهو لغوى روسى ولد قرب فارصوفيا ببولونيا (١٨٤٥ / ١٩٢٩).

- التقى كورتنى مع دى سوسير سنة ١٨٨١ عندما انتخب بودوان عضواً فى الجمعية الباريسية لعلم اللغة ، واستمع كل منهما إلى بحث الآخر.
- التقى فكر كورتنى مع فكر سوسير ، واعترف الأخير بأصالة كورتنى وشهد له شهادة تدل على أنه تعرف عن كثب على فكره ، وقال : إن كورتنى وتلميذه كروسزيوسكى كانا أقرب الناس إلى الرؤية النظرية للغة ، غير أنهما لم يكونا معروفين بين مجموع العلماء الغربيين.
- عدّ كل من كورتنى وسوسير الفنولوچيا(نقطة انطلاق) للبحث اللغوى ، وأحد المبادىء الأساسية للمنهج.
- اكتشف دى كورتنى الطبيعة اللغوية للفونيم ، وأدرك كون أصوات اللغة إنما تمارس وظيفة تمييزية.
- أكد ضرورة التمييز بين الصوت الخام فى الكلام ، أو ما يلفظه المتكلم حقاً، وشيء آخر هو الفونيم أى ما يظن المتكلم أنه يلفظه والمستمع أنه يسمعه.
- أوصى بضرورة إنشاء علم الأصوات النفسي ، وإن كان قد جمع تحت التسمية نفسها (علم الصوت السيكولوچي) ، ظواهر تابعة لآليات التحليل الوصفى والتحليل التاريخى ، والتى تعالج بدورها شروطاً فونولوچية طوراً وشروطا مورفولوچية طورا آخر.

سوسير وإرساء دعائم علم اللغة:

- ولد فرديناندى سوسير فى جنيف ١٨٥٧ وعاش إلى ١٩١٣ ، وكان أحد علماء الدرس التاريخى المقارن ، ودرس فى جنيف وباريس ، وقد نشر تلاميذه بعد وفاته بثلاث سنوات - ١٩١٦ محاضراته التى عنوانها "محاضرات فى علم اللغة العام" تولى ذلك الاستاذ بالى والسيدة سيشهى اعتمادا على أماليهم وأمالى زملائهم التى تلقوها مباشرة عن أستاذهم ، ومن مؤلفات سوسير القليلة الأخرى "مذكرة حول النظام البدائى لأحرف العلة فى اللغات الهندوأوروبية" فضلا عن عدد من البحوث والمقالات التى نشرت تحت عنوان مجموعة منشورات سوسير العلمية.
- يتمثل فكر سوسير اللغوى فى هذا الفهم لطبيعة اللغة ، وتركيبها ، حيث تصور اللغة على شكل مجموعة من التقابلات أو الثنائيات ، بمعنى أن كل ثنائية تمثل فكرتين متقابلتين وذلك على النحو التالي :

(١) الثنائية الأولى : التقابل بين كون اللغة ظاهرة اجتماعية من جانب وسيميولوچية من جانب آخر.

فسوسير رأى أن اللغة ظاهرة اجتماعية ، وربما كانت من بين الظواهر الاجتماعية أهمها ، واللغة من جانب آخر سيميولوچية ، فالسيميولوچيا تشكل مجموع كل الأنظمة الإشارية الناتج عن القدرة العامة على الاتصال ، واللغة نظام إشارى فهى إحدى الأنظمة الإشارية ، "وأصالة سوسير تتمثل فى كونه قد ركز على ما هو مشترك بين الظواهر الاجتماعية من جانب كما هو الحال لدى دوركايم ، وكذلك ركز على ما هو خاص بأنظمة الإشارات" . مما دعا اللغوى الإنجليزى الشهير فيرث أن يقول " : إنه ربما كان أبرز شىء فى كل مؤلف سوسير القيم" محاضرات فى علم اللغة العام" هو قوله : "إنا إذا كنا قد استطعنا للمرة الأولى أن نحدد لعلم اللغة مكاناً بين العلوم ، فما ذلك إلا لأننا وصلناه بالسيميولوچيا" .

التقابل الثانى : التقابل بين اللغة من جانب والكلام من جانب آخر ، فاللغة هى مجموعة القواعد والقوانين المختزنة فى ذهن أفراد الجماعة اللغوية ، فهى الكنز الاجتماعى للوحدات اللغوية والقواعد التى تجتمع فى نظام وتخص مجموعة من المتكلمين ، والكلام هو الأحداث الماديّة للغة ، هذا التقابل بين الاجتماعى والفردى ، بين المجرد والمادى ، بين الموجود بالقوة والموجود بالفعل بين الثابت المفروض علينا والمتغير الاختيارى المقصود - يعد حدثاً لغوياً خطيراً وتحولاً هائلاً فى اتجاه فهم حقيقة اللغة ، وسوسير يسعى جاهدا لدراسة اللغة ويهتم بها فيما يهمل الكلام ، رغم أنه الوسيلة الأساسية لفهم اللغة.

التقابل الثالث : هو التمييز بين ما هو وصفى تزامنى Synchronic وما هو تاريخى تطورى Diachronic ، إن التمييز بين الدراسة الوصفية التزامنية التى تصف اللغة كما هى فى فترة زمنية محددة ، وبين ما هو تاريخى يتتبع اللغة عبر فترات متعاقبة - أى التمييز بين الدراسة الثابتة والدراسة التطورية - يعد تحولاً مهما فى المنهج الذى ينبغى أن يهتدى إليه الدارسون وهم يعالجون مسائل اللغة. وطالما كان المنهج هو مشكلة المشاكل فى حل المسائل المتداخلة ومعالجة القضايا معالجة علمية سليمة ، وتفسيرها تفسيريا صحيحاً.

التقابل الرابع : هو النظر إلى اللغة بوصفها نظاماً قائما على التقابلات ، وأبرز أهمية التركيز على فهم البنية الداخلية للغة ، عن طريق فهم العلاقات بين الوحدات الداخلية للغة وهو هنا يميز بين نوعين متقابلين من العلاقات ، الأولى هى العلاقات الرأسية Paradigmatic فى مقابل العلاقات الأفقية Syntagmatic فالعلاقات التى تربط : ضرب - كتب - لعب ، نجح .. إلخ ، أو التى تربط محمد - على - حسن – سعد ... إلخ ، أو التى تربط فى - إلى - من - على - هى علاقات رأسية برادجماتية ، بوصف كل مجموعة منها تمثل مجموعة كلمات تنتمى لصيغة معينة وكل كلمة تصلح أن تكون مقابلاً استبداليا فى الجملة لبقية أفراد مجموعتها.

أما العلاقات بين كتب محمد الدرس فى الفصل ، أى علاقة الفعل بـ الفاعل بـ المفعول بالجار والمجرور ، فهى علاقات أفقية تركيبية Syntactic relations فالذى يجعل اللغة ذات معنى هو اختيار كتب فى مقابل أخواتها ، واختيار محمد من بين مجموعته وهكذا ، وليس فى اللغة إلا هذه المقابلات أو الفروق التى تميز وحدات جملة عن أخرى ، ولكلٍّ معنى ، وتحليل اللغة لإدراك هذه الفروق لابد أن يعتمد على التمييز بين التقابل : رأسى / أفقي.

وقد أحدثت أفكار سوسير زخما هائلاً بعد نشرها سنة ١٩١٦ وانبرى تلاميذه وحواريوه فى أوروبا وعلى رأسهم مييه وجرامون وسيشهى وفندريس فى فرنسا لشرح فلسفة أستاذهم ، وتلقف هذه الأسس علماء كثيرون ، وتأسست حلقات لغوية ومدارس علمية فى أوروبا وأمريكا وتبنتّ كل منها جانباً أو أكثر من هذه المفاهيم غلب عليها أو سيطر على بحوثها.

مدارس علم اللغة :

١ – مدرسة (أو حلقة) براغ.

٢ – مدرسة (أو حلقة) كوبنهاجن.

٣ - المدرسة الإنجليزية.

٤ - المدرسة الأمريكية.

وتلك نبذة عن كل اتجاه من هذه الاتجاهات التى خرجت جميعاً من عباءة سوسير اللغوية ، وذاعت أفكارها وانتشرت خلال النصف الأول من القرن العشرين.

١ - مدرسة أو حلقة (براغ) :

تأسست حلقة براغ اللغوية سنة ١٩٢٦ ، واعتمدت على ثلاثة من كبار اللغويين. الأول هو الروسى نيكولاسير تروبتسكوى Troubetzkoy ، والثانى هو البولندى جاكبسون Jackabson والثالث هو الروسى كارسفسكى Karcevsky .

وقد قدموا مشروعهم العلمى لمؤتمر علم اللغة الذى عقد بهولندا سنة ١٩٢٨ بعنوان "النصوص الأساسية لحلقة براغ اللغوية" واتسم منهجهم بأنه منهج بنائى أو بنيوى Structural Method . وتمثل هذه النصوص أهم منجزات هذه الحلقة كما تبرز فى الإنتاج العلمى المبثوث فى تضاعيف (مجلة أعمال حلقة براغ اللغوية T.C.L.P.) . ومن أهمها:

تحديد هذا الفريق حقيقة الفونيم بوصفه "الوحدة الفونولوجية" التى لا تقبل -فى لغة ما - التحليل إلى وحدات فونولوجية أكثر صغرًا ، وقد عرفه تروبتسكوى بأنه "كل تعارض بين صوتين يمكن أن يميز ، فى لغة ما ، بين معنيين فكريين".

وضعوا أسس التحليل الفونولوچى عموماً ، وتلك الأسس التى تساعد على تحليل الظواهر المصاحبة للكلام كالنبر والتنغيم ، وأسس فونولوچية الكلمة التى تعتمد على دراسة وظائف النبر ، والتى فصلت بعناية عن وظيفة الفونيمات التمييزية ، وبالجملة فقد أرسوا دعائم الدراسة الفونولوچية التى أصبحت أهم دعائم الدراسة العلمية للغة ، ويعد هذا أول تعميق منهجى لتقابل سوسير الذى يرى أن اللغة مجموعة من المقابلات أو التعارضات بين صوت وصوت ، كلمة وكلمة ، فى جملة أو تركيب. وأخذا بمبدأ أهمية اعتماد التحليل اللغوى على مراعاة هذه التقابلات ومراعاة أثرها في التمييز بين المعاني.

٢ - مدرسة كوبنهاجن (حلقة كوبنهاجن) :

فريق آخر فى الدنمارك حركته أفكار سوسير فأخذ ينظر إلى اللغة من خلال بعض المفاهيم التى طرحها ، ومن أبرز أعلام هذه الحلقة أوتو جبرسن Jesbersen، وبدرسن Pedersen ، وهلمسليف Heielamslev ، ويبدو اهتمام علماء هذه المدرسة بفكرة الفونيم على نحو ما نجد ذلك عند أنصار حلقة براغ ، نجد قدراً من العناية والاقتناع بمبادئ سوسير عند جسبرسن ماعدا ثنائية اللغة والكلام التى نقدها ورأى أن هذا التمييز القاطع بينهما غير دقيق إذ إن اللغة

تمثل حدثاً لغويا ، وليس الكلام من نتاج الأفراد ، بينما اللغة من نتاج المجتمع لأن الجماعة ليست سوى مجموعة الأفراد ، فعلاقة اللغة بالكلام فى رأيه شبيهه بعلاقة معنى الكلمة التى فى صيغة الجمع بمعنى الكلمة التى فى صيغة المفرد فدلالة الكلمة "خراف" تتحدد علاقتها بدلالة كلمة "خروف" فى أن معنى الأولى هو أنها تدل على "خروف رقم ١" ، وخروف رقم ٢ ، وخروف رقم ٣ على التوالي ... واللغة كذلك هى كلام الفرد رقم ١ وكلام الفرد رقم ٢ ، وكلام الفرد رقم ٣ ، وإذن فليست اللغة فى حقيقة الأمر شيئا آخر غير الكلام وثنائية سوسير /اللغة / الكلام هى عموماً من أضعف تقسيماته . وقد عمق جسبرسن على أية حال الدعوة إلى تبنى المفاهيم السوسيرية سواء المتصلة بالطبيعة الاجتماعية للغة أو إرساء دعائم المنهج الوصفى ، أما هلمسليف فقد قدم نظرية لتحليل العلاقات بين وحدات التركيب تسمى الجلوسماتيك Glosematics ، وهى نظرية رياضية جعلت من اللغة نظاماً شكليا يمكن تحويله إلى رموز رياضية ، وتحليل العلاقات التى تربط أجزاء هذا النظام بعضها ببعض. وقد ظلت هذه النظرية الرياضية المنطقية عزيزة على التطبيق ، حيث لم تخرج إلى النور ولم تطبق على أية لغة ولكنها أسهمت مع غيرها من النظريات فى نشأة أنظمة الحاسبات الآلية ، وتشفير اللغة ، والترجمة الآلية .

ويمكن أن نلقى هنا بعض الضوء على نقطتين عنده: الأولى : قضية المصطلحات والثانية قضية المبادئ.

أولاً- المصطلحات : كان هلمسليف ميالاً إلى المنطق الرياضى ، وقد انحاز منذ البداية إلى فكرهم القائم على التحديد الدقيق للمسائل منذ البداية، وظهر ذلك واضحًا فى تبنيه عددًا من المصطلحات الخاصة به ، تقابل مصطلحات غيره من اللغويين مثل : استخدم مصطلحى التعبير والمحتوى بدلاً من مصطلحى سوسير الدال والمدلول ومصطلحى النظام والاستعمال بدلاً من اللغة والكلام ، ومصطلح الغائب والحاضر بدلاً من الرأسىّ والأفقى ، ومصطلح الذاتية لما قصد إليه

سوسير فى تعريف موضوع اللغة وغايتها ، فى ذاتها ولذاتها. كذلك استبدل بمصطلح حلقة براغ فونيم phoneme مصطلحًا جديدًا هو seneme أى الرمز أو الوحدة المجردة الفارغة من المعني. وبمصطلحهم مورفيم morpheme مصطلحًا جديدًا هو plereme وهو الوحدة الصغرى للمعنى.

وسمى العلاقة الرأسية عند سوسير ترابطات ، وهى علاقة وحدة لغوية حاضرة بكل الوحدات الغائبة المرتبطة بها ، كعلاقة كلمة تفاحة بكل الكلمات المرتبطة بها كالموز والمانجو ، والعنب ... إلخ. وسمى العلاقة الأفقية عند سوسير ، سماها وظائف ، وهى العلاقة القائمة بين وحدات الجملة. كعلاقة ضرب بـ محمد ، وعلاقة محمد بـ اللص. فى جملة ضرب محمد اللص .

كما أن مصطلحى هلمسليف الفئة المكثفة intensive والفئة المنتشرة extensive يقابلان مصطلحى جاكبسون موسوم market وغير موسوم unmarket، وما يفهمه هلمسليف من تعبير "المنهج الاستدلالى فى النحو de ductive method يقابل ما يُطلق عليه التوزيعيون البحث عن المكونات المباشرة search for immediate constituats ، ومصطلح التوزيعيين الاستبدال يقابل مصطلح هلمسليف الإحلال commutation ، وهذا كله يدعم الرأى القائل بأن الإخفاق فى فهم الجلوسماتيك يرجع فى حقيقته إلى افتقاد الاحتكاك المتبادل مع الاتجاهات البنيوية الأخرى ، أكثر من كونه نتيجة للفروق فى التصورات النظرية الأساسية.

ثانيًا - المبادئ : أقام هلمسليف نظريته على أساس طريقة علماء المنطق، أى على فرضية كاملة تعتمد التفسير الواضح لكل المبادئ الأولية ، ولكل التعريفات الأساسية ، ومن أهم مبادئ نظريته :

١ - المبدأ التجريبى : ويقصد به ضرورة وجود معايير عدم التناقض والشمولية والبساطة.

٢ - مبدأ الاستقلال ويرادف مبدأ الموضوعية : ويقصد به أن يقوم التعريف على

علاقات عناصر الموضوع ببعضها البعض.

٣ - مبدأ الاعتباطية : ويقصد بها أن تكون النظرية مستقلة في ذاتها عن كل تجربة.

٤ - مبدأ الانسجام والملاءمة : أي يمكن التحقق من النظرية بالتجربة ، وتكون ملائمة لموضوعها ، قابلة للتطبيق.

٥ - مبدأ الشمول : وهي المسلمة التي تقول : إن كل لغات العالم تتشابه بوجود القوانين العامة للبنية فيها.

٣ - المدرسة الإنجليزية :

تمثل المدرسة الإنجليزية اتجاها لغوياً تبني المنهج الشكلي الوصفي في الدرس اللغوي من جانب والاجتماعي من جانب آخر ، ويعد فيرث ت ١٩٦٠ رائد هذه المدرسة نموذجا يمثل فكرها الذي ركز على جانبين من الحدث اللغوي، الكلام بوصفه المادة الحية المنطوقة الممثلة للغة ، ورفض ثنائية سوسير الفصل بن جانبين للحدث اللغوي ، كما أعطى للسياق الأهمية الكافية لتحليل الكلام على اعتبار أن الحدث اللغوي يتمثل في مجموعة الأحداث المادية ، الأصوات والكلمات والتراكيب، ومجموعة العناصر المقامية المحيطة بهذه الأحداث ، وأكد على أهمية اعتماد كل تحليل لغوي على أساس مراعاة ما سماه السياق اللفظي أو اللغوي ، وسياق الموقف أو المقام Context of Situation، مما أتاح الفرصة أمام هذا الاتجاه الوصفي الاجتماعي للعناية بالمعنى اللغوي والاجتماعي معا أو المعنى الدلالي للحدث اللغوي وهو أمر أهملته مدارس لغوية أخرى ، وقد كان الأنثربولوجي البولندي مالينوفسكي رائدا في التنبيه إلى الفكرة المقام ، كما أسهمت البحوث التي كتبها أولمان في مجال الدرس الدلالي في تحديد نظرية السياق التي تبنتها هذه المدرسة، ويواصل الفيرثيون الجدد وعلى رأسهم هاليدي وليونز وميشيل بحوثهم اللغوية لتأكيد الطابع الاجتماعي للغة ، ودراسة الوسائل التي تعين على تحديد المعنى وبخاصة المتصل منها بالظروف الاجتماعية المحيطة بالحدث اللغوي.

٤ ـ المدرسة الأمريكية :

تمثل المدرسة الأمريكية التى سادت فى النصف الأول من القرن العشرين نموذجا للمدارس الوصفية عموماً وإن تميزت بكونها:

- وصفية تجريبية.
- سلوكية.
- توزيعية.

أما كونها وصفية تجريبية لأنها أخذت نفسها بالمنهج الوصفى الذى يدرس الواقع اللغوى ، كما هو يعتمد على التجربة ، والتجربة وحدها فى التحقق من صحة التحليل ونتائجه ، وقد اضطر معه أنصارها إلى عزل الجوانب التى لا يمكن إخضاعها لآليات المنهج التجريبى ، ويدخل فى ذلك كل النشاط العقلى ، وما يرتبط به من عمليات ربط الفكرة بالمبنى المادى المنطوق، وهو أمر اقتضى تبعاً لذلك إهمال المعنى فى الدراسات التى قاموا بها. (المعنى الذى أهمل عندهم هو المعنى المقامى أو الاجتماعى عند أنصار نظرية السياق) أما المعنى المقالى (الوظيفى والمعجمى) فلم يهملوه.

أما كونها سلوكية ، فلأنها مدرسة تأثرت بالاتجاه السلوكى الذى يربط بين المثيرات والاستجابات أو ردود الأفعال فى عملية التعلم ، وهو أمر جعلهم يفسرون اللغة بوصفها مجموعة من المثيرات وردود الأفعال ، وهو تفسير آلى ميكانيكى للحدث اللغوى يحصره فى تلك الذبذبات الصوتية المادية التى تنتقل عبر الأثير من فم المتكلم إلى أذن السامع ، فلو أردنا أن نحلل الكلام فإننا نقوم بتحليل الجمل المنطوقة بدءا من أصغر وحداتها وهو الصوت ثم الذى يليه أى الكلمة فالجملة ، ثم نتعرف العلاقات التى تربط الوحدات بعضها ببعض وهنا نأتى إلى الأساس الثالث وهو التوزيعية:

فما المقصود بالتوزيعية distributionalism ؟

إن اللغة نظام مركب من أنظمة صغيرة ، أولها النظام الصوتى ، ووحدته الفونيم، ولكل فونيم توزيع خاص بها فى نظام اللغة. فمثلا النون فى العربية (فونيم) وهي تقع فى مواضع معينة ، فتكون لها صفة ، ولها وظيفة معينة ، وهناك مواضع لا تقع فيها أبداً، وقس على ذلك بقية الفونيمات والكلمات لها نظام توزيعى ، كذلك فكلمة مثل "تفاح" مثلا يمكن أن تقع في مواضع مختلفة مثل : نضج التفاح ، سقط التفاح ، فسد التفاح... إلخ. ولا تأتي في مواضع معينة مثل تكلم التفاح ، ذاكر التفاح ، صام التفاح.

هذا الرصد الذي يحلل البنية على أساس تحديد البنية التوزيعة للعناصر والوحدات للتعرف على وظائفها فى التراكيب واللغة عمومًا - هو أحد آليات هذه المدرسة التى ساعدت على إمكانية وصف بنية اللغة - أية لغة - وصفًا علمياً دقيقًا ، والبنية هنا هي البنية المادية الشكلية فحسب ، حيث يقوم اللغوي هنا بدراسة توزيع العناصر اللغوية من حيث الشيوع والسياقات التى ترد فيها وشروط ورودها. ويشمل ذلك الفونيمات والألوفونات وما يسبقها ويتبعها فى كل السياقات ، كما يشمل المورفيمات وسياقاتها ، والكلمات وسياقاتها ، والجمل كذلك ، وقد أفاض بلومفيلد فى وضع عدد من الإجراءات أو آليات التحليل اللغوى التى تساعد على التفريق بين معانى الجمل مثل:

النبر - وإمكانية التناوب - والانتقاء الموقعي ، وغير ذلك من إجراءات، وبالجملة فقد بلغت هذه المدرسة حد الدقة النموذجية فى تحليل عناصر البنية الشكلية للغة على يد أنصار هذه المدرسة وعلى رأسهم ليونارد بلومفليد وتلاميذه مثل هاريس، وهوكت ، وبايك. وظل هذا الاتجاه هو الطابع العلمى للدراسات اللغوية التى سادت حتى منتصف القرن العشرين حيث استطاع أحد أتباع المدرسة الأمريكية الوصفية أن يخرج على خط المدرسة ويحدث ثورة جديدة فى مجال الدراسات اللغوية عرفت بالاتجاه التوليدى التحويلي.

علم اللغة في النصف الثانى من القرن العشرين :

فى الوقت الذى سيطرت على الفكر اللغوى مبادئ المنعطف الوصفى البنيوي وأفكاره بكل اتجاهاته ، الفونولوجية والاجتماعية والشكلية الاجتماعية والتجريبية السلوكية ، نجد عالمًا وصفيًا قحًا ، من شباب الاتجاه الوصفي التوزيعى ، الذى أرسى دعائمه بلومفيلد وهاريس فى أمريكا ، يتبنى مبادئ مغايرة فى فهم اللغة ، وفى منهج معالجتها هذا الشاب هو نعوم تشومسكي Naom Chomsky.

تشومسكى والنظرية التحويلية :

وتشومسكى أمريكى يهودى ولد سنة ١٩٢٨ ، درس في بنسلفانيا ، وقد حصل على الدكتوراة سنة ١٩٥٥ ، وكان تشومسكي وأستاذه هاريس من أتباع الاتجاه التوزيعى البلومفيلدى كما سبق القول. وقد تأثر تشومسكى سنة ١٩٥٥ بفكر جاكبسون الفونولوجى بعد انتقال الأخير إلى الولايات المتحدة ، واستقر به المقام حيث كان يدرِّس فى هارفرد ، وهو فكر يهتم بالمعني خلافا للنزعة الشكلية التى تجاهلته. وبعد انضمام تشومسكى لمعهد ماساشوسيت للتكنولوجيا شارك مع عدد من الباحثين منهم (هالي) مساعد جاكبسون فى بعض البحوث مما أثر فى تكوينه الفكرى، من خلال هذا التنوع في الاهتمامات البحثية واحتكاكه بنظريات علمية متنوعة في الإعلام والمنطق والرياضيات وعلم النفس والاتصال والترجمة وغيرها .

وقد أصدر سنة ١٩٥٧ أول كتاب له يبشر بنظرية جديدة فى اللغة بعنوان التراكيب النحوية Syntactic Structure ، وأتبعه بكتاب آخر جاءت فيه النظرية أكثر نضجًا وتطورًا وكان عنوانه "أوجه النظرية النحوية" Aspects of the Theory of Syntax .

ثم تتابعت كتبه ومقالاته ، وهي متنوعة وكثيرة ، وكلها من ذلك النوع الذي يمكن وصفه بالسهل الممتنع ، من حيث المنهج والأصالة والدقة ، بعد أن اتكأ

علـى الرياضيات بوصفها آليـة تحليل ، وعلـى اطلاع واسع ومعرفـة عريضـة بالاتجاهـات اللغويـة المختلفـة ، ومعرفـة أوسـع أتاحتهـا لـه ظروفـه التـى سبقت الإشـارة إليهـا : ممـا جعل منـه واحدًا من ألف رجل صنعوا حضـارة القرن العشرين.

أما أهم الفرضيات العلمية التى قامت عليها نظريته فيمكن إيجازها فيما يلي:

- ذهب تشومسكى إلى أن اللغة قدرة فطرية ، وليس كما ذهب سكينر ظاهرة عرفية مكتسبة ، ولو كانت اللغة تأتى بالاكتساب أى عن طريق الدربة والمران والتعلم - فكيف نفسر:

(أ) تلك القدرة التى تسمح للناس الأكثر غباء بالكلام على حين لا تتمكن من ذلك أكثر القرود ذكاءً ؟

(ب) كيف نفسر قدرة المتكلم على الإنتاج الفورى ، والفهم لجمل جديدة لا تشبه الجمل التى سمعها من قبل ؟

وتجيب فرضية تشومسكى مفسرة ذلك بأن اللغة ظاهرة فطرية ، والطفل يمتلك آلية فطرية سماها القدرة أو الكفاءة Comptence ، وهى متساوية لدى كل البشر ، وتخضع هذه القدرة لعملية نضج فيزيولوجي سيكولوجي ، وهى تسمح للطفل بتجديد النموذج اللغوى الذى عليه أن ينسجم معه عبر ما يتلقاه من محيطه.

- فرق تشومسكى - كما فعل سوسير - بين جانبين للغة الأول هو القدرة المشار إليها، وهي الكفاءة أو المقدرة الفطرية الموجودة لدى الإنسان ، والتى تمكنه من :

(أ) إنتاج عدد هائل من الجمل من عدد محدود جدًا من الفونيمات الصوتية.

(ب) الحكم بصحة الجمل التى يسمعها من وجهة نظر نحوية تركيبية.

(جـ) ربط الأصوات المنتجة ، وتجميعها فى مورفيمات تنتظم فى جمل.

(د) ربط هذه السلسلة الكلامية بمعني لغوى محدد.

كل ذلك يتم بعمليات ذهنية داخلية يتم التنسيق بينها بما يسمي قواعد إنتاج اللغة.

وتجمل الإشارة هنا إلى التشابه بين القدرة عند تشومسكى واللغة عند سوسير، فكلاهما يتكلم عن الجانب التجريدى الذهنى ، غير المحسوس من الحدث اللغوي لكن مصطلح تشومسكى يعنى كفاءة تمكنه من إنتاج الجمل الصحيحة فقط ، والتى ربما لم يسمع بها من قبل، أما مصطلح سوسير فيعني مجموعة قواعد مختزنة فى الذهن، وهى ثابتة، وبناء عليها يصوغ المتكلم الجملة.

- أما الجانب الثانى فهو الأداء أو ممارسة الملكة لعملها فى إصدار الكلام ، وهنا أيضًا يتقارب مصطح تشومسكى الأداء Performance مع مصطلح سوسير الكلام La Parole ، بوصفهما معًا يشيران إلى الحدث اللغوى المادى ، غير أن أداء تشومسكى يتسم بالمرونة ، وليس تطبيقًا لأية قواعد مختزنة ، بل فيه كثير من التردد والتكرار الذى تتحكم فيه ظروف المتكلم ، أما كلام سوسير فهو تنفيذ عملى لقواعد مختزنة.

- تهدف النظرية عند تشومسكى إلى الوصول إلى القواعد الشمولية بين كل اللغات ، ولذلك فهى تركز على الشق الذهنى المشترك بين كل البشر ممثلاً فى تلك القدرة الفطرية المشار إليها سلفًا. من هنا نجده يفرق بين جانبين فى بنية اللغة : الأول هو البنية السطحية Surface Structure ، وهو الجانب المادى الظاهر من اللغة ، وهو قطعًا بنية صوتية ، وهذا الجانب يختلف من لغة لأخرى ، أما الجانب الآخر من بنية اللغة فهو عنده ما يعرف بـ البنية العميقة Deep Structure ، وهو الشق الذهني المجرد والمشترك بين كل اللغات ، وثمة أدلة كثيرة على عالميته منها.

١ - أن اللغة أية لغة تعبر عن معانٍ وأفكار وعواطف ، وحيث إن الجزء الأكبر من هذه المعانى والأفكار والعواطف مشترك بين البشر على اختلاف أجناسهم ولغاتهم ، فإن التركيب العميق فى كل لغة لا بد أن

يحتوى على عناصر مشتركة بين كل اللغات.

٢ - كل إنسان سوى يولد وعنده الاستعداد ليتكلم ويفهم لغة ما ، هذا الاستعداد الموروث المشترك بين جميع بنى البشر لابد أن يصاحبه وجود عناصر مشتركة بين لغات بنى الإنسان.

٣ - من الممكن أن نترجم أية لغة فى العالم إلى أية لغة أخرى ، وما دام الأمر كذلك ، فإن هذا يدل على أن هناك أوجه تشابه عديدة بين اللغات من حيث المعني ، ومن حيث المبنى على السواء.

٤ - كل اللغات تقوم أصلاً على مجموعة محدودة من الوحدات الصوتية ، وكل اللغات فيها قدر - ولو ضئيل - من التشابه فى الأقسام النحوية. مسند مسند إليه ، فعل فاعل ، مذكر مؤنث ، اسم فعل... إلخ.

- وضع تشومسكى مجموعة من القواعد تسمي قواعد تحويلية Transformational grammar تفسر كيفية تحول البنية العميقة إلى تركيب ظاهر ، وهى نوعان : قواعد تحويل Transformational Rules، قواعد توليد Generative Rules وتتسم عنده بسمتين أساسيتين : الدقة من جانب والبساطة من جانب آخر.

وربما كنا فى حاجة الآن لأن نفهم : ماذا يقصد بالقواعد التوليدية والقواعد التحويلية فى نظريته، حتى لا يختلط الأمر بالقواعد النحوية التقليدية التى تحدد الخطأ والصواب وتشترط الالتزام كما رأينا عند عرضنا للمنهج المعياري.

إن القواعد التوليدية : مجموعة خاصة من القواعد وضعها تشومسكى مستأنسًا بالرياضيات ، لاكتشاف الطاقة الإبداعية داخل اللغة ، تلك الطاقة التى عرضنا لها بالتفصيل فى الفصل الأول من هذا الكتاب ، وهو يسعى هنا إلى وضع تصور منضبط يحدد كل الجمل الصحيحة ، والصحيحة فقط التى تستطيع أن تفسر القدرة اللغوية Competence على التوليد.

وحسب تشومسكى فإن تلك القواعد تمثل المحدود الذى يحدد اللامحدود بمنتهى الدقة ، تمامًا كالمعادلة الجبرية التالية:

٣ س + ٤ ص - ع = ؟

إن حل المعادلة يقتضى الإشارة إلى قيمة س وقيمة ص وقيمة ع.

وإذا كانت س = ١ ، ص = ٢ ، ع = ٣ لكانت المعادلة:

٣ س + ٨ ص - ٣ ع = + ٨

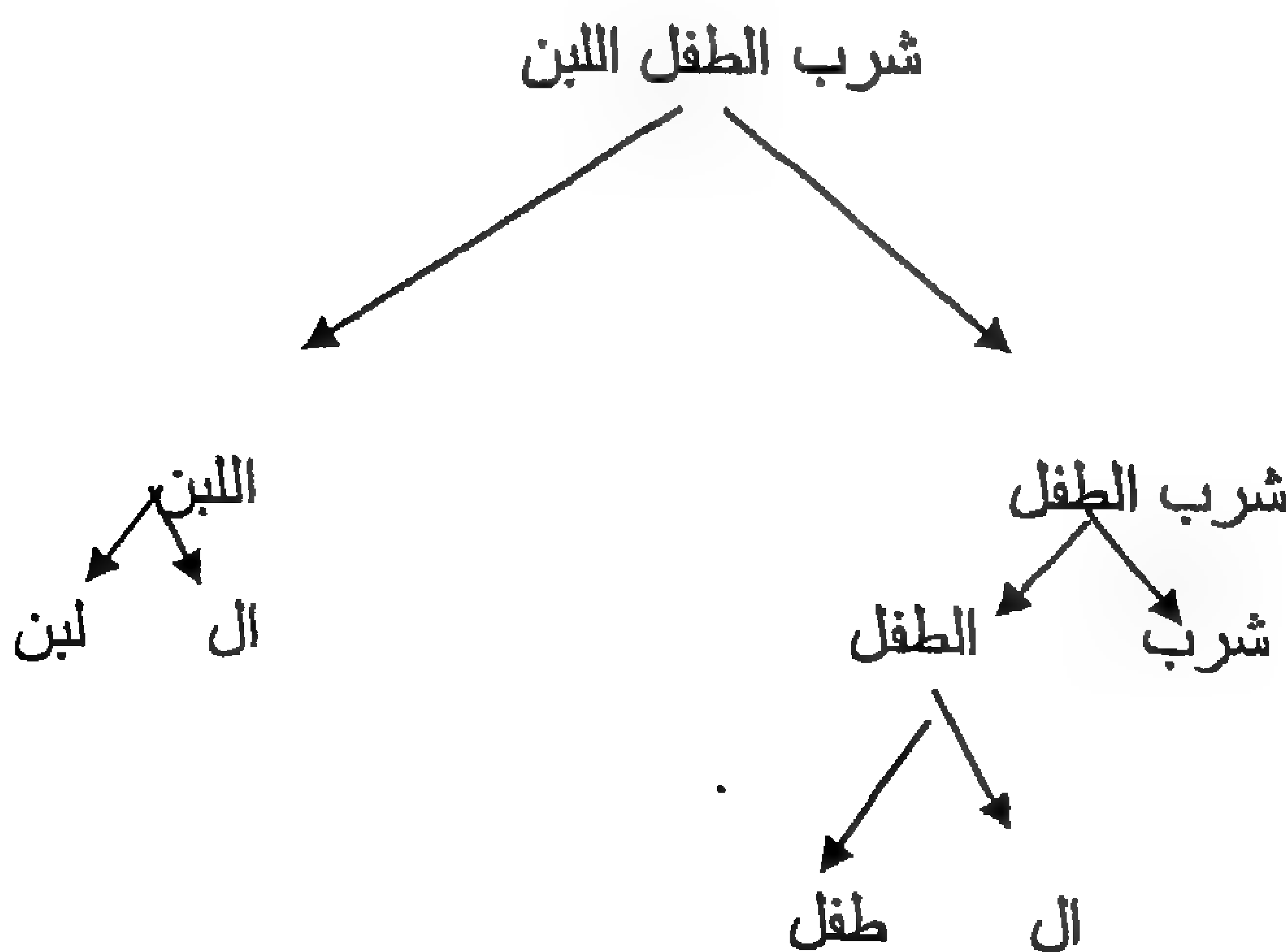
وإذا كانت س = ٢ ، ص = ٣ ، ع = ٤ لكانت المعادلة:

٦ س + ١٢ ص - ٤ ع = + ١٤

أما إذا كانت س = ٣ و ص = ٤ و ع = ٣٠ لكانت المعادلة:

٩ س + ١٦ ص - ٣٠ ع = - ٥

معنى هذا أن هذه المعادلة البسيطة ولدت لنا ثلاث قيم هى +٨ ، +١٤ ، -٥ ويمكن أن تمتد هذه القيم إلى ما لا نهاية له كلما استبدلنا رقمًا جديدًا برقم موجود فى المعادلة، والأمر كذلك بالنسبة للجملة الصحيحة التى يمكن أن تولد منها عدة أشكال تزداد كلما زدنا عنصرًا أو نقصنا عنصرًا ، وقد بدأت قواعد النظرية التوليدية بتطوير وسائل التحليل التى كانت متبعة لدى التوزيعيين من أتباع بلومفيلد ، والذى كان هو وأستاذه فى الخمسينيات من أبرز أتباعها ، بدأ بتطوير إجراءات التحليل بما سمى بتحليل المكونات المباشرة على النحو التالي:



ويلاحظ على التحليل السابق البساطة ، والشكلية ، واستبعاده للمعنى .

وقام تشومسكى بخطوة أكثر تطورًا عن التحليل الذى يتم على خطوات تعتمد كل منها على سابقتها فى شكل هرمى توليدى ، كل خطوة تأخذ شكل قاعدة، بحيث تسلم القاعدة ١ إلى القاعدة ٢ ، ثم إلى القاعدة ٣ ... إلخ، فالجملة السابقة مثلاً : شرب الطفل اللبن - تُحلل على النحو التالي:

١ - القاعدة رقم (١) : الجملة ← فعل + فاعل + مفعول

٢ - القاعدة رقم (٢) : ركن فعلى ← فعل + ركن اسمي.

٣ - القاعدة رقم (٣) : ركن اسمى ← ال + اسم

٤ - القاعدة رقم (٤) : مفعول ← ركن اسمى

٥ - القاعدة رقم (٥) : ركن اسمى ← ال + اسم

المفردات : اسم : الطفل - اللبن

فعل : شرب

وإذا أعدنا استبدال الكلمات التى على يسار السهم بتلك التى على يمينه أمكن توليد أشكال أخرى مثل:

الطفل شرب اللبن .

أو : شرب اللبن الطفل .

أو : اللبن شربه الطفل

وإذا أضفنا عنصرًا أو عنصرين تضاعفت إمكانات توليد عدد أكبر من الجمل ، تتوالد حتى تصل إلى ما يمكن أن يبلغ العدد اللانهائى .

النوع الثانى من القواعد التى ضمنها تشومسكى نظريته تعرف بالقواعد التحويلية. وطبقًا لهذه القواعد فإن الجملة الصحيحة التى تم توليدها ، يمكن تحويلها إلى صيغة أخرى ، فلو افترضنا جملة مثل : شرب الولد اللبن.

وأردنا أن نحولها إلى صيغة استفهام أو نفى أو بناء المجهول أو حصر أو تمن أو رجاء. فهل تستخدم قواعد التوليد السابقة ؟ أم أن ثمة قواعد لعملية التحويل ، أى تحويل هذه الجملة الأساسية بمعناها الموجود في البنية العميقة إلى الأشكال الأخرى على مستوى البنية السطحية ؟ لقد وضع فعلاً تشومسكى مجموعة أخرى من القواعد سميت بالقواعد التحويلية ، وهى مجموعة تسمح بإضافة عناصر وحذف عناصر أخرى ، بما يسمح بإجراء التحويل المطلوب. وتضم القواعد التحويلية مجموعتين الأولى تسمى القواعد الإجبارية ، والثانية هى القواعد الاختيارية .

وإذا أردنا أن نعتمد على المثال السابق : شرب الولد اللبن ، فإنها يمكن تحويلها إلى:

١ - شُرب اللبنُ التحويل من البناء للمعلوم إلى البناء للمجهول.

٢ - هل شرب الولد اللبن؟ التحويل من الإخبار إلى الاستفهام.

٣ - لم يشرب الولد اللبن التحويل من الإثبات إلى النفي.

٤ - إن الولد شرب اللبن التحويل من غير المؤكد إلى المؤكد.

٥ - شرب اللبن مفيد للولد للتحويل من الفعلى إلى الإسمي.

٦ - الذى شرب اللبن هو الولد التحويل من المباشر إلى غير المباشر.

٧ - ما شرب اللبن إلا الولد التحويل من العام إلى الخاص ... إلخ.

مما سبق يتضح أن تشومسكى اعتمد على جملة من الضوابط فى نظريته مثل:

١ - مجموعة من المكونات الأولية ، وهى قواعد التوليد وهى تزودنا بالمعلومات عن تركيب الجملة الأساسي.

٢ - مجموعة من المكونات التحويلية ، وهى قواعد التحويل ، وتزودنا بالمعلومات عن الشكل الخارجي.

٣ - مجموعة من المكونات الصوتية والصرفية مثل اختيار وحدات صوتية

مقبولة ، وصيغ صرفية تصلح لبناء لغوى صحيح لغويا فى عرف الجماعة مثل اسم ، فعل ، حرف ، معرفة ، مذكر ، غائب ... إلخ .

ثم يأتى نظام المعانى ، أى معنى الجملة ؛ ليكمل عنده قواعد اللغة التى تعنى العلاقة بين المنطوق (الأصوات) والمعني. ولكن العنصر الأخير لم يظهر فى الخطوات الأولى للنظرية ، الأمر الذى دفع عددًا من تلامذته إلى محاولة استكمالها ، وبه عُدلت النظرية فى أحد أهم أطوارها ، وإن استمرت فى التعديل حيث تغيرت منذ وضعت عدة مرات .

- يتسم منهج تشومسكى والتحويليين عمومًا بأنه منهج تحليلى بمعنى أنه يبدأ من أكبر وحدات اللغة ، ويتدرج حتى يصل إلى أصغر الوحدات ، وهو بذلك عكس المنهج الوصفى الشكلى البلومفيلدى الذى كان يتسم بكونه تركيبيًا ، حيث يبدأ من أصغر الوحدات حتى يصل لأكبر الوحدات.

- إن النظرة العلمية عند تشومسكى أقرب إلى العلم الكبلرى (نسبة إلى كبلر) فهو يهتم بالفرضيات العلمية أكثر من اهتمامه بالوقائع ، ويعني العلم الكبلرى بالنظريات أكثر من اهتمامه بالتحقق منها ، وتثبت جدارة النظرية من خلال بساطتها وخصوبتها ، على حين أن النظرة العلمية عند بلومفيلد والوصفيين عمومًا باكونية (نسبة لفرانسيس بيكون) التى تقوم على الملاحظة والتجربة ، وهو استقرائى لا يؤمن بالفرضيات المسبقة ، من ثم فهو وصفى جزئي غير قادر على الوصول إلى ماهو شمولي ، ويمثل العلم الكبلرى النقيض للعلم الباكونى ، كما يشكل الاختراع نقيضًا للاكتشاف .

- يمكن بلورة **الفروق بين الاتجاهين : الوصفى البنيوى من جانب، والتحويلى من جانب آخر** على النحو التالي :

١ - الوصفيون يبحثون فى الخاص أى يدرسون لغة معينة أما التحويليون فيبحثون فى العام ، أى يدرسون القواعد الشمولية العامة المشتركة بين كل اللغات (أو اللغة الإنسانية العامة).

٢ - الوصفيون تجريبيون يعنون بمادة اللغة الحية أو الكلام ، أما التحويليون

فعقليون يعنون بالقدرة المشتركة بين البشر.

٣ - الوصفيون يركزون على وصف الواقع واستقراء الموجود بالفعل لاكتشاف حقيقته ، أما التحويليون فيركزون على الفرضيات والنظريات الشمولية اعتمادًا على الاستدلال ، وصولا إلى الشئ المشترك بين اللغات.

٤ - الوصفيون تركيبيون يبدأون بدراسة أصغر الوحدات ثم ينتقلون إلى الأكبر فالأكبر ، أما التحويليون فتحليليون يبدأون من أكبر الوحدات ويفككونها حتى يصلوا إلى أصغر وحدات اللغة.

نظرية المكونات الدلالية أو التحليل التكويني :

تمثل هذه النظرية التعديل الذى أدخله عدد من تلاميذ تشومسكى يمثلهم كاتز وفودر سنة ١٩٦٣ ؛ لإدخال المكون الدلالى إلى التحليل، وقد عوّل هؤلاء على نظريتهم فى جعل النظرية التوليدية التحويلية تستكمل أركانها بعد أن كانت عند تشومسكى منصبة على الجملة وحدها أكثر من المعنى.

وقد تركزت نظرية كاتروفودر فى حل مشكلة المكون الدلالى وربطه بالمكون النحوى مع جعل المعجم عنصرًا أساسيًا فى التحليل.

وقد جاء حلهم للمكون الدلالى بوصفه محورًا حقيقيًا بعد أن لاحظوا أن الجمل التى يمكن توليدها قد تستوفى شروطها على المستوى الصوتى والصرفى والنحوى ، ولكنها لا تستوفى شروط الصحة الدلالية ، أى لا تفيد الجملة الصحيحة فى مكونها الصوتى والصرفى والنحوى معنى صحيحًا فى عرف الجماعة اللغوية ، وثمة مثال مشهور قدّم لذلك هو:

الأحلام الخضراء عديمة اللون تنام بعنف

فكل كلمة مركبة من مجموعة من الوحدات الصوتية التى تجعلها سليمة فى بنائها الصوتى ، وتفيد معنى معجميًا ، وكل صيغة تبدو صحيحة سليمة صرفيًا ، والبناء النحوى للجملة يبدو سليمًا متماسكًا كذلك ، إذن أين الخلل ؟

إنه في نظام المعاني ، حيث لا تأتلف الوحدات معا لتنتج معنى تركيبيا صحيحًا . فاقترح أصحاب النظرية حلاً يقوم على تحليل معنى كل كلمة إلى عناصر المعنى الصغرى أو ما سموه بالمكونات الدلالية ، وإذا تم تحليل المعنى إلى عناصره كما يتم تحليل عناصر المادة ، أمكن اكتشاف السبب في عدم التجانس أو التوافق بين عناصر المعنى في كلمة ، وعناصر المعنى في كلمة أخرى ، يراد أن تأتلف معها في تركيب ، وبتحليل عناصر المعنى مثلا وجدوا أن كلمة مثل رجل تتكون من العناصر التالية:

+ اسم + محسوس + حيّ + بشرى + ذكر + بالغ

وتتوزع العناصر السابقة على ثلاثة محددات أساسية:

أ - المحدد النحوى مثل + اسم.

ب - المحدد الدلالى مثل + : محسوس + حي ...

المميز الدلالى مثل + ذكر + بالغ

وإذا وضعنا مجموعة من الكلمات معًا ، وأردنا أن نميز بينها من خلال تحديد المكونات الدلالية مثلا لوجدنا :

المكون الدلالي	رجل	امرأة	طفل	أسد	جميل
اسم	+	+	+	+	+
محسوس	+	+	+	+	-
حي	+	+	+	+	-
بشرى	+	+	+	-	-
ذكر	+	-	+	+	-
بالغ	+	+	-	+	-

الوصول إلى تحليل عناصر المعنى الخاصة بكل كلمة على هذا النحو سوف يمكننا بالضرورة من حل مشكلة عدم التجانس أو عدم التوافق التى أدت إلى خلل التركيب:

الأحلام الخضراء عديمة اللون تنام بعنف

فمن العناصر الدلالية المكونة لكلمة الأحلام (- محسوس – حي).

ومن العناصر الدلالية لكلمة تنام (+ حي).

ومن السابق يتبين أنه لا تجانس بين كلمتى الأحلام والخضراء لأن الأولى - محسوس ، والثانية + محسوس ، كما يتبين أن كلمة الأحلام لا تتوافق مع الفعل تنام لأن الأحلام - حى ، والفعل + حى · وقس على ذلك كل خلل فى تركيب لا ينتج معنى وهو سليم صحيح صوتيًا وصرفيًا ونحويًا.

ولعل أخطر العقبات أمام هذه النظرية أن الكلمات الوظيفية كالأدوات ، وهى أعلى أقسام الكلم الثلاثة ترددًا فى الجمل - يصعب تحديد العناصر الدلالية الخاصة بكل منها انظر إلى : ما أو : إن - أو : الواو ، لتعرف كيف تتعدد الخواص الدلالية لكل منها ويتوقف معناها على العلاقات التركيبية ، وهى جد معقدة.

والأفعال كذلك بعضها لازم وبعضها متعد ، وبعضها يحتاج مفعولاً معينًا وبعضها يحتاج إلى فاعل معين انظر مثلاً :

١ - على يقصدك بكلامه		الفعل قصد متعد

٢ - على يقصد إلى الاعتذار لك		الفعل قصد لازم

٣ - سيَّح الزبد		ولا يقال سيَّح الورق أو الخشب مثلا.

٤ - غرَّد البلبل		ولا يقال نهق البلبل

والقول بأن كلمة أسد تساوى كلمة ليث فى المكونات الدلالية - فيه مبالغة

غير مقبولة لأن اختلاف المبنى يعنى اختلاف المعنى بالضرورة وعند المحققين من علماء الدلالة يندر وقوع الترادف التام ، وقس على ذلك مشكلات المشترك والتضاد وغيرها التى تقف فيها المكونات الدلالية فى بعض الأحوال عاجزة عن التمييز بين الوحدات المتداخلة أو المتقاربة فى العناصر ، وأن تقديم أمثلة واضحة كألفاظ القرابة أو الألوان أو الطعام لا يعنى كفاءة النظرية فى تقديم نظرية شاملة لنظام الدلالة.

نظرية نحو الحالة Case grammer :

تعد نظرية نحو الحالة لتشارلز فلمور إحدى أهم النظريات التى ظهرت بعد النظرية التحويلية ، ولا شك أن هذه النظرية قد خرجت فى منطلقاتها الأساسية عن كل النظريات التى سبقتها ، سواء البنيوية الاجتماعية عند سوسير ، أو البنيوية التوزيعية عند بلومفيلد ، أو التوليدية التحويلية عند تشومسكى ، أو حتى النظرية اللغوية التقليدية ، فهذه جميعًا اعتمدت على تصنيف اللغات وتوصيفها من تحليل بنيتها الصوتية والصرفية والنحوية فضلاً عن معجم اللغة ، سواء بدأت من أصغر الوحدات وهو الصوت (الفونيم) وانتهت بالجملة كما فعل البنيويون بكل اتجاهاتهم ، وهو ما اتسم بالتركيبية من جانب والشكلية من جانب ثان ، أو بدأت بأكبر الوحدات وهى الجملة فالكلمة فالمورفيم فالصوت ، وهو ما اتسم بالتحليلية كما فعل التحويليون بكل اتجاهاتهم.

إن فلمور ينطلق من المعنى ولا ينطلق من المبنى، ولا يريد معالجة اللغات من جانب الشكل فيها ، وهو أمر تختلف فيه اللغات كل الاختلاف ، بل يريد معالجتها من جانب المضمون والمحتوى ، وهو أمر لو أحسنا معالجته لوضعنا أيدينا على جوهر ما تتفق فيه اللغات ، أو ما عرف بالعموميات اللغوية.

إن المعنى لم يعد كما كان فى بداية القرن موضوعًا يجادل حول العلماء ، ويختلفون حول موقعه من علوم اللغة ، حتى ظفر خلال القرن العشرين فقط لأول مرة فى تاريخ الدرس اللغوى بأن خصصوا له فرعًا مستقلاً سموه بعلم

الدلالة Semantic ، فقبل أن يطوى القرن العشرون صفحاته تحول المعنى إلى موضوع الدرس اللغوى الأول فى نظرية نحو الحالة. وبعده لا قبله تأتى الأنماط الشكلية الأخرى من أصوات وصرف ونحو.

إن الإنسان حين يقصد إلى التعبير عن معنى ما ، فإن ثمة مجموعة من المفاهيم العامة توجهه إلى أن يقول قولاً ما فى ضوء وعيه بما يدور حوله من أحداث ، ومن المهم للغاية أن نحدد هذه المفاهيم الكلية العامة التى يمثل كل مفهوم منها الحالة التى توجه القول وتحدد شكله ، ويقدم فلمور تصورً عامًا يشمل مجموعة من المفاهيم العامة ، ومجموعة من المفاهيم الخاصة ، وطائفة من الوظائف والأغراض التى تعبر عنها هذه المفاهيم.

فمن المفاهيم العامة :

١ - الزمان : لابد من تحديد مفهوم الزمن ، النقطة الزمنية ، المدة الزمنية ، العلاقات الزمنية ، استمرار الزمن ، انقطاع الزمن - تكرار الزمن - اتصال الزمن ... إلخ.

٢ - المكان : الأبعاد ، الأطوال - المكان الثابت ، الحركة فى المكان ... إلخ.

٣ - العلاقات المعنوية : العلاقات المنطقية ، الفاعل ، المفعول ، الباعث على العمل ، المستفيد من العمل ، الإسناد ... إلخ.

٤ - العدد والكمية : العدد المحدود ، العدد غير المحدود ، العمليات العددية : جمع - ضرب - طرح – قسمة.

٥ - الأجسام : الكبير - الصغير - الضخمة ... إلخ.

٦ - السياق : اللفظى المقالى ، والاجتماعى المقامى ؛ وعناصر كل.

ومن المفاهيم الخاصة التى لها علاقة بالعواطف والمواقف الإنسانية :

١ - مدى التأكد : البقية - الاحتمال - الإمكانية - التردد - الشك ، النفى ، التأكيد.

٢ - النية - العزم - الرغبة - الميل - القصد - التوجيه ، الرضا - القبول – السخط ، الاقتناع - الإصرار ، المسؤولية ، الولاء ... إلخ.

ومن أهم الوظائف اللغوية :

١ - التقويم والحكم - كالتقدير ، واكتشاف الخطأ أو الصواب ، والقدرة على إصدار الحكم والموافقة والمخالفة والقبول والرفض ... إلخ.

٢ - التأثير على سلوك الآخرين كالإقناع ، والاقتراح ، وتقديم النصح ، والتوصية ، والإثارة والتشجيع ، والإجبار والتسامح.

٣ - الجدل : كالموضوعية ، والانحياز ، والتشبث بالرأى ، والقدرة على التعليل، والإفحام والتبرير.

٤ - العلاقات العاطفية : كالتحية ، والتعارف ، وعرفان الجميل ، والمدح والهجر والتعلق والعشق والهيام والبغض ، والحقد والغيرة ، والأثرة ، والوفاء والتنكير ... إلخ .

إن المضمون يأتى عند فلمور أولاً ، ويأتى القالب أو الشكل الذى يعبر عن المفهوم أو الوظيفة ثانيًا ؛ لأن الأشكال قد تتغير ، وتخدع ، وتضلل الإنسان عن رؤية الفكرة الأصلية . فالجمل التالية تبدو فى الشكل مختلفة ، ولكن فى المعنى هى متشابهة:

١ - فتح على الباب.

٢ - فتح المفتاح الباب.

٣ - انفتح الباب.

٤ - فتح على الباب بالمفتاح.

٥ - استخدم على المفتاح لفتح الباب.

إن المبانى أو العناصر الشكلية تقول لنا ما يلي :

١ - الفاعل فى الجملة الأولى على ، وفى الجملة الثانية المفتاح ، وفى الجملة الثالثة الباب، وفى الجملة الرابعة والخامسة علي.

٢ - الباب فى الجملة الأولى والثانية والرابعة مفعول ، وفى الجملة الثالثة فاعل ، وفى الجملة الخامسة مضاف إليه.

هذا الوصف الشكلى للبنية يظهر حجم التعارض والتضارب فى الشكل والمعانى الوظيفية للوحدات . وعلى الرغم من ذلك فإن العلاقة المعنوية الأساسية فى الجمل واضحة ، والمفهوم الكلى سهل الإدراك وهو :

* أن هناك بابًا تم فتحه.
* أن هناك فاتحًا للباب هو علي.
* أن هناك وسيلة للفتح هى المفتاح.
* كل ما سبق هو المفهوم الأساس الذى يربط الجمل ، تمامًا كما نعرف من جملة : خرق الثوبَ المسمارُ (الجملة التراثية المشهورة) ما يلي :

١ - أن فعلاً حدث هو الخرق.

٢ - أن شيئًا أحدث الخرق هو المسمار (فاعل قائم بالفعل لا واقع منه الفعل) ونعرف أن المسمار لا يخرق بنفسه ، وإنما يستخدم للخرق فهو فاعل لا على الحقيقة بل فاعل بالإسناد (أى أسند إليه نحويا القيام بالفعل).

٣ - وأن الثوب مفعول وقع عليه الخرق فى الحقيقة . على الرغم من هذا الترتيب للجملة على غير الأصل ، وبرغم العلامات الإعرابية التى تسهم فى إرباك المتلقي.

وقد تابع العلماء فى إطار هذه النظرية محاولتهم لتطويرها ، واقترح بعضهم نموذجًا متكاملاً ، يضم أفضل ما انتهى إليه علماء هذه النظرية مثل : فلمور ، وتشيف، وأندرسون. وهم فى سعيهم لمعالجة المضمون الدلالى فى الجمل ، فإنهم يحللون المعنى فى التركيب العميق إلى : فعل أساسى ، يرتبط به مجموعة من العبارات الاسمية محدودة الوظيفة ، وهذه الوظائف cases ، متعددة ،

بعضها أساسىّ ، وبعضها ثانوى ، والأساسية هى : العامل ، والمجرِّب أو المعانى (أو الباعث على العمل) ، والمستفيد (منه) ، والمفعول ، والمكاني ورمزها على الترتيب هـو A : و E و B و O و L .

A - العامل : Agent وهى الوظيفة التى يتطلبها الفعل الدالّ على العمل، والعامل Agent هو العامل الحقيقى الحى الذى يقوم بالعمل ، ويمكن عد الاسم الجامد غير الحى ، الذى يدل على نشاط معين عاملاً.

E - المجرِّب أو المعانِى : Experiencer وهى الوظيفة التى يتطلبها الفعل الدال على المعاناة ، والمعانى هو الشخص الذى يمارس إحساسًا ، أو شعورًا، أو إدراكًا ، أو اتصالاً وتبادلاً للأفكار.

B - المستفيد : Benefactive وهى الوظيفة التى يتطلبها الفعل الدال على الاستفادة ، والمستفيد هو المالك للشىء ، أو الجهة التى يتم نقل الملكية منها أو إليها.

O - المفعول : Object وهى الوظيفة التى توجد بشكل إلزامى ، فى أى من الأفعال الثلاثة : الثابت Static ، أو اللازم Process ، أو المتعدى Action .

L - المكانى : Locative وهى الوظيفة التى يتطلبها الفعل الدال على المكان .والمكان إما أنه يدل على مكان ساكن static ، أو على مكان متحرك (اتجاه) ، وهذا يستخدم فى الأفعال الدالة على الحركة.

وأما الوظائف الثانوية فهى : الأداة أو الوسيلة Instrument (وقد عوّل فلمور عليها كثيرًا)، والمفعول غير المباشر Dative ، والهدف Goal ، والمصدر Source ، والزمن Time .

وإذا أعدنا تحليل المثال السابق ؛ لتحليل وظيفة الفعل ، علمًا بأن رمز الأداة أو الوسيلة هو (I) سنجد ما يلي :

فتح	علي	الباب	بالمفتاح
..	A	O	I

فتح	المفتاح	الباب
..	I	O
فتح	علي	الباب
..	A	O
فتح	الباب	
..	O	

من التحليل السابق يظهر أن الإطار الوظيفى للفعل فتح هو:

[O و (I) و (A) =] + .

١ - أن ما بين القوسين الكبيرين [ ] هو مجموعة من الرموز التى تشير إلى الوظائف المرتبطة بالفعل فتح:

٢ - أن العلامة - ، وقد وردت فى التحليل فى شكل نقطتين متجاورتين هكذا .. ترمز للفعل فتح.

٣ - أن القوسين الصغيرين ( ) يشيران إلى أن الرمز الواقع بينهما يقع بشكل غير ثابت ، أى يظهر تارة فى الجملة ، ويختفى تارة أخرى.

٤ - أن الرمز O وقع بين القوسين الكبيرين ولكنه لم يوضع بين قوسين صغيرين ، أى أنه يظهر بشكل ثابت ، ولا يختفى أبدًا من الجملة. (لاحظ أن الفعل فتح متعدٍ ، وحين جيء بمطاوعه انفتح ، ظلت O كما هى ، وإن تغير دورها النحوى ، وبقى دورها الدلالي).

مما سبق يظهر أن التحليل هنا ركز على المضمون من خلال البنية العميقة Deep structure، ولم يُعن بالشكل كما عُنى بذلك البنيويون ، ولا بمجرد تحليل تركيب الجملة النحوى ، كما عنى بذلك التحويليون ، وإذا كانت نظرية تحليل المكونات الدلالية لكاتز وفودر قد حاولت استدراك ما فات النظرية التحويلية على مستوى دلالة المفردات ، فإن نظرية نحو الحالة قد

حاولت استدراك ما فاتها على مستوى دلالة التراكيب من خلال تحليل البنية العميقة ؛ ليصبح المعنى محور الاهتمام عند جل الاتجاهات اللغوية التى تتابعت بعد النظرية التحويلية وبخاصة فى إطار علم الدلالة التوليدى Generative semantics.

ملخص الوحدة الرابعة



- عرضت هذه الوحدة لبدايات الفكر اللغوي عند الأمم القديمة من مصريين وبابليين وصينيين وفينيقيين ، وكان اختراع الكتابة هو أهم إنجاز لغوي في هذه المرحلة .
- رصدت هذه الوحدة بعض المنجزات اللغوية عند عدد من الشعوب ذات الإسهام المتميز كالهنود والإغريق والعرب وركزت على سبق الهنود والعرب وبخاصة في مجالي الأصوات والمعجم .
- تابعت الوحدة الجهود اللغوية لدى الرومان ، وصولا إلى عصر النهضة وانطلاق الدراسات اللغوية المقارنة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.
- في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين تابعت الوحدة جهود عدد من رواد الدرس اللغوي الذين أسهموا في مولد علم اللغة الحديث، مثل ويتني وسابير الأمريكيين ، وبودوان دي كورتني الروسي وصولا إلى سوسير السويسري ، الذي يعد المؤسس الحقيقي لهذا العلم، وقد تم تلخيص ثنائيات سوسير الشهيرة التي أحدثت زخما هائلا في كل أنحاء العالم تقريبا.
- عرضت الوحدة بعد ذلك للأثر الذي أحدثته أفكار سوسير خلال النصف الأول من القرن العشرين ، متمثلا في المدارس والاتجاهات اللغوية مثل: حلقة براغ ونظرية الفونيم، ، وحلقة كوبنهاجن ونظرية الجلوسماتيك، والمدرسة الإنجليزية ونظرية السياق ، والمدرسة الأمريكية والنظرية التوزيعية،
- واختتمت هذه الوحدة باستعراض أهم الاتجاهات في النصف الثاني من القرن العشرين ، كالنظرية التحويلية لتشومسكي، ونظرية المكونات الدلالية لكاتز وفودر، ونظرية نحو الحالة لفلمور.

أسئلة على الوحدة الرابعة

المجموعة الأولى:

س١- وضح كيف تميز الفكر اللغوي عند الهنود في مجالي الأصوات والصرف.

ج ١ -- في مجال الأصوات: استطاع الهنود أن يميزوا بين الحركات وأشباه الحركات والصوامت، ونجحوا في تحديد مخارج أصوات لغتهم بدقة ، واستطاعوا أن يضعوا مقياسا لقياس طول الحركات ، كما نلاحظ أنهم تحدثوا عن قواعد الإبدال والتضعيف ، والمقطع والنبر بوصفها ظواهر صوتية مهمة. وبوجه عام فإن إنتاجهم الصوتى يستوعب موضوعات علم الأصوات النطقى والفسيولوچى والسمعي.

وفي مجال الصرف : أما عن دراساتهم فى مجال االصرف فقد عدّوا هذا العلم مكملاً لعلم النحو وقد رأى (ياسكا) أشهر الاشتقاقيين الهنود:

- أن كل الكلمات يمكن أن ترد إلى أصول تسمى جذورا ، مما يساعد على التمييز بين الجذور واللواحق.
- كل الأسماء لها أصل فعلى ، وقد ميزوا بين ثلاثة أنواع من الجنس ، مذكر ومؤنث ومحايد.
- لا الجذور ولا اللواحق قابلتان للاستقلال ، ويتوصل إلى الجذور عن طريق التصريف. علماً بأن الجذور لا تقبل التقسيم.
- ضرورة مراعاة التغيرات الصوتية التى تلحق الكلمة كالحذف والزيادة والإبدال والمماثلة... إلخ ، كما يجب مراعاة المعنى عند إجراء الاشتقاق بوضع الكلمة فى سياقها.
- لاحظ أن بعض الجذور تتصرف بطريقة واحدة ، وبعضها يتصرف تصرفاً ناقصاً ، وبعضها (فى الفيدا) قد مات ، وآخر قد جد ، وتعطى

الجذور دائما معنى الحدث ، ولا تحمل أى مدلول مادي.

- بعض الجذور جاءت من محاكاة أصوات الطبيعة.

س٢- وضح كيف تميز الفكر اللغوي عند الهنود في مجالي النحو والمعجم.

ج٢- يمثل الفكر النحوي الهندي أصدق تمثيل فيما أنجزه بانيني في كتابه أشتا ضياي أوذي الثمانية أجزاء ، ويمكن بلورة أهم ما أضافه على النحو التالي:

أ - أن عمله نموذج للوصف الذى أقيم على أساس رياضى ، وضم نحو أربعة آلاف قاعدة نحوية وهو عمل وصفى تزامني.

ب - تحول النحو عند بانينى إلى علم مستقل لا يختلط بغيره من المعارف.

جـ - اعتمد بانينى على وصف اللغة الحية المنطوقة. وعد الكلمة وحدة قابلة للتقسيم ، وكان منهجه يعتمد على التحليل الدقيق إلى أصغر الوحدات.

د - كانت القواعد التي انتهى إليها مختصرة ، واستخدم مصطلحات فنية محددة ، وكانت معالجته منطقية ومقنعة.

هـ - رأى أن وضع مجموعة من الكلمات بعضها بجانب بعض لا يشكل جملة، فحين يقال (النار باردة) لا يعد جملة ، وحين يقال (النار ملتهبة) فتلك جملة ، لأنهم يشترطون في الجملة : التوقع - الاختصاص - التقارب (التجاور).

و - فرق نحاة الهند بين البيئات عند جمع اللغة ، ورأوا أن اللغة النقية توجد فى بعض المناطق دون بعض. (وهو ما يذكرنا بصنيع الرواة العرب في جمع اللغة).

٤ - أما فى مجال المعجم. فقد خلف الهنود تصنيفات مختلفة منها:

- قوائم غريب (الفيدا) تعرف بـ النيغانتو Nighantu أو المجموع المرتب.

- مجموعة من الشروح أشهرها تعرف بـ النيروكتا Nirukts منسوبة لياسكا ، ويمكن عدها معجماً من معاجم المعانى (أو الموضوعات).
- ثمة نوع آخر يسمى الكوزس Kosos أى معاجم الكلمات ، وتمثل الفرق بين النيروكتا والكوزس فى :

أ - النيروكتا تعالج كل أنواع الكلمات ، والكوزس خاصة بالأسماء فقط.

ب - الكوزس معاجم منظومة ، أما النيروكتا فليست كذلك مما جعل الأولى صعبة وغير عملية.

- أما أشهر كتب الكوزس فالمعروف بـ أماراكوزس Amara Kosas منسوبة إلى (أماراسنها) وقد كتب فى القرن السادس الميلادى ، وهو أحسن مرشد للكلمات الفصيحة في السنسكريتية.
- هناك معجم للمشترك اللفظى لمؤلف يدعى سافانا في القرن السادس ، وهو مرتب بشكل عجيب ، حيث يأتى أولاً بالكلمات التى تحتاج لبيان معناها إلى بيت كامل ، ثم التى تحتاج إلى نصف بيت ثم التي تحتاج إلى ربع بيت ، وتوالت بعد ذلك معاجم فى المترادف والمشترك وجلها من المنظوم الذى يسهل حفظه.

ويلاحظ على منهج المعجميين الهنود ما يلى:

- بعضها مرتب بحسب الموضوع. (يشبه ذلك مخصص ابن سيده ، وفقه اللغة للثعالبي).
- بعضها مرتب بحسب حروف الهجاء ، إما حسب الساكن الأخير (القافية، يشبه ذلك الصحاح للجوهرى) وإماحسب الحرف الأول (يشبه ذلك أساس البلاغة).
- بعض المعاجم كان يرتب حسب حجم الكلمة وعدد مقاطعها.

س٣- وضح كيف تميز الفكر اللغوي عند العرب في مجالي الصرف والنحو؟

ج٣- تناول العلماء العرب لغتهم بالوصف الدقيق سواء على مستوى الكلمة وعلى مستوى التركيب ، ووضعوا قواعد دقيقة لهذه اللغة ، ويعد كتاب سيبويه فى النحو العربى محاولة لا تقل عن محاولة بانينى بالنسبة للغة الهندية بحيث يمكن القول إن سيبويه هو بانينى العربية ، بل يمكن القول إن بانينى هو سيبويه الهندية، فالمحاولة التى قام بها سيبويه هى عمل وصفى دقيق فى طابعه العام ، وظهرت عدة مدارس نحوية تناولت قواعد اللغة بالدرس والتحليل ، وتعددت مطولات الصرف والنحو المنثور منها والمنظوم ، ولم تترك زيادة لمستزيد.

س٤- وضح كيف تميز الفكر اللغوي عند العرب في مجال الأصوات والدلالة والمعجم.

س٥- ما الضوابط التي التزم بها الإغريق في منهجهم المعياري لتناول اللغة؟

س٦- اذكر أهم الأسس التي ميزت منهج العلماء العرب في جمع مادة لغتهم .

س٧- حدد ثلاثة من أهم إسهامات العرب في مجال اللغة.

س٨ – اذكر أهم الأفكار التي قدمها ويتني وكانت مؤثرة في ظهورعلم اللغة الحديث.

المجموعة الثانية: ضع علامة (√) أمام الخيار الصحيح فقط:

س١- الاتجاه اللغوي الذي عني بتحديد مفهوم الفونيم والتحليل الفونولوجي هو:

ا – حلقة كوبنهاجن. ب- حلقة براغ. √

ج – الاتجاه التوزيعي. د – الاتجاه التوليدي.

س٢- الذي ميز بين جانبين من الحدث اللغوي أحدهما اللغة والثاني الكلام هو:

ا – فلمور. ب- تروبتسكوي.

ج- سوسير. √ د – تشومسكي.

س٣- مدرسة هندية قديمة نادت بنظرية الأصل الفعلي لكل الجذور هي مدرسة:

ا – ياسكا. ب- بانيني.

ج – المشارقة. د – ساكاتايانا.

س٤ – من أسس المنهج اللغوي السليم في وصف اللغة التي أخذ بها العرب:

ا – أنهم حددوا عصرا للاحتجاج اللغوي.

ب- التلقي بالمشافهة .

ج – أنهم تناولوا القواعد بأسلوب منطقي.

د – التزامهم بالمنهج المعياري.

س٥ - لغوي ميز بين ما يلفظه المتكلم بالفعل وبين الفونيم الذي يظن أنه يلفظه:

أ- كورتني. ب – ويتني.

ج – كروسزيوسكي. ج – جاكبسون.

س٦ – يوصف منهج المدرسة الأمريكية التي رائدها بلومفيلد بكونه:

ا – شكليا اجتماعيا . ب- شكليا رياضيا.

ج – بنيويا. د – سلوكيا توزيعيا.

س٧ – مالينوفسكي أنثروبولوجي بولندي كان رائدا في التنبيه إلى فكرة:

ا – الفونيم. ب- المقام.

ج – الانتقاء الموقعي. د – الدال والمدلول.

المجموعة الثالثة : ضع علامة (√) أمام الإجابة الصحيحة وعلامة (×) أمام الخطأ:

١ – مدرسة الشذوذبين مدرسة إغريقية رأت أن اللغة ظاهرة فطرية. (√)

٢ – من ثنائيات سوسيرتمييزه بين القدرة من جانب والأداء من جانب آخر (×).

٣- هاريس لغوي أمريكي أدرك التعارض التمييزي بين الفونيمات.

٤ – يبدأ البنيويون التحليل اللغوي بأصغر الوحدات والتحويليون بأكبرها.

٥ – نظرة تشومسكي العلمية كبلرية ، ونظرة بلومفيلد بيكونية.

٦ – نظرية نحو الحالة ربطت المكون الدلالي بالمكون النحوي .

٧ – جعل كاتز وفودر المعجم عنصرا أساسيا في التحليل اللغوي.

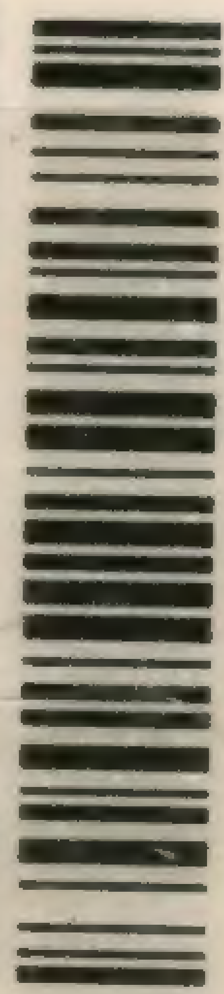
٩- رائد من النفسيين ذكره المقام ← (عالم لينوفسكي)

رقم الإيـــداع : ٢٠٢٩٠ / ٢٠٠٧

I.S.B.N : 977 - 403 – 235 - 7



مركز
جامعة القاهرة
للتعليم المفتوح
تم الطبع بمطبعة
مركز
جامعة القاهرة
للتعليم المفتوح



Bibliotheca Alexandrina
1147499



10102100